

تأليف
داخل السيد حسن

الجزء الأول





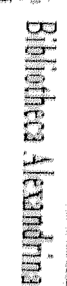


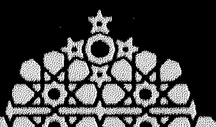










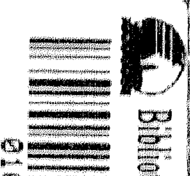




تأليف

[illegible]

الجزء الأول

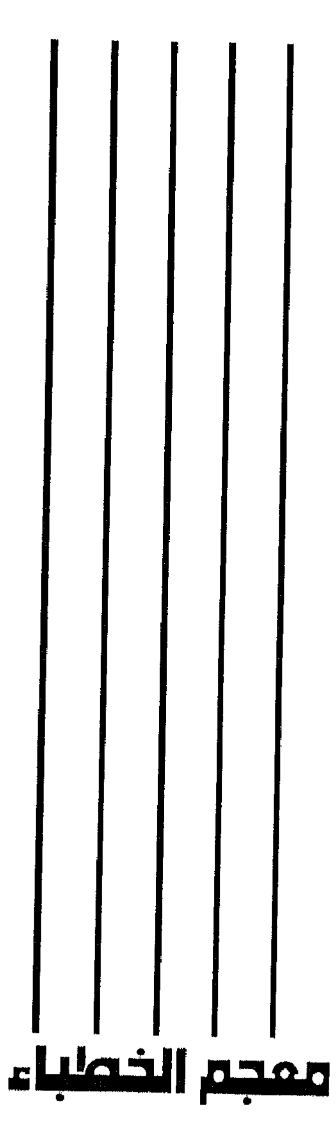


هذا الكتاب:

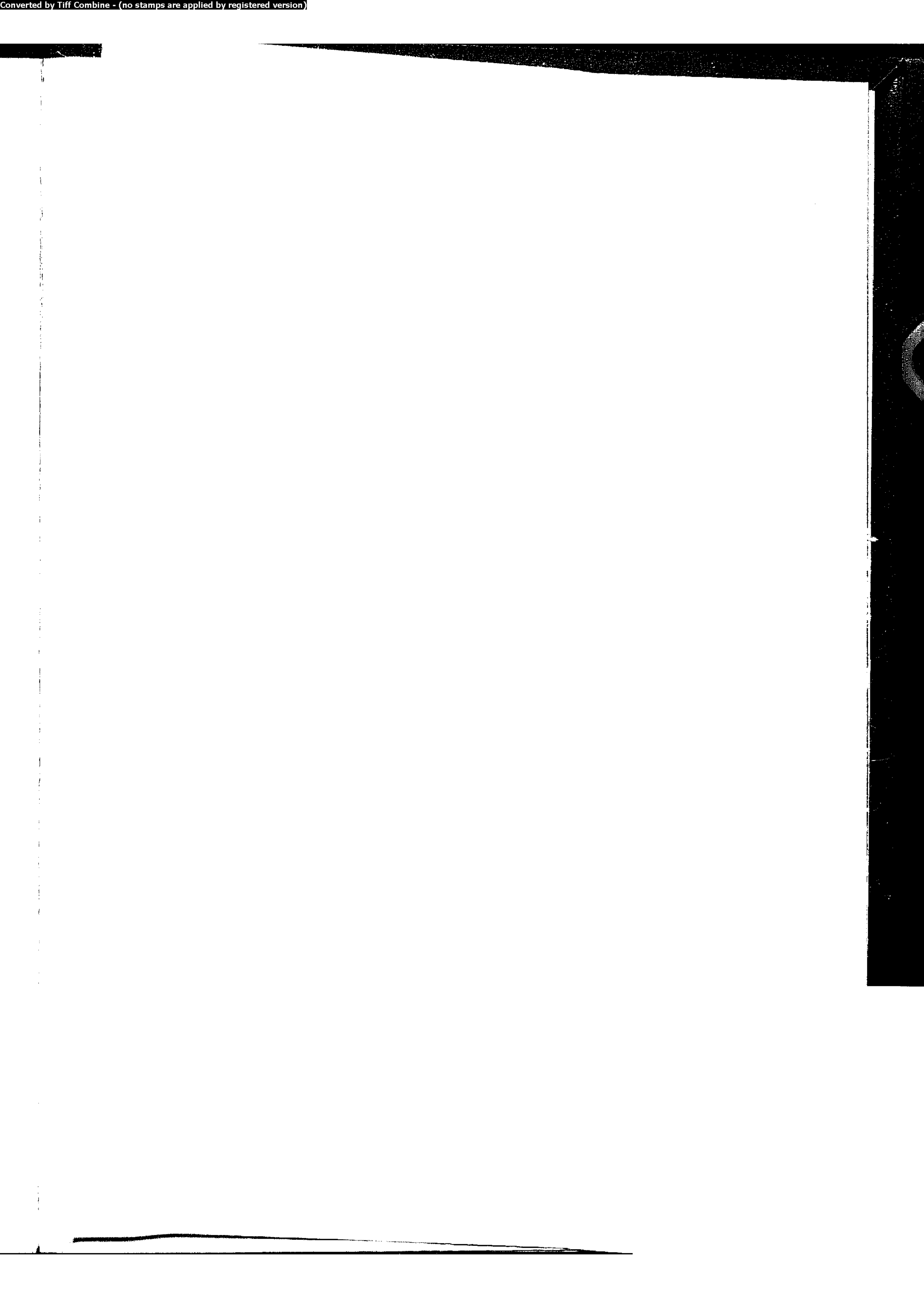
معجم الخطباء كتاب فني موسوعي يسجل على صفحاته عرضا لأجيال من الخطباء الراحلين والمعاصرين.

ويؤرخ لجمهرة من رجال المنبر وفرسان الخطابة بدراسة موثقة، ومصادر معتمدة، وصور حية، ومشاهدات وانطباعات ميدانية وخلاصة تجارب، وعصارة خبرة واستقراء حتى تبلورت هذه الخدمة المتواضعة لهذه الشخصيات النموذجية في الحياة والتاريخ، والرموز الفاعلة في ضمير المجتمع والمعالم الهامة في التربية والاصلاح والتوجيه الاجتماعي.





معجم الخطباء



معجم الخطباء

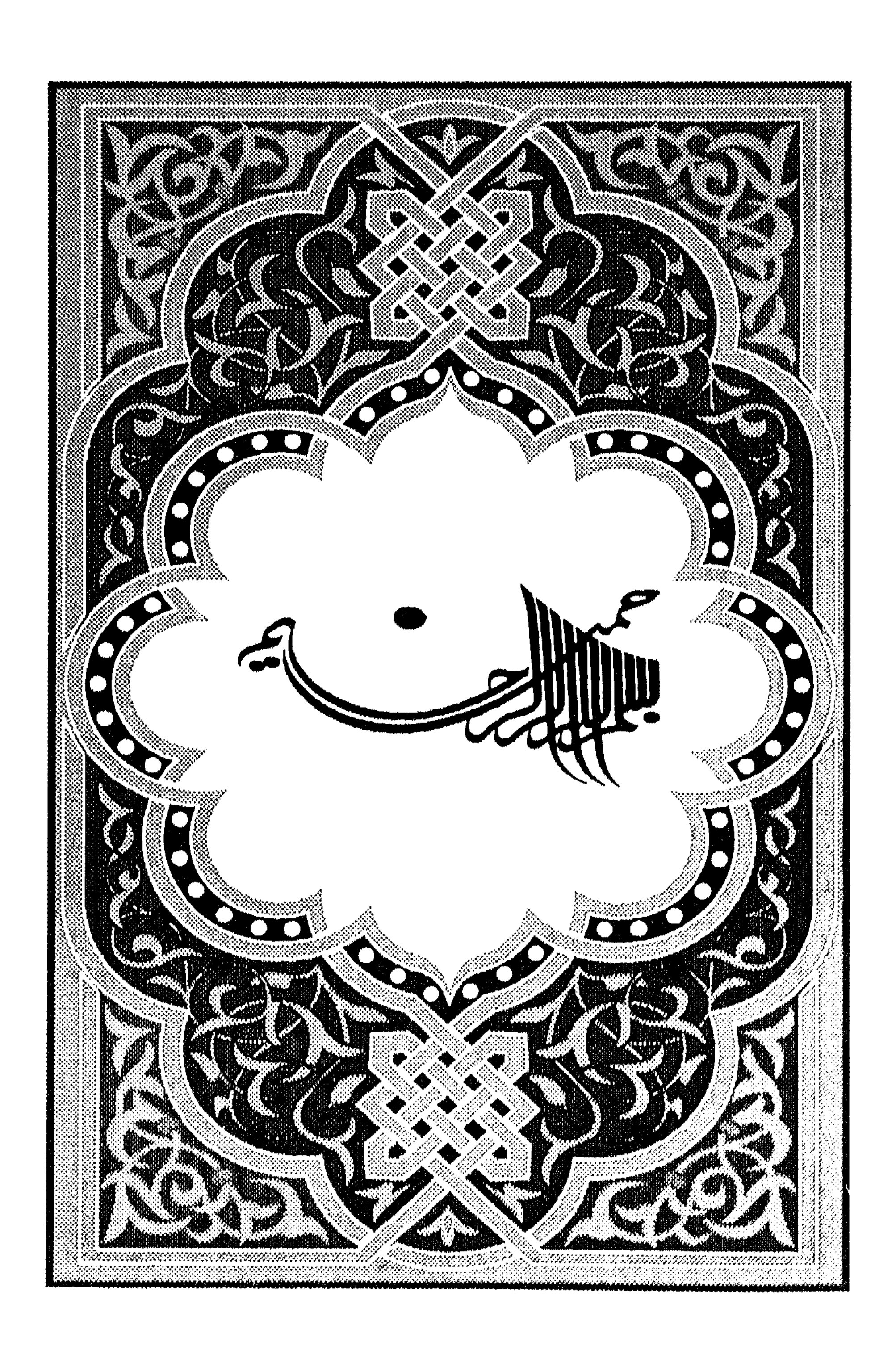
تأليف

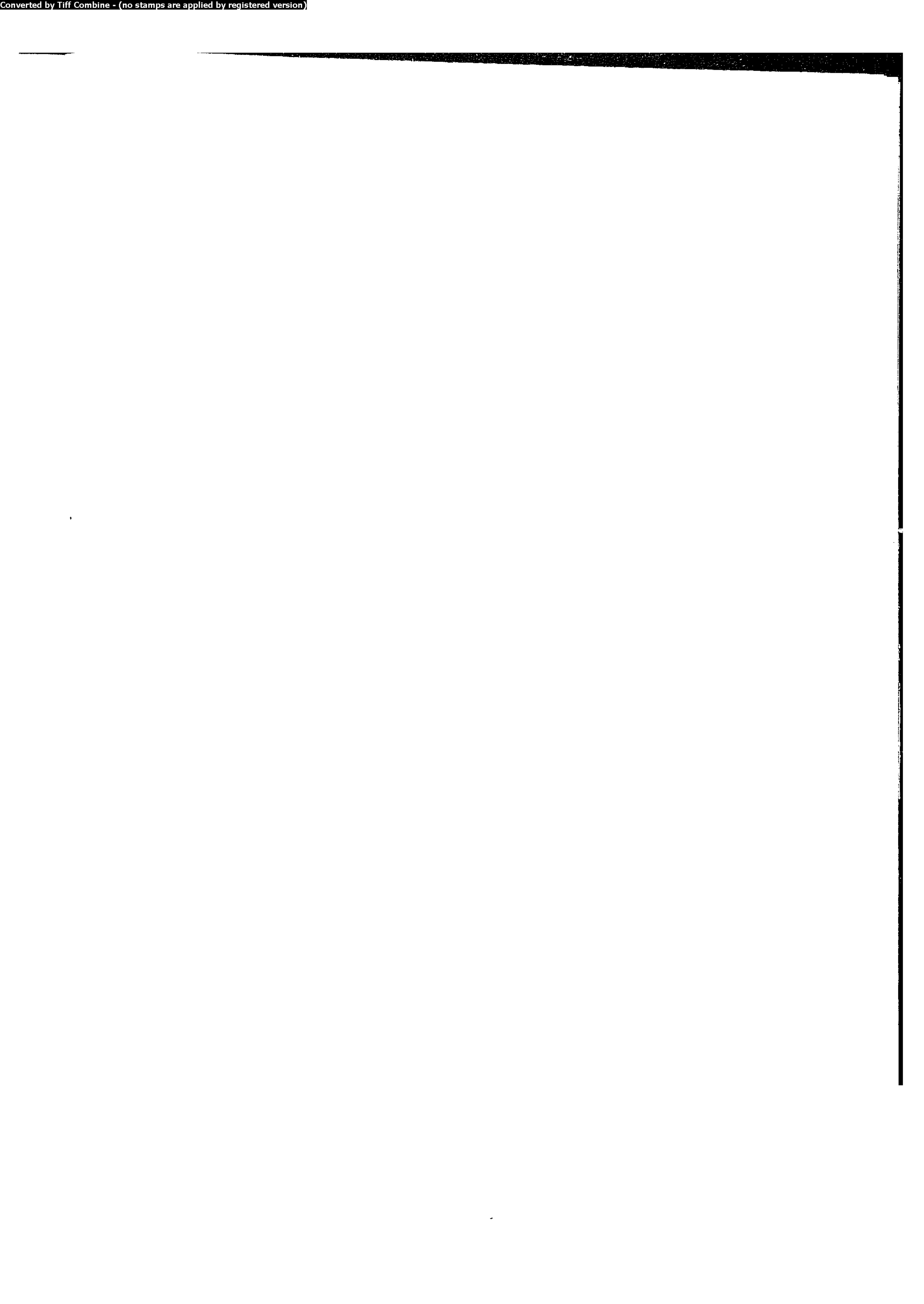
داخل السيد حسن

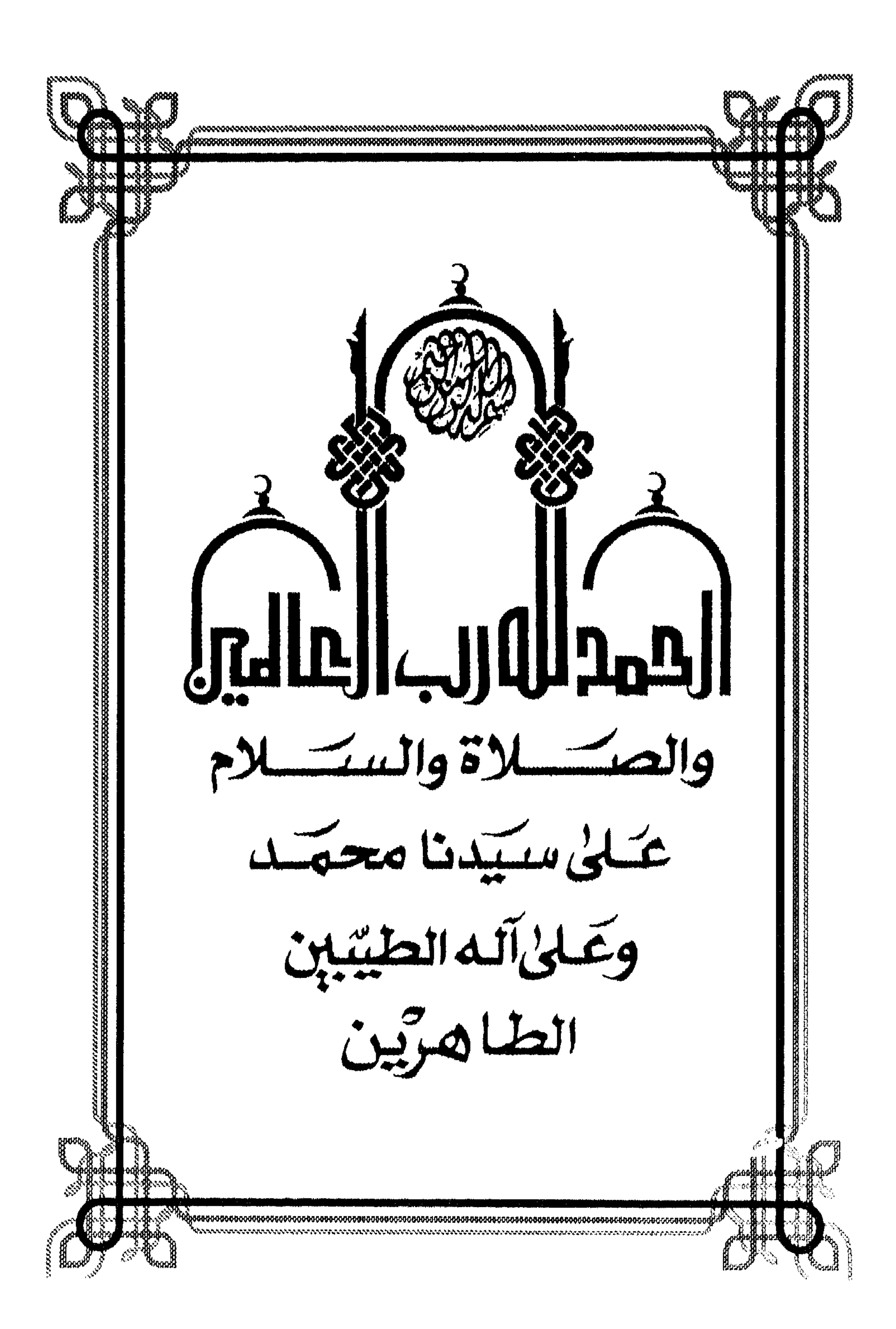
الجزء الأول

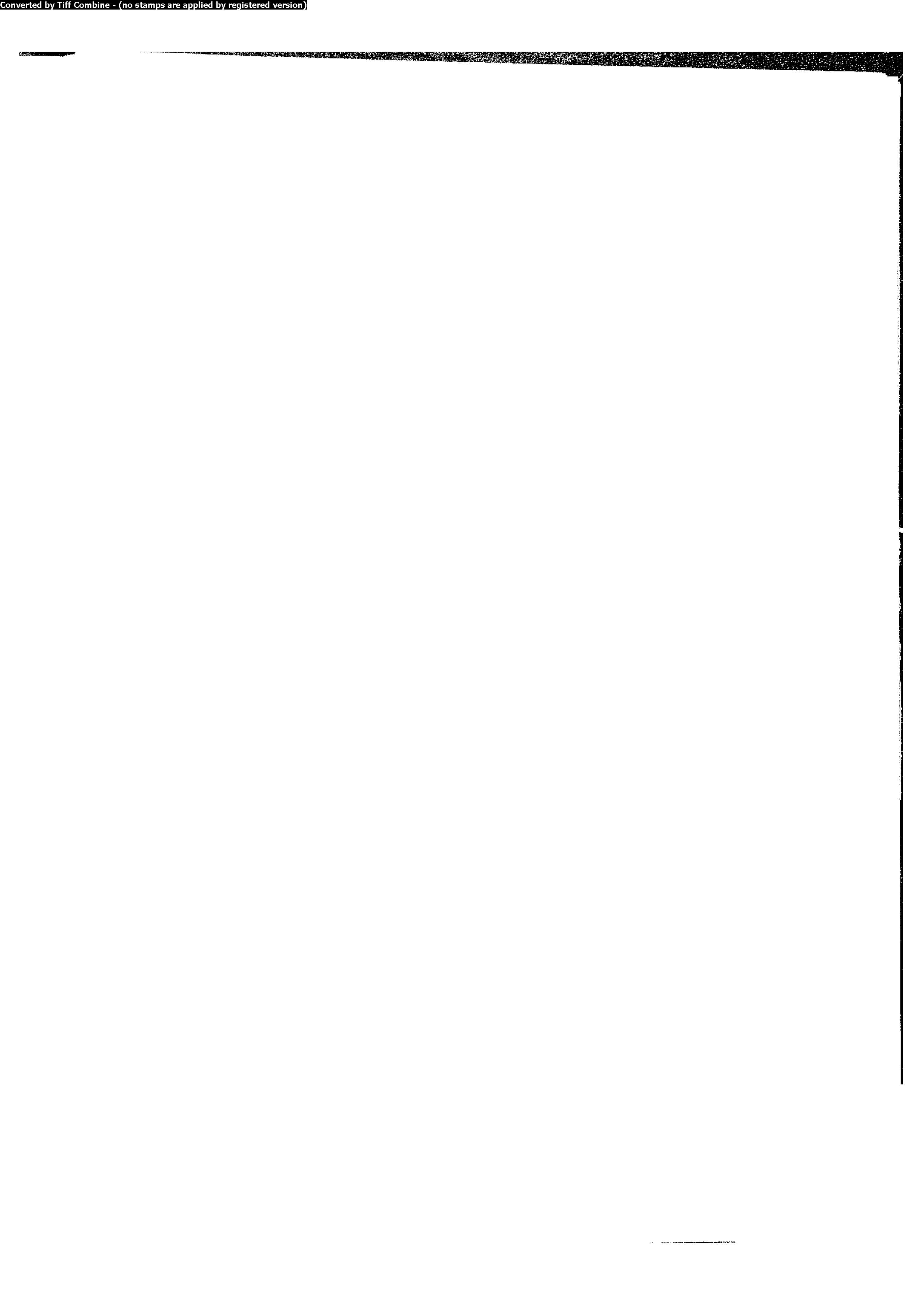
الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المؤسسة العالمية للثقافة والاعلام
بيروت - لبنان

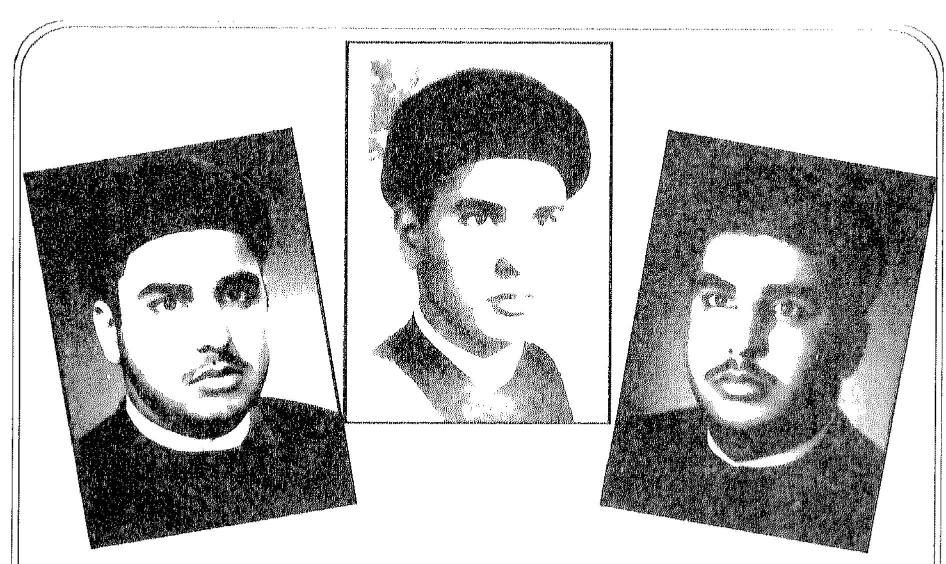

بسم الله الرحمن الرحيم




الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام
على سيدنا محمد
وعلى آله الطيبين
الطاهرين







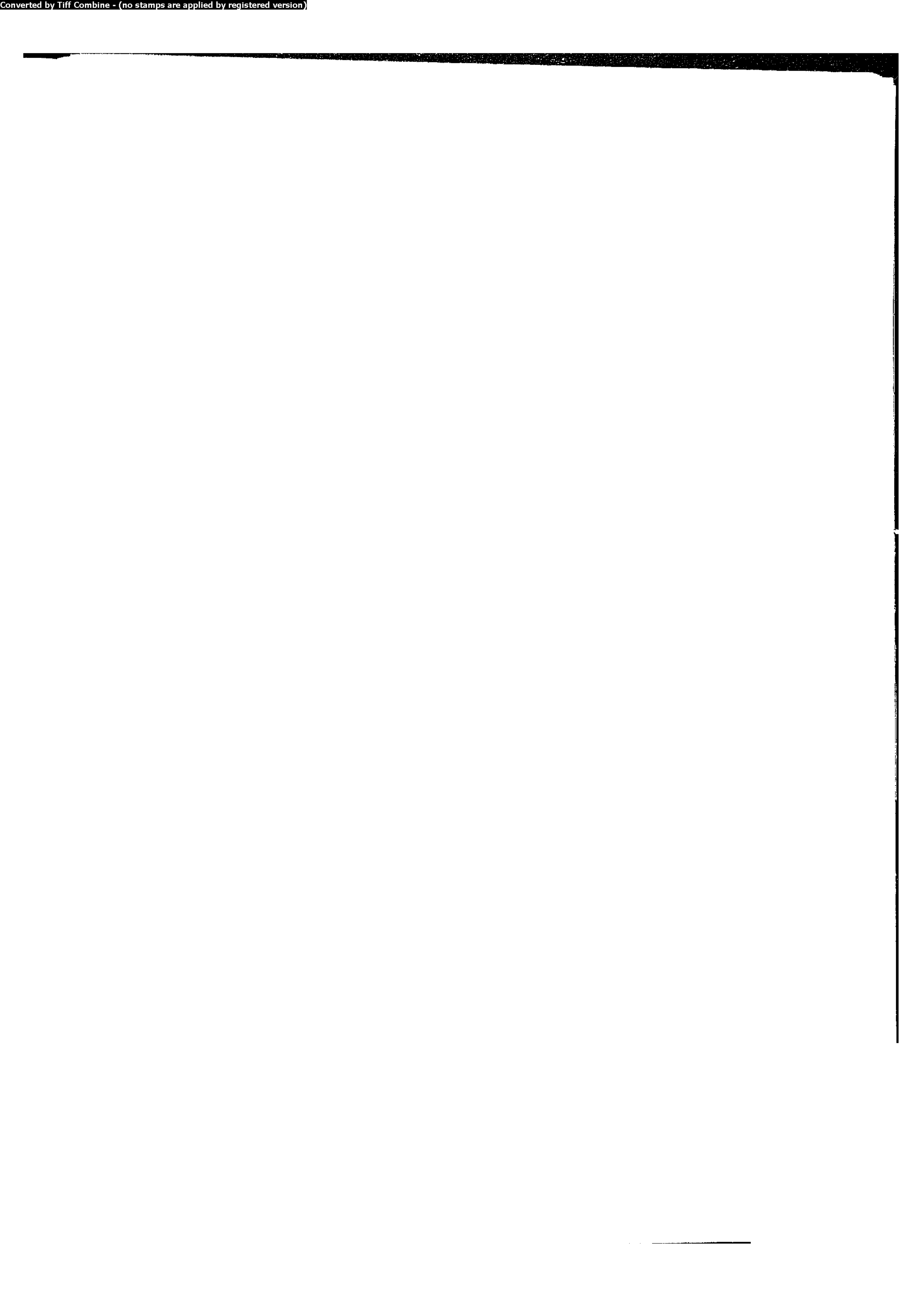


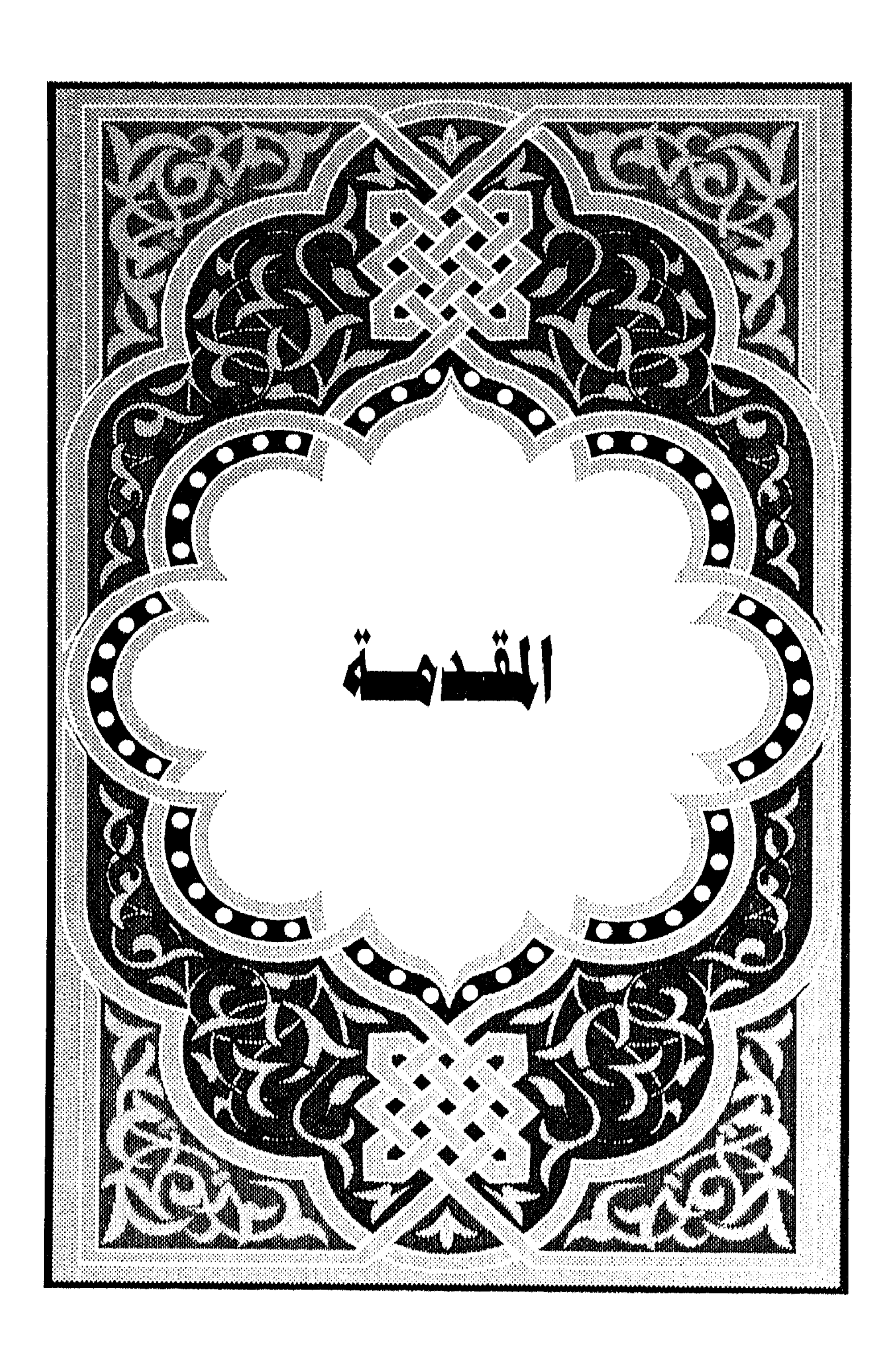
صورُ العمرِ في سجلّ الحياة
ليس يبقى منها سوى الذكريات
فاذكروني بالخير ما دمتُ حياً
واقرؤوا لي القرآن بعد مماتي

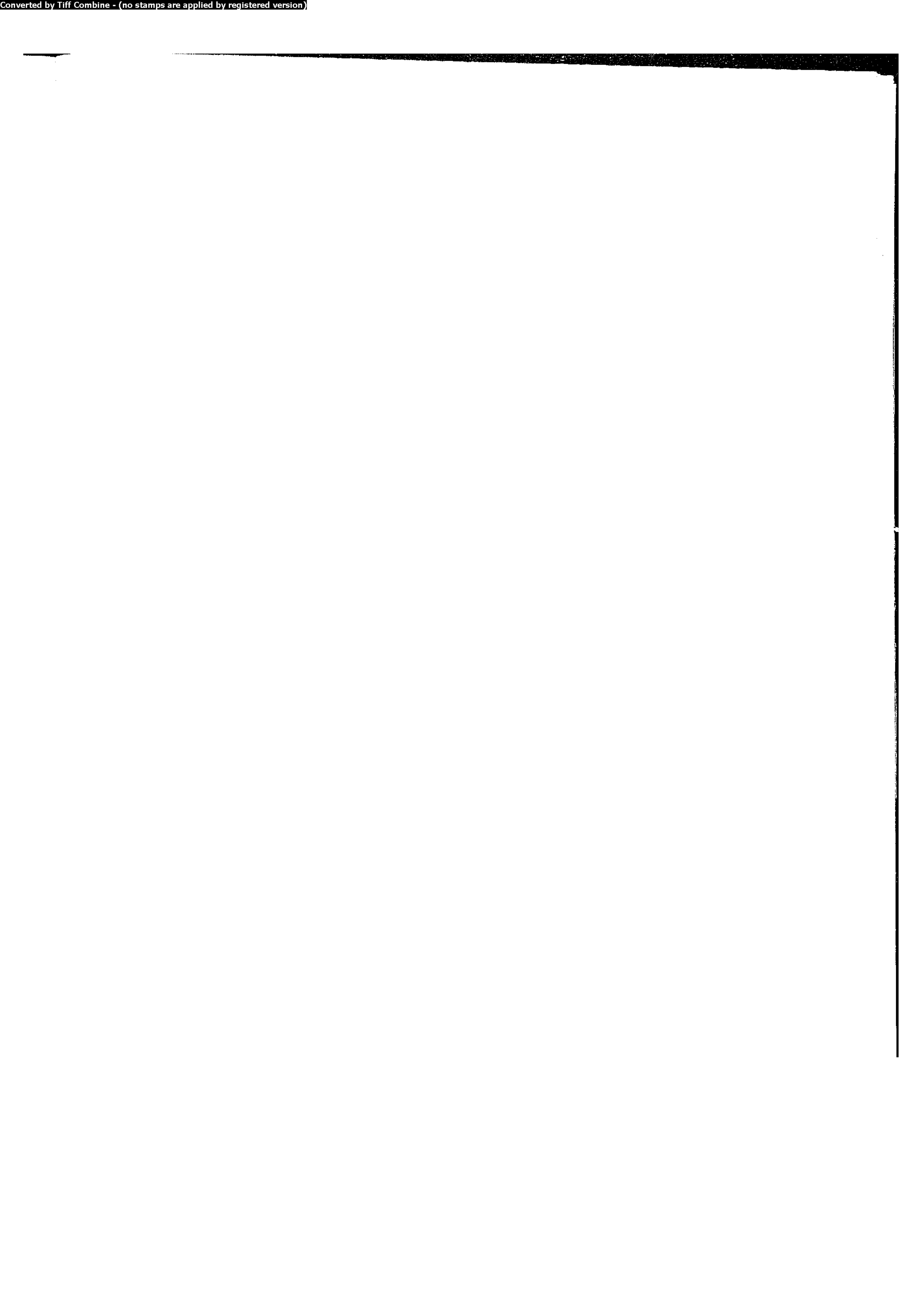
الاهداء

إليك يا أبا عبدالله
يا سيد الشهداء هذي سيرة
للسالكين بنورك الوضاء
تهدى إليك ومن سواك من الورى
تهدى إليه تراجم الخطباء

سيدي يا أبا الأحرار
هؤلاء رجال خدمتك وخطباء منابرك
أتأذن لي أن أرفع لسماء عظمتك وهيبة مقامك
هذا العمل المتواضع تعريفا بهم ودراسة لشخصياتهم
وهل تتكرم علي بمسحة القبول ونفحة التوفيق




المقدمة



(معجم الخطباء) بطاقة التعريف التي يقدمها الكتاب في البوابة الخارجية، والهوية الشخصية التي يبرزها في مدخل الحديث عنواناً وتعريفاً بسير وتراجم دعاة الحق وروّاد الفضيلة وحملة المبادىء ورسل الاصلاح الاجتماعي.

لقد تبرعمت هذه الشريحة الرائدة من الخطباء من عمق المأساة وانبثقت من بين الدمع والدم، وتبلورت من جلالة الحدث المروّع الذي حلّ بأهل البيت الطاهرين عليهم السلام في واقعة الطف.

لذا تميزت من بين خطباء العالم بأسلوبها الساخن المفعم باللوعة والأسى والمطبوع بالعواطف والدموع والمشبع بالزفرات والعبرات والآهات المحترقة.

إن خطباء المنبر الحسيني ـ وبكل فخر واعتزاز ـ يشكلون حلقات الوصل بين الأمة وقيادتها الشرعية ويمثلون أهم الروافد الفاعلة في بناء المجتمع وتوجيه الجماهير توجيهاً سليماً يرتكز على أسس القرآن وتعاليم الإسلام، ويستقي عقيدته من منابعها الأصيلة، وينتهل ثقافته من المصادر الموثوقة، ويتلقى المبادىء الثابتة وروائع الأفكار من مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأمان واعتماد.

وقد يوحي عنوان (معجم الخطباء) مفهوم الشمول والاستيعاب لكل خطباء العالم، أو على الأقل الإسلامي، كمعجم الأدباء للحموي، ومعجم الأطباء للخليلي، ومعجم

الشعراء للمرزباني، وغيرهم، وبطبيعة الحال اني اتمنى ان يكون عملي متكاملاً شاملاً ملماً محيطاً بكل هذه الشخصيات من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

إلا أن عمل كهذا من السعة والشمول ما يحتاج معه إلى مؤسسة ضخمة وأساتذة وكوادر متخصصة في متابعة هذه التراجم، وجمع هذه السير، وسبر التواريخ، وتقصي الحقائق، والبحث والتنقيب والملاحقة في السفر والحضر، والسياحة العلمية في مختلف أنحاء العالم.

وهذا ما لا يقوى عليه أمثالي وان أقحمت نفسي وتورطت في زجها بهذا الميدان فلابد من التوقف عند خيارين:

الأول: الأسلوب التدريجي بدءاً من خطباء المنبر الحسيني (فالأقربون أولى بالمعروف) ثم التدرج في خطباء المساجد عموماً، وخطباء العالم.

الثاني: أسلوب الاقتراح على الأساتذة ورواد العلم والأدب أن يشتركوا في هذا المشروع متعاونين متآزرين، فيتخصص كل منهم بشؤون محيطه وحدود قدراته، فأشقاؤنا الخطباء من غير الإمامية ينبري أحدهم ليكتب في تراجم زملائه الخطباء، وآخر يتخصص بالكتابة عن الخطباء العالميين، وثالث بخطباء التاريخ وهكذا حتى يتكامل هذا العمل ويأخذ شكله وحجمه الموسوعي الكبير.

هناك ملاحظة أخرى حول عنوان الكتاب وهي أن كلمة

(معجم) في اللغـة العـربيـة، وهي مـن أعجم الكلام أي ازال عجمته وابهامـه وفسره، وحروف المعجم هي الحروف الهجـائية، بيـد أن هذا الأمـر يتعلق بمعـاجـم وقـواميس اللغـة العـربيـة، والالتـزام في أبحـاثهـا بتسلسل الحروف الهجـائيـة، ونسجت المعـاجم الأخـرى على المنوال نفسـه، وسلكت ذات الطريق، لا تحيد عن الالتزام بالأحـرف الهجائية، ولاشك أن هذا الأسلوب يوفـر الكثير على البـاحثين، ويختصر الجهـد والوقت لاستخـراج الشخصية المطلوبة بيسر وسهولة وفق نظام الحروف، وطبعا هذا قبل عصر السرعة وأنظمة الكمبيوتر المدهشة التي تستحضر لك بغيتك ومرادك بكبسة زر.

إلا أن السير وفق هذا البرنـامج قـد لا يتهيأ لي نقـداً، بل يعرقل انجاز العمل، ويجمد حرارة المشروع حتى يتكامل وتنتهي فصـوله، وهذا مـا يحتـاج إلى وقت طويـل ولا ندري عـاقبـة الظروف المتقلبة والأحول المتصرفة.

ولا أتصـور أن في اختراق هذه القـاعـدة مخالفـة للوحي والتنزيل، وانما هي قـاعدة وضعيـة لست ملزماً بحـرفيتها، وإلا سأكون خـارجا على نظام المصطلحات وقـانون الألفاظ، فليست هذه قواعد نحوية، ولا مصطلحات منطقية، ولا قوانين أصولية، يعـد الخروج عليها تجاوزاً واختراقـا لتلك القـواعد المعمـول بها والمتسالم على صحتها وتطبيقها.

وعلى كل الأحوال فاني التمس العذر في عملي إن لم ألتزم بما هو متبع في نظام المعـاجم، فالأمـر متعـذر سلفاً، وقـد يتيسر -

بعون الله - مستقبلاً عند تكامل المشروع وفي طباعته اللاحقة، وعسى أن يقيض الله سبحانه وتعالى من يعيد صياغته وتبويبه حسب القواعد المتبعة والأنظمة المعمول بموجبها تقليدياً.

★ ★ ★ ★

كما أود الاشارة أن لا مدخلية لمكانة الخطيب ومنزلته العلمية، ودرجته الخطابية، في تبويب الكتاب، وتقسيماته الفنية، وتسلسل أسماءه وشخصياته المترجمة، وانما سلكت في ذلك الطريق الجاهز، وقدمت ما يتوفر ويتهيأ لديّ من التراجم التي بادر أصحابها بتقديمها أولاً بأول، وبغض النظر عن الاعتبارات والأعراف الأخرى.

وربما يتوهم البعض أن في عرض هذه السير وكتابة هذه التراجم شيئا من المحاباة والانحياز أو التأثر بصداقات حميمة أو علاقات قربى تربطني ببعضهم، والبخس والاجحاف والتقويم غير الموضوعي وعدم الانصاف للبعض الآخر منهم، فلا أزكي نفسي ولا أدعي العصمة، ولكني أحاول جاهداً تحري الأمانة التاريخية، والزم قلمي الانتصار على جماح الهوى، ورغائب النفس الأمارة، وسلوك طريق النزاهة والحياد والموضوعية ما استطعت إلى ذلك سبيلا، لاعتقادى بأن خيانة التاريخ سلباً أو ايجاباً من أبشع الخيانات، وكيل المديح والاطراء لتقويم هذه الشخصيات، والبخس والغمط لتلك الأخرى بناء على روابط خاصة ومؤثرات شخصية عمل يفتقر لموازين المسؤولية بل لأبسط قواعد الشرف والأمانة وآداب وأخلاق حرية الكتابة

واستقلال الرأي.

★ ★ ★ ★

ولا يخفى أن علم الرجال وفن التراجم من العلوم والفنون التي تصدرت قائمة البحوث والدراسات في الدوائر العلمية والمجامع المتخصصة للضبط والتقويم والتزكية، وخصوصا في مجال اعتماد القضايا العقائدية، واستنباط الأحكام الشرعية، فلابد لمن يتصدى لهذه المبادىء أن يخوض في غمار هذا العلم، وأن يحيط بشُعبه وفروعه، ويلم بقواعده وأصوله، ولذا يتحتم على الدارس والباحث الموضوعي أن يتجرد عن المؤثرات الخاصة، والعوامل الشخصية المنحازة بل وحتى الالماح والاشارة لبعض الشطحات والمحاكمات السلوكية التي قد تغضب البعض ولا تروق لهم، غير أن شرف الأمانة العلمية، ومقتضيات البحث النزيه يستدعي عدم اغفال هذه الجوانب وفاء للتاريخ واثباتا للحقيقة، وهذه نزعة ربما يدعيها الكثير من الكتاب والمؤلفين نظرياً دون الالتزام بتنفيذها عمليا فنجد طغيان المحاباة، وسلوك التزلف والتورط بأساليب الملق الرخيص من أجل أوهام المصالح واحتمالات المنافع وارضاء هذا ومراعاة ذاك نظرا لما يمتلك من ثقل اجتماعي أو نفوذ ديني أو عناوين عريضة أخرى تكون ستارا لاخفاء كثير من المؤاخذات والممارسات السلوكية.

وقد يتعرض الباحث الموضوعي عند جرأته وصراحته في وضع النقاط على الحروف والتقويم الحقيقي وتشخيص مواضع النقد، وتحديد مواقف الضعف والاشارة الى المفارقات والشواهد

المؤسفة إلى مزيد من العناء والجدل من قبل المغفلين والمخدوعين ببريق بعض الشخصيات الملمعة وصيتها المذهب وشهرتها الكبيرة فيسلكون طريق الغلو والتطرف والافراط في اضفاء هالة من الحصانة الساذجة، واحكام طوق وسياج عاطفي حول تلك الشخصية لئلا يتسرب اليها نقد علمي أو تقويم موضوعي.

وما زال القصد وجه الله، والرائد وجه الحق والصدق، والهدف اظهار الحقيقة والالتزام بأمانة التاريخ، فيتحتم - حينئذ - الصبر والجلد على وعورة هذا الطريق واجتياز الصعوبات بضمير مطمئن ونفس راضية.

★ ★ ★ ★

وإذا تخطينا الحديث عن فن تراجم الرجال في ميدانه العام إلى تراجم رجال المنبر الحسيني، هؤلاء الدعاة المصلحون، والألسنة الناطقة بالصدق والداعية للحق نجد أن في دراسة حياتهم وتسليط الأضواء على سيرهم والاعتناء بتراجمهم وتاريخهم وسائر شؤونهم مزيداً من العظات والعبر والدروس والتجارب.

ولاشك أن هذه الشريحة المتميزة المرتبطة بصميم المجتمع والتي تلتقي الجماهير بشكل دوري ومنتظم في مواسمه ومناسباته الاجتماعية والدينية، جديرة بالدراسة والاستفادة مما تطرح وتتناول وتبدع وتمارس من أفكار وطروحات وتوجيهات في التاريخ والسياسة والاجتماع والفقه والأدب وسائر الفنون والثقافات والمعارف الأخرى.

فالخطيب الحسيني هو المدرسة المتحركة والمؤسسة المتنقلة والطاقة الموجهة التي تتفاعل مع مختلف طبقات المجتمع، وتتحسس آلامه وتشخص علله وأسقامه، وتصف له الدواء الناجع والعلاج النافع بالطرق التربوية والأساليب التثقيفية.

هذا اذا خلصت هذه المؤسسة من الشوائب والطفيليات، وتحكمت بها حرارة الاعتقاد وطهارة الضمير وسلامة النية واستشعار المسؤولية واخلاص الهدف ونبذ الفوضى والتسيب، فان من المؤسف حقا أن تكون الأبواب مشرعة على مصاريعها لمن هبَّ ودبَّ، وأن يقتحم قدسيتها بعض الفاشلين والانهزاميين والبائسين لأهداف تجارية وغايات مريبة فيتلبسون بلباس المخلصين وربما يتقمصون موقع الصدارة لاسيما ان الطريق مفتوح بلا ضوابط ولا مقاييس، وحينئذ تتعطل الطاقات الحقيقية والكفاءات المخلصة، ويلتبس الأمر، ويختلط الحابل بالنابل، ولاشك أن المسؤولية المباشرة تقع بالدرجة الأولى على عواتق ذوي النفوذ، والكلمة المسموعة، والشخصية المؤثرة من الخطباء والعلماء الذين لهم ثقلهم الاجتماعي ومكانتهم الدينية.

بينما نرى بعض الواجهات العريضة من خطباء المنبر الحسيني لا يفكرون إلا بأنفسهم ومصالحهم، ولا يتحسسون المسؤولية الخطيرة الملقاة على عواتقهم، بل انهم يتصدون للاستخفاف والتجريح والتشهير والمهاترات والاتهامات الرخيصة لكل نشاط من الأنشطة المخلصة، ولكل عمل هادف يستهدف تقويم وضبط واصلاح حالات التسيب والترهل الحاصل، بل يضع

البعض نفسه في معادلة مستميته ومواجهة حقيقية مع من هم في عداد طلابه وتلامذته فيحارب كل من تسول له نفسه الرقي والتقدم والنجاح في مضمار عمله وفي ميدان اختصاصه ليحتكر الدنيا والآخرة وليبقى الرقم المتميز الذي ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير، وان عندي من الأرقام والشواهد ما لايليق ذكره وما يتعثر القلم عن تسجيله حياءً وترفعاً، ولابد للتاريخ أن يتحدث والأقلام أن تدون ويأخذ كل ذي حق حقه ونصيبه بموازين العدل ولا يصح الا الصحيح (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) [1].



ولا أدعي بأنني السبّاق والمبتكر والمبادر لطرح هذا الموضوع، وطرق هذه التراجم وانما تبقى فضيلة السبق ومبادرة التأليف مجيرّة باسم الأستاذ الخطيب الشيخ حيدر المرجاني صاحب كتاب (خطباء المنبر الحسيني)، ولو لم يكن من حسنات هذا الرجل إلا جمعه المفهرس، وتسجيله المتسلسل لعدة أجيال من الخطباء وتثبيته لتواريخ ولادتهم ووفياتهم، ونشر معظم صورهم التي هي بحكم المفقودة اليوم، ثم اشارته إلى بعض المعلومات الأساسية، وإن كانت أوليات بسيطة غالباً ما اتخذت روتيناً موحداً بأن الخطيب الفلاني ولد ونشأ ودرس فهو من خطباء المنبر الحسيني.

---

(١) الرعد / ١٧ .

والكل من زملائنا وجيلنا الذين نشأنا معاً في النجف الأشرف يتذكرون كيف أن المرجاني كان يقصدنا ملاحقاً ومطالباً بصورة وترجمة ودينار للطباعة وكان هناك من يتملص من هذا الالتزام الذي أوضح أخيراً أهمية هذه الخدمة وضرورة هذا العمل الجدير بالتقدير والعرفان.

وقد تبرم المرجاني وضاق ذرعاً على صفحات كتابه المذكور من اولئك الذين لا يتعاونون معه في مشروعه الهام، متذرعين بمختلف الذرائع ومتحججين بشتى الحجج تملصاً واستخفافاً بأهمية هذا العمل وروعة هذا الانتاج.

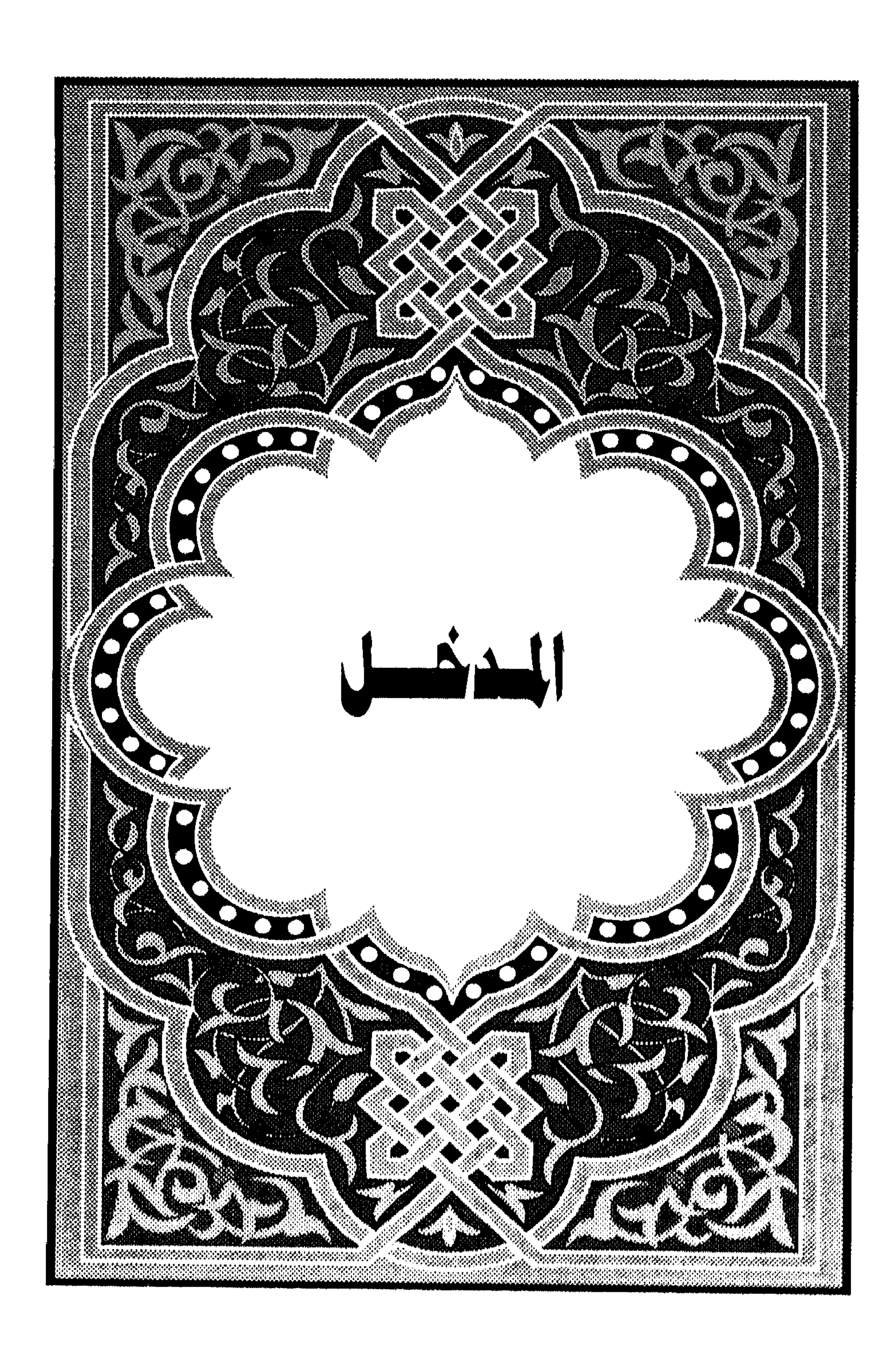
وربما لاحت لي بعض البوادر لهذا التقاعس والتردد والمماطلة من قبل البعض، الا ان لي من مساندة أساتذتي ودعم اخواني وزملائي وتشجيعهم وتطلعهم لتحقيق الهدف وانتهاء المشروع بشوق ولهفة وحسن ظن، ما يكون محفّزاً على التصميم في المضي قُدماً واجتياز الحواجز، وعبور العقبات، والتمرد على التثبيط والاحباط حتى النهاية - باذن الله - والحمد لله أولاً وآخراً.

داخل السيد حسن

الامارات العربية المتحدة

غرة محرم لعام ١٤١٦ هجرية





المدخل



في مدخل العرض لسيرّ هؤلاء الأعلام، وفي ديباجة التصدير لتراجم ألسنة الشرع وحماة العقيدة، وفي مطلع الحديث والدراسة وتسليط الأضواء على تاريخ هذه الشخصيات التي تمثل الأعمدة الهامة لمؤسسة المنبر الحسيني، والألسنة الناطقة التي تستمد مقومات آرائها وأفكارها من منابع أهل البيت عليهم السلام ومن معين سيرهم، ومصادر تاريخ حياتهم الحافلة بأروع النماذج الإنسانية في قيمها ومثلها العليا، لا بد لنا من إعطاء نظرة إجمالية، ورسم صورة سريعة عن الخطابة والخطباء، وأدوار التأسيس التاريخي للخطابة الحسينية، وماهي الأسس التي ارتكزت عليها مؤسسة المأتم الحسيني، وماهو الدور الهام الذي لعبه المنبر الحسيني في الإعلام الديني والثقافة الإسلامية وربط العقيدة بالعواطف الجياشة في ولاء أهل البيت عليهم السلام، والدفاع التاريخي عن الحقوق المهدورة والتراث المنهوب، والظلامة الكبرى التي حلّت بساحة البيت الطاهر لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.



الخطابة

لا شك أن الخطابة علم مستقل وفن أصيل مارسه الإنسان منذ أقدم العصور والأدوار التاريخية التي تخطاها في الحياة بمختلف اللغات والألسن العالمية، بهدف الدعوة والإقناع والثقافة والإعلام، وتتمثل الخطابة في المقدرة البيانية والبراعة في مواجهة الجمهور بطرح الآراء وعرض الأفكار وحمله على تقبلها والتفاعل معها واستمالته لتأييدها والإيمان بها.

وقد عرّف أرسطو علم الخطابة بأنه القوّة القادرة على الإقناع.

وإذا رجعنا إلى تاريخ الحضارات القديمة نجد أن الأمم والشعوب العالمية كانت تمارس هذا الفن، ودونت أصوله وقواعده في سجلات حضارتها وتاريخها الإنساني كالحضارة اليونانية والرومانية والهنود القدماء والفراعنة والآشوريين والبابليين، فضلاً عن الحضارة العربية قبل الإسلام وما عندهم من أسواق أدبية، وأساليب خطابية، وشخصيات اشتهرت بفصاحة اللسان وبراعة البيان كسحبان وائل وقس الإيادي وكعب بن لؤي وغيرهم.

وقد مارس الأنبياء والمرسلون فن الخطابة في تبليغ الرسالات السماوية إلى أقوامهم ومجتمعاتهم،ووردت في القرآن الكريم طائفة من النصوص في معرض الإشارة والتمجيد للخطابة وفصاحة اللسان كقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾.[1] وقوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [3]وقوله تعالى: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ [4] إلى غير ذلك من الآيات ذات الصلة بعلم الخطابة.

ويكفي هذا العلم فضلاً أن مارسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمله الرسالي وتبليغه الإسلامي، وجاء في الحديث الشريف: (أعطيت جوامع الكلم وأعطي علي جوامع العلم).

ولا يغيب عن ذاكرة التاريخ المنبر الأول الذي صنع لرسول الله

---

(١) ابراهيم / ٤ .
(٢) القصص / ٣٤ .
(٣) ص / ٢٠
(٤) طه / ٢٧ .

صلى الله عليه وآله وسلم من جذوع النخل في المدينة بعد أن كانوا يخطبون على العصا، ولا ننسى كذلك المنبر الذي أمر رسول الله بصناعته من أحداج الإبل عندما نزل عليه الوحي بغدير خم يحمل الآية الكريمة: ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته﴾[1] فصنعوا ذلك المنبر وارتقى رسول الله خطيباً آخذاً بضبع ابن عمه وأخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورفعه إلى الأعلى حتى بان بياض إبطيهما وخطب بذلك الجمع الحاشد في وهج الشمس المحرقة قائلا: أيها الناس ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا اللهم نعم، قال فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار.

ثم جاء الدور الخطابي من بعده لسيد الفصحاء وإمام البلغاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي اتخذ من منبر مسجد الكوفة وسيلة للتربية والتعليم والإصلاح والتقويم، وما كتاب نهج البلاغة إلا غيض من فيضه وقطرة من بحره ويعتبر الإمام أمير المؤمنين العميد الأول لمدرسة الخطابة الواعية الأصيلة المستمدة من مباديء القرآن ومنابع النبوة.

ولا نغفل الخطب الحجاجية التي ألقتها الصديقة الزهراء عليها السلام في مسجد أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على جماهير المسلمين أو على الحشود النسائية لعوائل المهاجرين والأنصار وهذا ما يثبت أن المرأة المسلمة ربما تمارس فن الخطابة من أجل المطالبة بالحقوق والدفاع عن المقدسات وتوعية الجماهير وفق الضوابط

(١) المائدة / ٦٧ .

الأصيلة للعقيدة الإسلامية.

وكذلك الخطب البليغة التي خطبها أئمة أهل البيت بمختلف الظروف والمناسبات لا سيما الخطب المدوّية التي ألقاها الإمام الحسن في الحث على الجهاد أو في التوجيه والوعي الديني خصوصاً أيام المحنة، والخطب التي هدر بها سيد الشهداء في غضون ثورته المقدسة سواء التي كانت وهو في طريقه إلى الشهادة، أو التي ألقاها على منبر الكرامة في ساحة كربلاء، وكذلك الخطب المدوّية لشريكته في الكفاح عندما أنيطت مسؤولية الثورة بشخصيتها العظيمة ابتداء من العاشر من محرم بعد مصرع الحسين عليه السلام وفي مسيرة الأسر سواء أكانت الخطب التي ألقتها لمقارعة الجبابرة والقتلة، أو التي ألقتها في التجمعات العامة والحشود الجماهيرية المغفلة ثم مواجهة رؤوس النظام المتفرعن في عقر ديارهم المشومة، وفي قاعات قصورهم البالية.

وهكذا نرى أن الشخصيات الرسالية رجالاً ونساءاً يمارسون منطق الخطابة توجيهاً للمجتمع وأداءاً للمسؤولية وتبليغاً للرسالة وذوداً عن الحق ودفاعاً عن المباديء ومطالبة بالعدل وتسجيلاً لظلامتهم واغتصاب حقوقهم واحتجاجاً على سياسة الجبابرة والجلادين عبر التاريخ.

وأكتفي بهذه اللمحة الخاطفة والإشارة الإجمالية إلى الفن الخطابي، فليس القصد وضع دراسة شاملة عن الخطابة وفنونها ونشأتها وأدوارها التاريخية، وإنما التعريف المجمل والإشارة العابرة لنتوغل من خلالها لعرض ودراسة هذه الشريحة الطليعية من شرائح خَدمَة المؤسسة الحسينية المباركة وتسليط الأضواء على هذه الشخصيات المبدعة في الحقل الديني والإجتماعي والتي تعيش على خطوط التماس

المباشرة مع الجماهير العريضة التي تهفو قلوبها حباً وولاءاً، وتندفع تلقائياً للتجمهر العفوي البريء وتتدفق بصدق واخلاص لتغترف من منابع القرآن وتقتبس من نور الإسلام وتهتدي بهدي العقيدة التي يعرضها خطباء المنبر الحسيني في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

★ ★ ★ ★ ★

شخصية الخطيب:

إذا آمنا أن الخطابة رسالة مقدسة لا بد لنا من توزيع وتصنيف الخطباء على فئتين، ولا بد من حصر التعريف الحقيقي والتقويم الموضوعي لشخصية الخطيب من خلال صنفين من الخطباء:

الأول: الخطيب الرسالي.

الثاني: الخطيب التجاري.

فالخطيب الرسالي هو المربيّ والمعلم والمرشد والموجّه الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يساوم على المبادىء والقيم والكرامة، ولا يعيش حياة رخيصة من الملق والتزلف والمداهنة على حساب المثل العليا والإباء والعزّة، بل يسير قدماً بمسيرة ظافرة ومنهج محدد ومقاييس مرسومة فيها لله رضا وللحاضرين أجر وثواب غير عابىء برضا هذا وغضب ذاك ولا يكترث بصعوبات طريقه الشائك من أجل أداء واجبه ومسؤوليته الرسالية.

وأما الخطيب التجاري هو الذي يتخذ من الخطابة مهنة وعملاً تجارياً ووسيلة للعيش الرغيد، واتخاذ الدين مطية للدجل والتدليس والابتزاز، وتحويل الخدمة الحسينية إلى صفقة تجارية رابحة، هذا ما ينبغي الوقوف منه بحذر ويقظة وألا ننخدع بديكور جبة فضفاضة

الأردان عـاليـة الأركـان ينتصب في أعـلاها رأس متخلف التفكير مهزول الضمير، كله جهل وخرافـات وغرور، لا يفقه شيئاً من هدف الخدمـة المقـدسـة سوى كسب الـربح المادي واحتـلاب الضرع على حساب الشرع.

إن شرف العمل الحسيني يقتضي أن نـربأ بأنفسنا عما يشينهـا وأن نستلهم من حياة سيد الشهداء روح العزّة والإباء والشمم وألا نتنازل إلى أسلوب الابتـذال والمسـاومـة وأن يسـدد بعضنا البعض الآخـر في خطواته وممارسـاته، وأن يكون كمرآة حقيقيـة تعكس له واقع النصح الصـادق والتـوجيه المسـدد وأن يكون ذلك مـوضع الرضـا والقبـول بصـدر رحب بلا تشنّج ولا سـوء ظـن، ففي التعـاون المخلص تحقيق الآمال، وفي التسديد الصادق تحقيق الأهداف المنشودة، ومراعاة حرمة العمل وشرف المسؤوليـة وقدسية الخدمة أمر بغـاية الضرورة للعاملين في هذا الحقل الشريف.

سيّدي القارىء الكريم:

إن التستر على الخطأ خطأ آخـر، والإعتراف به فضيلـة، ولا بد لنا من الإعتراف وعـدم التهرب من تحديد نوعيـة الداء وتشخيص الخطأ وأسبـابه، ثـم المبـادرة والعمل الجدّي المخلص من أجل صيـانة هذه المؤسسـة المقدسـة من الشـوائب وتطهيرها من الترسبـات المزمنة التي ربما تعطي الصـورة الهزيلة عن أكبر وسيلة إعـلامية وثقـافيـة وتربوية عملاقة تمثلها المؤسسة الحسينية الكبرى.

فما كانت الأهداف العظيمـة الرائدة من وراء تأسيس هذه الصروح الشوامـخ لتكون ملاذاً للفاشلين والسخفـاء والطفيليين والجبناء، وإنما أنشأت لتكون قـاعـدة للبطولة، ومنطلقـاً للعلم والمعـرفـة، ومعلماً من

معالم العقيدة وشاخصة من شواخص الوعي والثقافة المنطلقة من منبع موّحد ومصدر أصيل يشرف عليه حملة القرآن ودعاة الحق ورجال المبادىء، بعيداً عن منطق السماسرة والنفعيين، ولغة القراصنة الملمعة بالبريق الديني الكاذب، والملونة بشتى الألوان بفن واتقان ومكر ودهاء، ولكنها خالية المضمون والمحتوى، وفارغةً من الإحساس بالمسؤولية والشعور بأهمية الواجب المقدس الملقى على عواتق المخلصين الأبرار.

إن فضائح القرصنة الدينية المخزية لما تندى منه جباه الشرفاء وتهتز له فرائص المخلصين.

إن أول عنصر يجب أن يتوفر في شخصية الخطيب الحقيقي هو عنصر الخوف من الله، ويقظة الضمير الديني، والشعور بالرقابة الذاتية والمحاسبة الشخصية لجميع التصرفات والأعمال التي يمارسها من يتصدى لهذا العمل وينخرط في هذه الصفوف وينتسب لهذا السلك الذي هو موضع الثقة والإعتماد في الأوساط الجماهيرية المؤمنة، كما ينبغي أن يكون صادق اللهجة مستقيم العقيدة، كذلك أن يكون مثقفاً ألمعياً ملماً محيطاً ولو بمبادىء العلوم العربية و الإسلامية، بالإضافة إلى قوّة البيان وفصاحة اللسان وثبات الجنان وحرارة الإيمان، وهناك شيء هام وهو مراعاة الخطيب الألمعي لمقتضى الحال كما هو مقرر في علوم البلاغة، وانتقاء الحديث المناسب في الوقت المناسب.

وتحضرني في هذا الصدد حادثة طريفة جرت في مجلس الإمام الراحل الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رضوان الله عليه، فقد اتفق أن عقد مجلس حسيني مختصر جداً في إحدى المناسبات بمدرسته العلمية لم يتجاوز عدد الحضور فيه على أصابع اليد الواحدة، فرقى

المنبر خطيب مبتدىء اسمه الشيخ حسن، فقرأ وصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن، وكان يكرر فيها بين الآونة والأخرى عبارة بني حسن بني حسن، ثم ينهمك في الشرح والتفسير بحضور كاشف الغطاء وبعض الأعلام من رجال العلم إلى أن أنهى محاضرته بعد أن أطال وخالف مقتضى الحال التفت إليه الإمام كاشف الغطاء بلسانه البليغ قائلاً: بني حسن أما أوصاك أبوك إذا كان في المجلس ثلاثة مستمعين فلا تطل الحديث عليهم؟!.

وفي الحقيقة أن الأمر يعود إلى الذوق الفطري والثقافي للخطيب ومراعاته لأصول اللباقة، والنواحي الفنية والعرفية عندما يعرض فكره وعقله على المجتمع.

ويذكر التاريخ أن عبد الملك بن مروان سئل عن سبب إسراع الشيب إلى شعر رأسه؟ فقال: وكيف لا يعاجلني الشيب وأنا أعرض عقلي على الناس في كل أسبوع مرّة. فكيف بالخطيب الحسيني الذي ربما يعرض عقله على الناس في اليوم الواحد مرتين أو ثلاث وخصوصاً في الموسم الرسمي أيام عاشوراء.

فالخطيب اللوذعي هو الذي يقدر مقتضى الحال، من ناحية أخرى يحتاج إلى البراعة في التشخيص الدقيق لطبيعة المجتمع وحالته الراهنة التي تحتاج إلى علاج وتوجيه وتحديد نوعية الداء بفكر فاحص ثم توجيه النصح بصدق وجدّ واعتقاد، وقديماً قيل أن لكلٍّ مقام مقالا، وإذا كان المقام يستوجب المقال فالساكت عن الحق شيطان أخرس. وهذا ما يحتم على الخطيب التمتع بشخصية واثقة تعمل لله ومن أجل الله وفي سبيل الله دون مداهنة هذا أو إرضاء ذاك.

ذلك هو الخطيب الرسالي المسؤول، أما إذا تحولت الخطابة إلى

سلعـــة تجارية ووسيلـة للتكسب يستحيل حينئذ أن تحقـق أهدافهـــا المرسومـة وغاياتها الحقيقية، بل ربما تتحـول إلى أداة للتدمير والإرباك، ووسيلة للإستخفاف بالخط الأصيل والبرامج الهادفة التي رسمها أئمة أهل البيت عليهم السـلام من وراء تأسيس هذا الصرح الإعـلامي و الثقافي والتربوي المتمثل بمؤسسة المنبر الحسيني الشريف.

الخطيب الأول:

اعتاد البـاحثون في حقول المعـارف المختلفة أن يبحثـوا وينقبوا عن أوليات الأشيـاء، وأوائل الشخصيات المؤسسـة لتلك المعارف والعلوم والمؤسسات.

وإذا أردنا أن نؤرخ في هذا المضمار لأول خطيب اعتلى منبر الخطابة الحسينية بعد مصرع سيد الشهـداء عليه السلام لا بد أن يكون الإمام زين العــابدين عليـــه الســـلام الذي حفظتـه عنـاية الله ليقتحم المنبر الرسمي للدولة في قلب قـاعـات قصر الخضراء بدمشق، رغم ضعفـه وأمراضــه ومماطلة عدوّه الطاغية المتسلـط والممانعة بالسماح له أن يرقى المنبر، إلا أنه استطاع وبتعـاطف الجمهور معه أن يعتلي منصـة الخطابة ليمزق الأستـار الوهمية والدعـايات المضللة التي أسدلت ستـاراً زائفاً على حقيقة الجريمة النكراء التي ارتكبها الطغيان بحق أهل بيت النبوة عليهم الســلام، ووضع النقـاط على الحروف تعـريفـاً بالهوية الحقيقيـة للشخصيـات المنحـــورة ظلماً وعـدوانا، والأخـــرى الأسيرة في قبضـة الأيدي الآثمة، حيث أعرب بأن هذه الكـوكبة التي أريقت دماؤها في ثرى الطف إنما هـي القلب النابض للأمـــة، والفكر الحامل للعقيــدة والشخصيـات المنافحة دون حقـوق المجتمع وكرامـة الأمة، والرافعـة لواء الإسلام وراية القرآن.

إن هؤلاء الصرعى المنحورين على مذبح العز والإباء إنما هم الخلاصة التي أفرزتها الدنيا، وصفوة العالم صدقاً وإخلاصاً في مواقفهم ومبادئهم وعقيدتهم، كما إن هؤلاء المربقين بالحبال، والمحمولين على عجف الجمال إنهم جميعاً كواكب الأسرة التي نزل القرآن في أبياتهم وانطلق الإسلام من ديارهم، وما هؤلاء المتسترين بالإسلام تمويهاً على الجماهير المسلمة إلا حفنة من القتلة والجلادين وشذاذ الأمة الذين يحملون في رؤوسهم عقولاً متخلفة وأدمغة متعفنة تريد عودة الجاهلية مرّة أخرى إلى مسيرة الأمة الظافرة، واستعادة المجد الأموي المنهار بتنصيب هبل مرّة أخرى على سطح الكعبة وهيهات ذلك.

ويتحدث التاريخ عن دخول الأسرى على الطاغية في قصره الأخضر المنهوب من جلود البائسين، والمشيّد على جماجم الأبرياء والمنكوبين، وقد أذن إذناً عاماً لجماهير أهل الشام وازدحمت قاعات القصر بمختلف الطبقات الإجتماعية والسياسية والعسكرية، وصعد خطيب البلاط على المنبر ونال من أهل البيت بعبارات الدجل والإرتزاق والضعة. فقال له زين العابدين بأعلى صوته: أيها الخطيب اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوء مقعدك من نار جهنم، ثم استأذن الطاغية في صعود المنبر فأبى عليه، فألح عليه جمهور الحضور بأن يسمح لهذا العليل الأسير وما عساه أن يتكلم؟ وماذا سيتحدث؟ ثم ماذا سيحسن وهو في قيد الأسر والمرض؟؟!!. فقال يزيد إنه إذا رقى المنبر فلا ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان فإنه من أهل بيت زقوا العلم زقا. ولم يزالوا به حتى أذن له في صعود المنبر انصياعاً لإلحاحهم ونزولاً عند رغبتهم واصرارهم فخطب الإمام خطبة ساخنة جاء فيها:

أيها الناس أعطينا ستاً وفضلنا بسبع أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضلنا بأن منا النبي المختار ومنّا الصدّيق ومنّا الطيّار ومنا أسد الله وأسد رسوله ومنا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول ومنا سبطا هذه الأمة وسيدا شباب أهل الجنة، فمن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي أنا ابن مكة ومنى أنا ابن زمزم والصفا أنا ابن حمل الزكاة بأطراف الردا أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السما، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لا اله إلا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وصلى إلى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين وأبي السبطين الحسن والحسين ذاك جدي علي بن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

أنا ابن المزمّل بالدماء، أنا ابن ذبيح كربلاء، ولم يزل يقول أنا أنا حتى ضج المجلس بالبكاء والنحيب، عندها خشي الطاغية وقوع الفتنة فأوعز إلى المؤذن أن يؤذن ليقطع على الإمام خطابه فصاح المؤذن الله أكبر فقال الإمام كبرت كبيراً لا يقاس ولا يدرك بالحواس لا شيء أكبر من الله؛ فلما قال المؤذن أشهد ألا إله إلا الله قال زين العابدين شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي وجميع جوارحي، قال المؤذن أشهد أن محمداً رسول الله التفت الإمام من فوق المنبر إلى يزيد وقال محمد هذا جدك أم جدي يايزيد فإن زعمت أنه جدك فقد

كذبت وكفرت وإن زعمت أنه جدي فلم قتلت عترته وسبيت ذريته.

وبهذه الخطبة البليغة الهادفة، وبهذا المنطق الثائر كشف الإمام السجاد زيف الأسواق الأموية المضللة، ومزق أستار الدعاية الكاذبة بأن هؤلاء سبايا خوارج، وإنما هم من صميم بيت الوحي ومعدن الرسالة ومهبط النبوة، وأنه ابن محمد المصطفى وابن علي المرتضى وفاطمة الزهراء وأن ظلامتهم لا تعدلها أي ظلامة أخرى في التاريخ.

وهنا يتلخص لنا أن الإمام السجاد هو واضع اللبنة الأولى، والمؤسس الأول لمنهج الخطابة الحسينية، وهو أول خطيب رقى الأعواد بعد مصرع أبيه الحسين للإحتجاج وتسجيل الظلامة وكشف الحقائق، وبذلك يعتبر الإمام زين العابدين هو أول من افتتح مؤسسة المنبر الحسيني تاريخياً.

مؤسسة المنبر الحسيني:

في جولة الفحص والتنقيب عن النواة الأولى والحجر الأساسي الذي انطلقت منه مؤسسة المنبر الحسيني لا بد أن ننتهي إلى عهد الأئمة الأطهار عليهم السلام وسبقت الإشارة إلى أن الإمام زين العابدين سلام الله عليه هو الخطيب الأول الذي اعتلى المنبر بحضور الطاغية القاتل وحاشيته الجبناء، وبغض النظر عن إقامة مآتم الأسرة المفجوعة التي أفرزتها طبيعة المأساة المروّعة سواء في ساحة كربلاء أم خلال مسيرة الأسر، والتي كانت فيها شقيقة الحسين اللسان المعبّر عن جسامة الحدث وفداحة الخطب وعظم الخسارة بتلك الخطب الساخنة التي ألقتها في قصور الجبابرة أو أمام الجماهير في الساحات

العامة والشـوارع الهامة سواء في الكوفة عـاصمة التشييع أو في دمشق عـاصمـة الحكم الأمـوي، فإذا مـا تجاوزنا كـل ذلك وتخطينا الخطب الصميمية والمأسـاة المباشرة نرى أن الأئمـة الأطهـار عليهم السـلام الذين كـانوا على مشـارف النكبة هم الذين رسمـوا المعـالم الأساسيـة والخطوط العامـة لإقامة الأعـواد الحسينية ووضع اللبنات الأولى لمنابر سيد الشهداء عليه السلام.

فقـد كـانت تعقـد المجـالس الرسميـة في بيـوتهم ويستقبلون أكـابر الشعـراء وأعـاظم الأدباء بحـرارة وحفـاوة وتكريـم واهتمام، سـواء بمبـادرة من الشعـراء أنفسهم حبـاً وإخـلاصـاً وولاءاً وتفـاعـلاً مع أحـداث كـربلاء وتأثراً بمـأسـاة أهل البيت عليهم السـلام فينشـدون قصـائدهم وأشعـارهـم في تلك المجالس، أو بطلب وحث مبـاشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام أن ينظموا في واقعة الطف، وينشدوهم بالرقـة والرنين، فتقـرح جفـونهم وتسيل عبراتهم وتحترق قلوبهم تأثراً وانفعـالاً، كمجالس الإمـام البـاقر عليـه السـلام التي كـان شاعـرها وخطيبهـا الكميت بن زيد الأسـدي، ومجالس الإمـام الصـادق عليـه السـلام والتي يتـولى رثاء الحسين فيهـا السيـد الحميري، وجعفـر بن عفـان الطائي، والمأتم الكبير الذي أقـامه الإمـام الرضـا عليه السـلام لشاعر العقيدة الجسور دعبل بن علي الخزاعي.

وهكذا نرى أئمـة أهل البيت في حـرصهم الشديد على رفع شعـار الحزن وتجديد المأسـاة لتبقى ذكـرى الحسين حيـة خـالدة في النفـوس ملتهبة في الضمائر مشتعلة في القلوب ليتحـول الحسين عليه السلام إلى الرمز المبـدئي، والزلزال الذي يقضّ مضاجع الظلمـة، والبركان الذي ينسف عـروشهم الخاوية، والصرخـة المدوّية على ألسنة الأحـرار

والثائرين في الدنيا التي تتحدى كل غدر وباطل وكل فساد ومنكر وكل استبداد وطغيان على مدى الأحقاب والعصور.

وكان الأئمة عليهم السلام يربطون هذه الطاقات الأدبية العملاقة بالعواطف الجياشة في صفوف الجماهير المسلمة لإثارة الرأي العام وإحداث غضبة هادرة، وهزّة عنيفة، ونقمة وسخط في وجه ظلمة التاريخ، وقتلة الأحرار، وجلاّدي الشعوب.

وشقت خطابة المنبر الحسيني طريقها بهذا الاتجاه الهادف لتعميق العواطف عقائدياً، وترسيخ العقيدة عاطفياً وفكرياً لتمتزج العقيدة بالعاطفة، وتشكل الشعلة المتوهجة في طريق الحق والعدالة.

وهذا ما أوضحته لنا تائية دعبل الذائعة الصيت الرائعة المعاني حيث ازدحمت فيها قوّة الاحتجاج العقائدي بغزارة اللهب العاطفي وتسجيل الظلامة التاريخية لأهل البيت، ومن ثم ربطها فنياً بمأساة الطف وذلك من خلال قوله:

وما سهّلتْ تلكَ المذاهب فيهم ... على الناس إلا بيعة الفلتات

أرى فيئهم في غيرهم متقسماً ... وأيديهم من فيئهم صفرات

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم ... أكفّاً عن الأحقاد منقبضات

ثم يستعرض شتى ظلامات أهل البيت حتى في تباعد قبورهم ومراقدهم الموزعة في شرق الأرض وغربها بعد ذلك يختتم قصيدته معزّياً الزهراء بمصرع الحسين فيقول:

أفاطم لو خلت الحسين مجدّلاً ... وقد مات عطشاناً بشط فرات

إذاً للطمت الخدَّ فاطم عنده وأجريت دمع العين بالوجنات

★ ★ ★ ★ ★

الأدوار التاريخية:

بعد ما مضى من البحث الإجمالي عن انبثاق مؤسسة المنبر الحسيني نستطيع تقسيم الأدوار التاريخية التي مرّت بها هذه المؤسسة الهامة إلى ثلاثة أدوار رئيسية:

الدور الأول: هو الإفراز الطبيعي لمأساة الطف من خلال مآتم الأسرة الهاشمية في كربلاء والكوفة ودمشق والمدينة وغيرها، وتأثر الجماهير العامة بتلك المآتم، وشخصيات خطباء الأسرى من أهل البيت عليهم السلام نساءً ورجالاً، واندفاعهم للمشاركة والرفض للظلم الأموي واستنكار أساليب التعتيم على الجريمة، وتلميع شخصيات مرتكبيها وإطرائهم والثناء عليهم، ثم النيل من رجال الحق والثورة، وانتقاص شخصيات الشهادة الكبرى على ألسنة خطباء الدولة، كما حصل في خطبة ابن زياد بقصر الإمارة عندما تبجح بالنصر الزائف، فقام إليه البطل البصير عبد الله بن عفيف الأزدي ليأخذ زمام الخطابة من يده ولتفنيد مزاعمه الملفقة ومقارعة آراءه الباغية بقوله: إنَّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله أتقتلون أبناء النبيين وتجلسون على منابر المسلمين.. الخ!!.؟؟

وطال الجدل واحتدم الأمر حتى أدّى إلى شهادة هذا العملاق المظفر.

ويتضح لنا من استقراء الأحداث والوقائع أن الدور الأول

للمؤسسة الحسينية يبتدأ تاريخياً بعد معركة الطف مباشرة، وانتشار خبر الشهادة الكبرى في المجتمع، ولكن بالشكل المحدود والمختصر، والانبثاق العفوي والتلقائي للتعبير عن الألم والحزن كما حلّ برجال العقيدة ورموز المجتمع، ومن ثم الاستنكار والنقد والاستياء والسخط والرفض لتلك الممارسات الدموية من قبل السلطة الأموية الحاكمة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى ما لاقت وحظيت به هذه المؤسسة من رعاية وتوجيه من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام بما يتاح لهم من وسائل الدعم والمساندة والتأسيس.

وربما يتجلى ذلك من خلال أسلوب البكاء السياسي الذي أصرّ عليه الإمام زين العابدين عليه السلام بشكل علني في الأسواق والطرقات والمحافل العامة والخاصة للتحريض العاطفي وإثارة الرأي العام لرفض النظام المتسلط الباغي، والتعاطف الحقيقي مع الظلامة التي حلّت بسيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله الإمام الحسين عليه السلام وأسرته الكريمة وأصحابه الميامين.



الدور الثاني:

يتمثل هذا الدور بأدب الرثاء والفن القصصي، حيث كان الشعراء يتوافدون على أئمة أهل البيت بقصائدهم وأشعارهم، فيستقبلهم الأئمة أحر الاستقبال - كما مرت الإشارة - ويعقدون مآتم خاصة في بيوتهم لتلك المراثي تشارك فيها حتى النساء، ويبتدأ الشاعر بتلاوة أشعاره وإنشاد قصائده، فتتعالى الأصوات بالتفاعل العاطفي وتسكب العبرات وتجري الدموع حزناً وأسفاً واستنكارا.

وتخصصت بعض الشخصيات التاريخية بالقيام بمهمة إنشاد الشعر بما يشبه الأطوار والتلاحين الحزينة المشجية المألوفة عندنا اليوم، ويؤشر التاريخ إلى بعض أسماء هؤلاء الخطباء والمنشدين في عصر الإمام الصادق عليه السلام كأبي هرون المكفوف، وأبي عمارة المنشد وغيرهما فيما يلي من العصور كعلي بن أصدق الحائري، وأحمد بن المزدّق، وأبو القاسم الشطرنجي وخطباء العصر البويهي والفاطمي والحمداني والصفوي وغيرهم.

وقد اتخذت مؤسسة المنبر الحسيني شكلها الرسمي الموسّع في عهد الإمامين الصادقين عليهما السلام على مستوى المحافل الشعبية ومجالس العزاء وخصوصاً في موسم عاشوراء وبصورة أخص عند قبر الحسين عليه السلام حيث يتدفق الزائرون فتمتزج مراسم الزيارة بمراسم العزاء، وإقامة المأتم الحسيني بتوجيه وإرشاد من الأئمة الأطهار عليهم السلام.

وشارك في هذا الدور القصاصون وهم شريحة أدبية وجدت قبل تاريخ الطف كانت تتحدث في المساجد بأسلوب قصصي عن السيرة النبوية والحروب الإسلامية وبعض المواعظ والفضائل، وبرزت هذه الفئة في أيام الخلافة الثالثة ثم استخدمها معاوية بن أبي سفيان في الدعاية والإعلام، وأسس منها شبكات تخريبية تتمثل بشخصيات معروفة مجيدة للنسج المحبوك والتلفيق القصصي المحكم لتدوين التاريخ بما يتلائم مع مصالح الدولة الأموية، مقابل أجور مادية مغرية، فكان هؤلاء يجيدون حبك الأساطير واختراع الروايات وتحريرها على عامة الناس بعلب ملوّنة مقبولة، وتقديمها جاهزة حسب ما تتطلبه المصلحة الأموية العليا.

وبعد واقعة الطف برز إلى جانب الشعراء والمنشدين القصاصون المتخصصون بعرض أحداث كربلاء وسيرة الحسين عليه السلام، مجاراة لما هو مألوف عند الناس في المساجد من العروض القصصية والتأثر بهذه الشخصيات التي تجيد وتتقن الفن القصصي.

ويبدو أن هؤلاء القصاصين والشعراء والراثين والمنشدين المخلصين يشكلون الرعيل الأول والجيل المؤسس لخطابة المنبر الحسيني، وقد واصلوا نشاطهم وجهودهم سراً وإعلانا بمختلف الظروف والأحوال السياسية التي مرّت على الشيعة في العصرين الأموي والعباسي، فكانوا كلما داهمتهم نكبة أو أحدقت بهم محنة، أو ضيقت عليهم السلطات الحصار، وأحكمت القبضة، ولاحقتهم بأنواع الضغوط والإضطهاد، لم يزدهم ذلك إلا إصراراً ومثابرة على إقامة مراسم الذكرى الحسينية بمواعيدها المحددة وأساليبها المعهودة، مهما كان الثمن وكيف ما كانت العواقب.

وقد تبنى أئمة أهل البيت عليهم السلام أسلوب الحث والتشجيع على إقامة الشعائر الحسينية لأنها اصبحت أكبر من مفهوم مجلس عزائي مجرد، ومجلس حسيني بسيط، وإنما أصبحت تمثل معلماً من المعالم الهامة في الدفاع عن الخط الأصيل للإسلام، ومركزاً من مراكز الدفاع عن مؤسسة الإمامة التي هي ركن من أركان العقيدة، وفضح التآمر والخروج على عقيدة الأمة الذي حملت لواءه السلطة الأموية الغاشمة.

وقد أدركت الأجهزة الرسمية والكيانات السياسية الباغية الأهداف الثورية لمؤسسات الحسين عليه السلام الرافضة لكل أشكال الظلم والإنحراف والباطل، لذا لم تتأمل تلك الأجهزة بما أوتيت من وسائل

القمع والإرهاب من ملاحقة هذه الشعائر، وتعقّب القضايا الحسينية تعقباً مستميتاً أخذ في بعض الأحيان صوراً مروّعة وحالات عنيفة من القتل أو السجن والحرمان والإضطهاد، وبالرغم من كل الوسائل الجهنمية المرعبة، وأساليب الإنتقام والتسلط التي مارسها الجلادون والقتلة لم يزد هذه المؤسسة إلا رسوخاً وانتشاراً بين الأمم والشعوب العالمية فضلاً عن المجتمعات الإسلامية.

لقد أصبح الحسين نشيداً عالمياً بمختلف الألسن واللغات واللهجات في كل عواصم الدنيا وأقطار الأرض، أينما تواجدت الجاليات الإسلامية في كل بقعة من بقاع العالم بل وحتى غير الإسلامية من الأحرار والثائرين اتخذوا من الحسين معلماً وملهماً يتعلمون منه روح البطولة والصبر والثبات ويستلهمون من سيرته معاني العزة والكرامة والشمم.

لقد أصبح الحسين النغمة التي تقرع أوتار القلوب فتهتز لها إعجاباً والكعبة التي تهطع عندها ملوك الدنيا وتنحني رقابهم سجداً على أعتابها، والصرخة المجلجلة التي ترددها حناجر الثائرين لإقتلاع معاقل الكفر والطغيان، واجتياح قوى الشر والباطل مستمدة من الحسين روح العزيمة والإقدام والتضحية والفداء.

فدمٌ أرقت كأنه من جدّة الآن يعطر بالثرى ويخضّبُ

★ ★ ★ ★ ★

الدور الثالث:

هو دور التلخيص للنشاطات الحسينية المختلفة من شعر الرثاء والعروض القصصية لمصرع سيد الشهداء عليه السلام وأحداث واقعة

الطف، بالإضـافـة إلى ذكـر المناقب والفضـائـل والمواعظ، كل ذلك اختصره الدور الثـالث بصيغـة واحـدة في شخصيـة الخطيب الحسيني اسمهـا (المجلس الحسيني) فهـو الذي يبتـدأ ويختتم بشعـر الرثاء، ويستعـرض أحـداث كـربلاء ويتحـدث في ظلال القـرآن والعترة الطاهرة.

وحفلت السـاحة الحسينيـة بأجيـال من الخطباء النوابغ والذاكـرين الكرام لازالت شخصيـاتهم المنبرية مـوضـع الإجـلال والإحترام، ولازالوا يشكلون أساسـاً متيناً ورافداً هامـاً للخطابة المعاصرة، والفن والإبداع المنبري.

ومن هذه النماذج الشيخ جعفر التستري وابن عياش والحاج عباس قـوزي، والشيخ كـاظم حنينّ السماوي، والشيخ علي الحمامي، والسيـد هاشم الهنـداوي، والشيخ محمـد علي الجابـري، والشيخ كـاظم سبتي السهلاني، والسيـد كاظم الخضري، والسيـد حسن البغـدادي، والسيد صـالح البغـدادي، والسيد سعيـد العـدناني، والشيخ خلف الشيبـاني، والسيـد صـالح الحلي، والملاّ خضيرّ الحيـاوي، والشيخ محمـد جـواد المسيباوي، والملاّ محمد الشطري، والملاّ محمد الجلعاوي، والشيخ محمد علي قسـام، والشيخ حسن جلّو، والشيخ سلمان الأنبـاري، والملاّ أحمد بن رمل، والشيخ محمـد علي اليعقـوبي، والشيخ كـاظم نوح، والسيـد حسن الاسترابادي، والشيخ مسلم الجابري وغيرهم.

ثم يأتي العهـد المعـاصر المزدهر وقد بـرزت فيه كـوكبـة من لوامع الأسـاتذة وأربـاب الفن الذين أدركنا بعضهم، واستفـدنا من البعض الآخر منهم، كالخطيب السيد جواد شبر، والشيخ جواد قسام، والسيد مهـدي السـويج، والسيـد حسن شبر، والشيخ أحمد الوائلي، والشيخ

مهـدي البــديري، والشيخ صـالح الـدجيلي، والشيخ وهاب الكاشي، والسيد حبيب الأعرجي، والشيخ جعفـر الهلالي، والسيد جابر أغائي، والسيــد جـابر أبو الـريحة، والشيخ شـاكــر القـرشي، والشيخ مجيــد الصيمــري، والسيــد طاهر الملحم، والسيــد عبـد الـزهراء الحسيني الخطيب، والشيخ هـادي النويني، والسيــد حسـن الشخص، والشيخ عبــد الزهرة الكعبي، والشيـخ هادي الخفــاجي، والسيــد مــرتضى القزويني، والسيد كـاظم القزويني، والسيد حسين الشامـي، بالإضافة إلى الجيل الثالث من شباب الخطبـاء اللذين ترمقهم الأبصار بإعجاب وتقدير والذين ملأوا المنبر الحسيني كفـاءةً وعطاءً كالسيد عبد الرزاق القاموسي والشيخ عبد الأمير أبو الطابوق والسيد عامر الحلو والشيخ باقر المقدسي والشيخ فـاضل المالكي والسيد مهدي الشيرازي والشيخ عبد الحميـد المهاجـر والشيخ مرتضى الشـاهرودي والشيخ علي حيدر والسيــد عبـد الحسين القــزويني والسيـد باقـر الفــالي والسيــد حسن الكشميري وغيرهم من الطاقـات الواعدة والشبـاب الناهض الذين لم تحضرني أسماؤهم في هذه العجالة ولست بصــدد الإحصاء والحصر في هذا المورد.

هذا بالإضافة إلى الخطبـاء الخليجيين في الكويت والبحرين والمنطقة الشرقية من الحجـاز، وكذلك خطباء المنطقة العـربية في إيران وغيرهـم الذيـن أسألُ الله عـــز وجل أن يـوفقني لـلإلمام بسيرهـم ودراســـة شخصياتهم تباعاً في الأجزاء المتسلسلة من هذا الكتاب.

وهكذا تطورت الخطابة الحسينية في الدور الثالث بالجهود المشكورة التي بذلها هؤلاء الأسـاتذة وسواهـم من خَدَمَـة الحسين عليه السـلام حتى أخـذت الصيغــة النهـائيـة المتـداولـة واستقـرّت على الأسلوب

المنهجي المألوف في مجالسنا المعاصرة.

المنبر العصري:

يمثل المنبر الحسيني جهازاً هاماً من الأجهزة الإعلامية، وأداة فاعلة من أدوات العمل الثقافي والتربوي، ووسيلة من وسائل الإصلاح الإجتماعي، بالإضافة إلى وظيفته الأساسية وهي عرض ظلامة أهل البيت والربط الفنيّ بين العاطفة والعقيدة، وتبقى الكفاءة الذاتية للخطيب وما يمتلك من مقوّمات ومؤهلات وخبرة وتخصص في مجال فنّه وعمله هي التي تؤجج المشاعر وتلهب العواطف في نفوس الجماهير الغفيرة التي تندفع تلقائياً إلى التجمهر في مدرسة الحسين عليه السلام، يسوقها حب الحسين وتحدوها مودّة أهل البيت التي افترضها القرآن الكريم بقوله: ﴿قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى﴾[1].

ولم يكن المنبر الحسيني مختبراً لفحص كريات الدم الحمراء والبيضاء ولم يؤسس ليمنح شهادة في علم الفلك، أو إجازة في الكيمياء والفيزياء، وليس المنبر معملاً تكنولوجياً للإختراعات والإكتشافات، وليست مدرسة الحسين مدرسة صناعية لتصميم الكمبيوتر واختراع الليزر، فهذا كله هراء وهوس وتطفل وفضول وإقحام وزج النفس وتوريطها بأشياء ليست من صميم العمل، ولا من هدف الرسالة المقدسة، إن المنبر الحسيني الناطق باسم الإسلام والقرآن وبلسان أهل البيت، إنما يستهدف تربية الإنسان على الخلق والهداية والتهذيب وربطه بعقيدته وتعريفه بشخصياته الأصيلة ورجال حضارته وصنّاع تاريخه المشرق.

---

(١) الشورى / ١٢٣ .

إن الهدف الأساسي للمنبر الحسيني بناء الإنسان داخلياً وغلغلة العقيدة الصحيحة في مشاعره وأعماقه ليعيش حياة الإستقرار والكرامة التي لا يسعد الإنسان ولايعيش آمناً مطمئناً إلا باعتقاده الراسخ، وإيمانه الثابت، وبغير ذلك يعيش حياة القلق والإرتباك النفسي ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[1].

ولا أتصور أن كروية الأرض، وثاني أوكسيد الكربون، ومستر جون وغيرها من الأسماء والمصطلحات الأجنبية تحقق للإنسان سعادته واستقراره، ولا تعفي الخطيب من مسؤوليته الرسالية، ولا هي دليل على ثقافته وسعة اطلاعه وتضلعه بعلوم الأولين والآخرين كما قد يخيّل له!!.

لقد أقحم بعض الخطباء نفسه في فترات الإنحطاط واللاوعي وصار يستخدم هذه المصطلحات بلباقة فنية وكأنه من أساطين علم الفلك والذرة والسموات والأرض،ووجد أرضية خصبة عند شريحة كبرى من السذج والبسطاء والأبرياء، فحوّل المنبر إلى بالونات منفوخة خالية من المضمون والمحتوى، سرعان ما انفجرت وانكشف زيفها، وأصبح مدعيّها سخرية على ألسنة المثقفين والمتخصصين، وفي الواقع أن ذلك تيار امتطاه بعض الخطباء للوصول إلى الشهرة وإحاطة شخصيته بكيان من الضخامة والانبهار على حساب تربية المجتمع وفق هدى أهل البيت، وغرس روح الفضيلة والكرامة والايمان الحقيقي في نفوس الجماهير بدل هدر الوقت والطاقات بالمتصاعدات والمتنازلات حتى انبرت كوكبة من طلائع المنبر الحسيني وثلة من الشباب الرسالي المثقف، فشمّرت عن ساعد الجد، وأعادت الأمور إلى

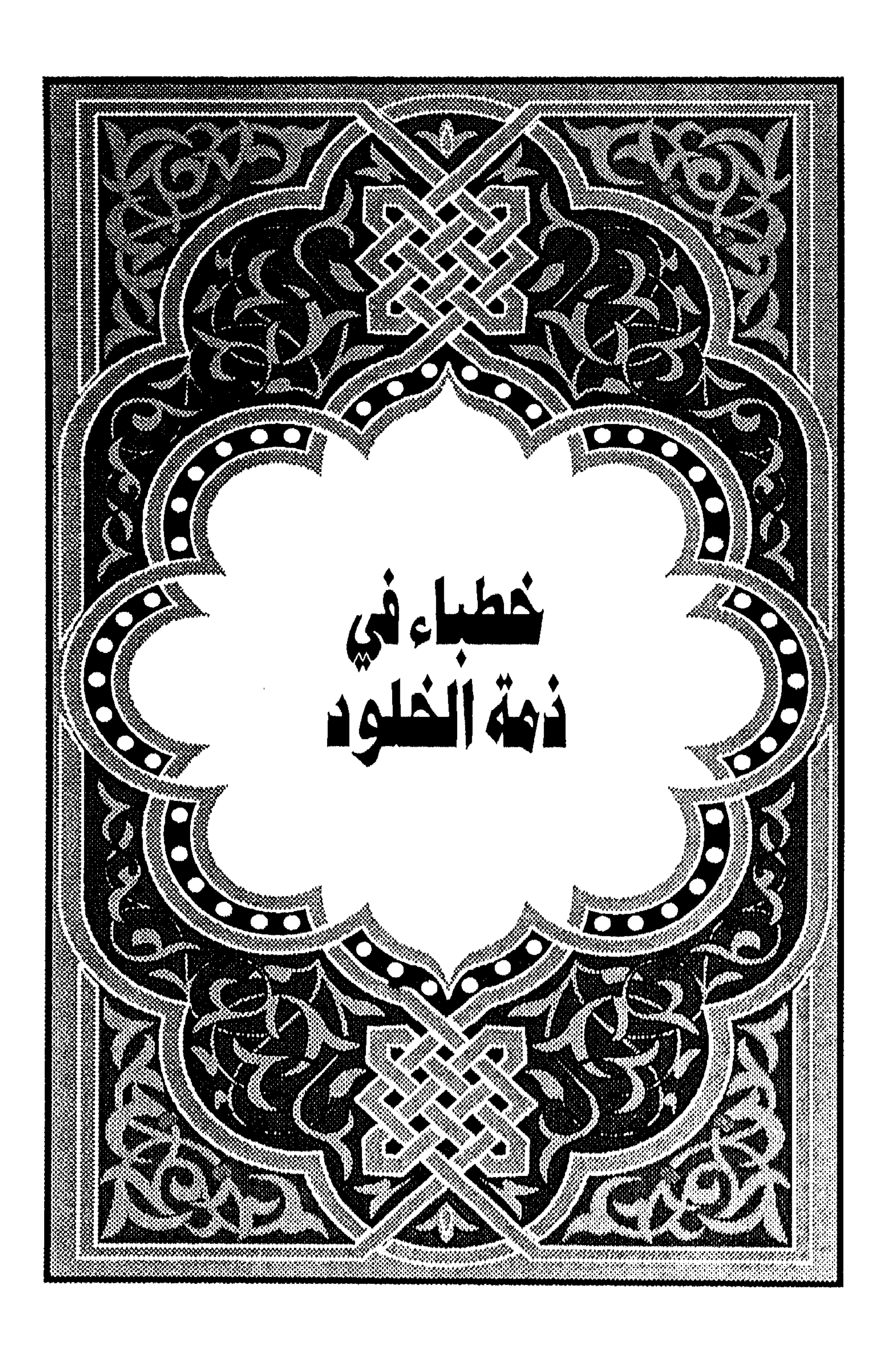
(١) طه / ١٢٤ .

نصابها، وأعطت المنبر حقه الطبيعي، وسقت النفوس المتعطشة من منابع أهل البيت عليهم السلام كؤوساً مترعة بها لذ وطاب من البحار الزاخرة والمقالع الغنية والتاريخ الناصع لأمتنا وحضارتنا الإسلامية.

ويخطىء خطأ فادحاً من يتصور أن عصرنة المنبر الحديث يرتبط بالأحاديث الفسلجية والتكنولوجية وسواها من الهراء غير المناسب، وإنما يتمثل ذلك بمسايرة متطلبات العصر الحديث، وواقع الأمة المصيري المرتبط بعقيدتها وصناع حضارتها ورجال تاريخها الأفذاذ، وتجلية سيرهم واقتباس العظات والعبر، واستلهام معاني البطولة والشرف من سجلات تاريخنا المشرق، ومنابع عقيدتنا الصافية.

وإذا كان كذلك فلتكن هذه المعاني هي وثيقة العبور من منافذ هذا المدخل إلى دراسة هذه الجمهرة من أعلام الخطباء في المؤسسة الحسينية المباركة.




خطباء في
ذمة الخلود




السيد صالح الحلي



السيد صالح الحلي

١٢٨٩هـ - ١٣٥٩



٥ عمالقة الفن والإبداع هم الذين يخترقون الزمن عرضاً وطولاً وعمقاً ، وهم الذين يقتحمون التاريخ كأرقام ورموز تتملاها الأجيال وترمقها بعين الثقة والإكبار ، لأنهم العطاء المفتوح مدى الدهر ، والحضور الدائم ، والشواخص المتحركة في ضمائر الشعوب والمجتمعات العالمية .

٥ ومن تلكم الشخصيات التي انتزعت الإعجاب من فم التاريخ وأحدثت دوياً واصداء بمسامع الدنيا ، ونزلت إلى الحياة كمؤسسة كبيرة حافلة بأضخم العطاء زاخرة بمعاني الخير والإصلاح الاجتماعي مترعة بما يلذ من الإبداع والمفاخر ، وقد ولجت بوابة التاريخ العريضة لتطبع لها ذكراً ، وتنحت لشخصيتها اسماً لامعاً بأحرف العز

والخلود هي شخصية الخطيب الرمز السيد صالح الحلي رضوان الله عليه الذي تحول إلى مقياس لعظمة الخطيب الحسيني وكفائته العالية وطاقته المتفوقة وجرأته المنبرية وعدم رضوخه للهوان حتى قالوا عندما يقوّمون شخصية خطيب مبدع كأنه السيد صالح الحلي .!!

◊ ولو تصفحنا سجلات التاريخ ، وقلّبنا ملفات التراجم لوجدناه عالماً جهبذاً عملاقاً ، وخطيباً مفوهاً بارعاً ، وأديباً لوذعياً لامعاً ، إليه تنتهي جوامع الكلم وفصاحة القول ، وعذوبة المنطق ، وسحر البيان ، وجرأة الحق ، وقوة الصدق .

ثم لو تخطينا صحائف العلم والأدب والخطابة ، واطلعنا على أبعاد أخرى من سجل حياته لوجدناه سياسياً محنكاً جسوراً ، مجاهداً شجاعاً صبوراً .

◊ ولو تجولنا في أرشيف سيرته الخالدة جولة سريعة لرأيناه صرحاً شامخاً من صروح الجهاد ، ولواءاً خافقاً من ألوية الخطابة ، وعملاقاً مدهشاً من عمالقة المنبر الحسيني الشريف ، وكفاه بذلك مجداً وعزاً وشرفاً ، إضافة إلى خصاله اللامعة الأخرى ، فهو أشهر خطيب حسيني من الأولين والآخرين على الإطلاق لم يشاركه أحد في هذه الشهرة ، ولم يضارعه خطيب في هذه المنزلة حتى يومنا هذا .

ومن بعد هذا المدخل في مقدمة الحديث نتوغل في عرض

ودراسة حياة السيد الحلي حسب المصادر والوثائق المعتمدة المتوفرة لدينا :

١ - نسبه وولادته :

لم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى تسلسل نسب السيد المترجم ، وترابط الحلقات التي توصله إلى نسبه الحسيني ، ولم أعثر في حدود تتبعي واستقرائي لمن ترجم له الإ على اسم أبيه وجده فقط ، فهو السيد صالح بن السيد حسين بن السيد محمد وكأنه بذلك من قصار النسب وهذا ماتفخر به الحضارة العربية عندما تمجد شخصية هامة تقول عنها فلان قصير النسب ، وهذا دليل على أهمية الشخصية واشتهار صيتها والانتساب إليها ولاتنتسب هي إلى أحد من أعلام أسرتها لتعرّف به ، بخلاف بعض الشخصيات المغمورة التي لابد من ربطها بشخصية لامعة شهيرة لتعرف هويتها النسبية بتلك الشخصية .

أما سيدنا المترجم فيكفي أن يقال السيد صالح الحلي فله يُنتسب وبه يعرّف ولايحتاج أن يعرّفه أحد وكفى بذلك فخراً ونسباً .

٥ كنّي بأبي المهدي وتقولها عامة الناس بالتصغير فتدعوه (أبو مهيدي) حباً به واعتزازاً بشخصيته .

ولقب بالحلي نسبة إلى الحلة الفيحاء المدينة التي ولد فيها في عام ١٢٨٩ هـ ، ثم هاجر منها قبل أن يكمل العقد الثاني من عمره

إلى مركز الدراسات الدينية في النجف الأشرف ، وانخرط في صفوف طلبة العلوم الإسلامية ، وانتسب للحوزة العلمية طالباً مجدّاً متفوقاً وأشرف على تدريسه نخبة من اجلاء الأساتذة ، وفضلاء الحوزة فقد أكمل دروس اللغة العربية والمعاني والبيان على يد الشيخ سعيد الحلي والشيخ عبد الحسين الجواهري ، وتلقى مبادئ الفقه الإسلامي وأصوله عن العلامة السيد عدنان السيد شبّر الغريفي الموسوي والعلامة الشيخ جواد محي الدين ثم حضر المناهج المقررة في كتاب الرسائل والمكاسب عند الشيخ علي بن الشيخ باقر الجواهري وبعدها واصل دراساته العليا وحضر البحوث الخارجية لأكابر العلماء كبحوث الشيخ محمد طه نجف وآغا رضا الهمداني وآغا نور الاسترابادي والشيخ ملا كاظم الخراساني صاحب الكفاية ، وهكذا تبدو أوليات السيد المترجم لاعلاقة لها بالخطابة ولاصلة لها بخدمة المنبر الحسيني ، وإنما ابتدأ حياته متدرّجاً في طلب العلم ، متسلّقاً سلّم الفضيلة حتى نال قسطاً وافراً منها ، وقطع شوطاً كبيراً ومساحة واسعة من التوغل في علوم آل محمد ثم اتجه إلى منبر الحسين عليه السلام ليكون نابغة الخطباء ومفخرة المنابر الحسينية .

خطابته :

٥ الخطابة موهبة تنمّى وفق الأسس العلمية والممارسة العملية فكيف إذا انبثقت من الأساس العلمي المتين ، وانطلقت من القواعد الثقافية الرصينة ، تعضدها الكفاءة والاستعداد ، وتسندها الجرأة وقوة الشخصية وتخالطها العبقرية والنبوغ ، إضافة إلى الصوت الهادر المجلجل ، والحنجرة المؤثرة النافذة إلى الأعماق ، فلا بد لهذه الشخصية أن تقفز بخطوات سريعة واثقة مراقي المجد والإبداع .

لقد انبثقت خطابة السيد الحلي من منابع العلم والفضل ، وحلقت في سماء الكفاءة والاقتدار ، لذلك قيل فيه إنه خطيب العلماء وعالم الخطباء .

٥ وفوق كل ذلك عناية الله وتوفيقه ورعايته وتسديده والنوايا المخلصة والمقاصد الشريفة ونزاهة السرائر وطهارة الضمائر من أهم العوامل الأساسية في نجاح الخطيب وتفوقه وتقدم مسيرته أو كما اشتهر عن السيد المترجم قوله : إن الخطيب يحتاج إلى ثلاث حاءات (الحس والحظ والحفظ) .

لذلك بعد أن نال حظه من العلم وجّه طاقته شطر الخطابة وتوجه تلقاء المنبر الحسيني ، بكل ثقله العلمي وإمكانياته الهائلة حفظاًوتركيزاً واطلاعاً واعداداً ، فعكف أولاً على حفظ الخطب الغرر

والتقاط الجواهر والدرر من كتاب نهج البلاغة وراح يتفاعل مع خطب الخطيب الأول في الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان من حسن حظه أن أشرف على توجيهه وارشاده العلاّمة القدير السيد باقر الهندي رضوان اللّه عليه الذي سخى بخبرته العلمية وسهر على بناء شخصيته الخطابية بما كان يرسم له من هياكل البحوث المنبرية ، وأصول الخطابة الحسينية ، حتى لمع نجمه وحلّق ، وبرع بفنّه وتفوّق .

٥ أما عن سبب تحوله من مسلك علماء الدين إلى سلك خطباء الحسين ففيه ثلاث روايات :

الرواية الأولى : رواية الأديب العراقي الكبير المرحوم جعفر الخليلي أن السيد المترجم حفظ القرآن ونهج البلاغة عن ظهر قلب ثم رقى المنبر في بيت صديق له بمناسبة محرم الحرام حين استبطأوا بمجيء الخطيب ، فأنس في نفسه مقدرة ، وزاده إعجاب المستمعين إليه رغبة في الاستمرار على صعود المنابر فلم يلبث حتى امتهن الخطابة وصار أشهر خطباء المنابر الحسينية من غير قصد سابق . (١)

الرواية الثانية : رواية المرجاني في خطباء المنبر الحسيني (٢) يعزو

(١) هكذا عرفتهم ١٠٨/١ .

(٢) خطباء المنبر الحسيني الطبعة القديمة ٦٧/١ .

الأمر إلى شظف العيش وشدة الحاجة والفقر المدقع مع كونه عائلاً لايملك قوت يومه ، حتى كان موضع الاشفاق والعناية من قبل آية اللّه الشيخ جعفر الشيخ راضي قدس سره لما كان يتوسم فيه من إمارات النبوغ ، فاتخذ الخطابة مهنة ووسيلة للعيش الكريم وسد الحاجة في الخطوات الأولى حتى ثنيت له وسادة المنبر وأصبح الخطيب الأول على الإطلاق .

الرواية الثالثة : ما حدثني به العلامة الأبي الشيخ خير اللّه البصري عن السيد هادي بن السيد كافي الحلي الذي التقاه في منطقة المهنّاوية بالعراق عندما كان مندوباً دينياً فيها قال إن السيد المترجم قصد زيارة الحسين مشياً على الأقدام مع كوكبة من أهل العلم ، وبينما هم يجدّون السير إذ أقبلت إليهم امرأة يبدو أنها من سكان ذلك الريف ومن نساء بعض شيوخ العشائر القاطنة هناك فسألت ذلك الموكب الديني الزائر هل فيكم أحد يقرأ على الحسين ؟ فأجابها السيد نعم أنا، ومضى إلى المجلس الحسيني المنعقد بذلك الحي وأقام عندهم أربعة أيام معززاً مكرماً ، وبعد انتهاء مهمته وعزمه على اللحاق برفاقه وتأدية مراسم الزيارة أكرموه بخمس روبيات العملة السائدة يومئذ وكان لابأس بقيمتها الفعلية وقوتها الشرائية ، فجاء إلى أصحابه مستبشراً ومداعباً فقال لهم : لقد خدمت عند اللّه ثلاثين عاماً فلم

يعطني روبية واحدة ، وخدمت عند الحسين أربعة أيام فأعطاني خمس روبيات فسوف أنقل خدماتي إلى الحسين .

وبطبيعة الحال يقول ذلك مازحاً وملاطفاً ، وإلا فالعطاء كله من اللّه وبيد اللّه عز وجل .

هذه الروايات الثلاثة هي ملخص ما ورد في كيفية انتساب السيد الحلي للخدمة الحسينية ، وتحوله وانتقاله من محراب العلم إلى منبر الخطابة ، حتى أصبح من مشاهير الخطباء الكبار ، وعظماء المنابر المرموقين .

٥ وذكر المؤرخ الحسيني الخبير السيد جواد شبّر كشف اللّه كربته في موسوعة أدب الطف أن ليس في عصر السيد الحلي من الخطباء المجددين سوى الشيخ كاظم سبتي " فهو أظهر الخطباء وأبرزهم فنبغ السيد صالح وأخذ يجاريه ويزاحمه .... وكان من المتعارف أن يجتمع خطيبان في محفل واحد بالتعاقب ، وصادف أن دُعي الخطيبان : سبتي والحلي ولحداثة سن السيد صالح والأصول المتبادلة في احترام الخطباء للأكبر سناً فقد رضي السيد صالح أن يكون هو الأول كمقدمة للشيخ كاظم . أما المعروف بين الناس أن الخطيب الثاني إنما تظهر براعته إذا تناول نفس الموضوع الذي طرقه الخطيب الأول بإضافة شيء جديد وتتمة للموضوع الأول ، فكان

حديث السيد صالح عن سيرة أبي الفضل العباس وهكذا تقدم الشيخ كاظم وتكلم فأجاد ، ولم يكن بحسبان شيخنا الخطيب أن السيد صالح قد أعدّ نفسه وهيأ من المادّة الكافية للتحدث عن أبي الفضل العباس في الليالي العشر كلها ، وهذه براعة منبرية وقدرة تؤهله للتقدم والبروز وهكذا استمر في حياته بطلاً منبرياً (١) .

٥ وذكر الباحث العراقي الأستاذ جعفر الخليلي حديثاً عن المقدرة الخلاّقة والحافظة الخارقة للسيد المترجم فقال : ولقد بلغ من مقدرته أن التزم قراءة المأتم الحسيني لجمعية المكارين الذين يؤجرون حميرهم وبغالهم للمسافرين بين النجف والمدن المتصلة بها ، فقرأ لهم عشرة أيام ، بل على الأصح أنه حاضر لهم عشرة أيام لأن خطب السيد صالح كلها أشبه بالمحاضرات منها بأي شيء آخر _ والتعبير للخليلي فلم يخرج خلال هذه الأيام العشرة عن حديث الحمير والبغال والقوافل وأخبارها القديمة والحديثة وقصصها ، فكان الناس بمختلف طبقاتهم يعافون أشغالهم ويحضرون تلك المحاضرات التي ظلت مدة طويلة موضوع أحاديث الناس وتفكههم ومثار إعجابهم وغبطتهم على هذه الموهبة .

---

(١) أدب الطف ٩/٢٠٥

٥ ومن ميزات السيد صالح أنه كان سريع الحفظ وكانت بينه وبين الشيخ كاظم سبتي – وهو من مشاهير الخطباء المعاصرين له – غضاضة ، فلم يكد يسمع الشيخ كاظم يقرأ لنفسه قصيدة في رثاء الحسين على المنبر حتى يحفظ الكثير من أبياتها لأول مرة وهناك يصعد المنبر في نفس اليوم ، أو اليوم الآخر ، ويقرأ شيئاً مما كان حفظ من قصيدة الشيخ كاظم السبتي ، ولربما أضاف إليها أبياتاً أخرى منه، ثم يروح منددا بالسبتي قائلاً : إن هذه القصيدة قديمة وهي لأحد الشعراء القدماء ، وذلك بدليل حفظي لها من أيام الصغر ولكن بعض المعاصرين _ وهو يعني السبتي يستغلون جهل الناس فينسبونها لأنفسهم (١).

٥ وكانت له مقدرة رهيبة في التفنن في توجيه النصوص حسب مايشاء ، واستخدم أنواع البديع ، والتلاعب بالألفاظ بما يمتلك من قابليات بلاغية ، وتخصص في الفصاحة والبيان ، وطالما يوجه حتى بعض آيات القرآن الكريم للدعابة والنكتة اللاذعة الذكية ، ومن ذلك ماحدثني به ذات مرة العلامة المجاهد الشيخ محمد مهدي الآصفي إن

(١) هكذا عرفتهم ١/١٠٨ .

عائلة المزيدي الكويتية وهي من العوائل العريقة التي تمتد جذورها الى الحلة بلد المترجم له، وربما لهذا السبب دخل في دعوتهم السيد الحلي ليرقى المنبر خطيباً في احد مجالسهم، فما كان منه عند اعتلاءه الأعواد إلا أن يفتتح مداعباً بالآية الكريمة: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾[1]. قرأها بياء النسبة هل من مزيدي .. فضج المجلس بالضحك والانبهار.

وحدثني العلامة المرحوم السيد عبدالزهراء الحسيني الخطيب إن السيد الحلي رقى المنبر ذات يوم بحضور الشيخ السبتي فقرأ الآية الكريمة ﴿أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت﴾[2]، وأيضا قرأها بياء النسبة أصحاب السبتي معرضا بالشيخ السبتي.

كما سمعت من العلامة الدكتور الشيخ عيسى الخاقاني قال عندما حصل خلاف السيد الحلي مع السيد ابي الحسن الموسوي الاصفهاني على اثر مسائل الشعائر الحسينية، كان السيد الحلي إذا رأى السيد أبا الحسن يرفع صوته بالآية الكريمة ﴿وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه﴾ ولا تخفى اللفتة البارعة في التعبير حيث ان السيد أبا الحسن كان يوزع الخبز على طلبة العلوم الدينية ويطلق على الخبز باللسان الفارسي (نون)، فانتزع من الآية تعريضاً ظريفاً وذكياً، ان السيد ابا الحسن انما كثر اعوانه وانصاره لانه يمدهم بالخبز ويغدق عليهم العطاء.

وهناك القصص الكثيرة والحكايات المثيرة التي يتناقلها الناس عن براعة السيد الحلي المنبرية والتي لا مجال لحصرها في هذه الترجمة.

شعره :

الخطابة والشعر توأمان وفرسا رهان فبأي آلاء ربكما تكذبان إن أول خطوة يخطوها الخطيب الحسيني تبدأ من الشعر وآخر خطوة تنتهي إليها نقطة الشعر.

---

(١) سورة ق/٣٠ .

(٢) النساء/٤٧ .

فالشعر من أهم المواد والمقومات الأساسية لصناعة الخطابة الحسينية وصياغة الشخصية المنبرية .

وخطيبنا الأديب المترجم قرض الشعر بقسميه الفصيح والدارج منذ دور الصبا وعهد الفتوة ، وقد جمع له تلميذه المبرّز الخطيب الشهير المرحوم السيد حسن الشخص شتات ديوانه الشعري المعنون بالباقيات الصالحات ، وقد نشرت له عدة قصائد في الجزء الأول من كتاب من لايحضره الخطيب ، ونشر له الشاعر الحسيني الاستاذ الشيخ محمد باقر الايرواني النجفي باقة من أشعاره في أهل البيت عليهم السلام هذه مطالعها ونماذج منها :

١ - قال في رثاء سيد الخلق والخُلق رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلّم قصيدة من اثنين وعشرين بيتاً مطلعها :

رزءٌ أطلّ فجلَّ في الأرزاء ... زفراته هبت على الغبراء .

٢ - وله في مديح سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قصيدة من سبعة عشر بيتاً يستهلها بقوله :

أبا حسنٍ ليسَ كيفٌ وحد ... يحددُ ذاتكَ إلا الأحد

٣ - وفي رثائه عليه السلام قصيدة من ست وعشرين بيتاً يفتتحها :

خطبٌ أذابَ من البتولِ فؤادَها وأذابَ من عينِ الرسـولِ فؤادهـا

٤ – ومن قصائده الشهيرة مستنهضاً صاحب الأمـر وراثيـاً الزهـراء عليهما السلام قصيدته الغرّاء :

يامدرك الثار البدار البدار شـن علـى حـرب عـداك المغـار

وهي من أروع قصائد الولاء الحماسية تضمنت أربـع وأربعـين بيتاً منها البيتان الشهيران على ألسنة الخطباء :

قد ورثت من أمهـا زينب كـل الـذي جـرى عليهـا وصـار

وزادت البنـت على أمهـا مـن دارهـا تهـدى إلى شـرّدار

٥ – ورثى الزهراء والحسين بقصيدة واحدة من ثلاثـة وثلاثـين بيتـاً ابتدأها بقوله :

خليلي عوجا بي على الحي واحبسا

قلوصيكمـا في رامـةٍ لاتغلّسـا

ومنها يقول :

خليلي ماوجدي لفقد أحبتـي

ولكنمـا وجـدي لسـيدة النسـا

هي البضعة الزهرا سليلة أحمـد

وخامسـة الاشـباح صاحبـة الكسـا

ثم ينعطف نحو الحسين عليه السلام فيقول :

سعى للردى في فتيةٍ ترهب العدى

وتفدي لحفظ الدين في الله أنفسا

سطو فسقوا اعدائهم جُرع الردى

مضوا فقضوا حق الهدى حين أطمسا

٦ – ومن شعره في مصائب الزهراء والاشارة المجملة لرثاء أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام قصيدته العينية المؤلفة من اثنين وعشرين بيتاً منها البيت الشهير الذي يستشهد به الخطباء .

أما الكتاب فمزقته امية والعترة الها دون اضحوا صرعا

ومطلع القصيدة :

لمصائب الزهرا هجرت المضجعا

واذبت قلبي من جفوني أدمعا

٧ – وكذلك في رثاء الصديقة الطاهرة ثم يرثي الحسين في آخر لاميته العصماء التي اتحد فيها الصدر والعجز بقافية واحدة في واحد وثلاثين بيتاً أولها :

دع تفاصيلاً وسلني جملا لم تطق تسمع ماقد فصلا

وآخرها :

إنَّ صبري وسلّوي رحـــلا وشـــجوني وســـهادي نـــزلا

٨ - ومن قصائده الحماسية ميمية رائعة من تسع وعشرين بيتاً يؤشر في مقدمتها إلى خروج الإمام المهدي ، ويستعرض اقصاء علـي عن قيادة الأمة وتطرق إلى محنة الزهراء وظلامتها فيبدأ :

ولابد من يومٍ به نكشـــفُ الظلما

ونملئهـا عـــدلاً كمـا ملئـت ظلمـا

ونوردها للخيل شـــقراً على العدى

ولكـن بفيـض النحـر نصدرهـا دهمـا

ثم يختتم بأحداث كربلاء ويقفل قصيدته بالبيتين الآتيين :

كريـــمٌ يحامي عن كـــرائمِ أحمدٍ

ويكشـفُ عنهـنَّ النوائـبَ والغمّـا

ولكن أراد الله سبي نســـائه

إلى الشام حسرى تسمع السب والشتما

٩ - وقطعة أخرى من عشرة أبيات في الزهراء عليها السلام مطلعها :

لو أن دمعي يطفي نار اشـجاني

اذلـت دمعـي مـن قلبـي بأجفـاني

١٠ - وله قصيدة من اثنين وأربعين بيتاً في الموعظة والتذكير بالموت

والتحذير من الدهر ثم استعراض ظلامة أهل البيت وختامها في الحسين عليه السلام استهلها بقوله :

سرّح بطرفك أيها الإنسان

في الذاهبين كأنهم ماكانوا

٥ وختمها بقوله :

أنساء آل الله تسبى حسراً

وبنات هند في القصور تصان

١١ – ومن قصيدة له يستنكر بها الظلم العباسي لاهل بيت النبوة عليهم السلام ثم يمضي بها إلى كربلاء وتحتوي القصيدة تسع وثلاثين بيتاً تفتتح بقوله :

وقد أصابت بنو العباس ماطلبت

واستأصلت كل قاص كان أو دان .

٥ وتختتم يقوله :

رؤوسهم رفعت فوق القنا وغدت

جسومهم حثماً من فوق كثبان

١٢ – ومن حماسياته في استنهاض الهاشميين بائية عصماء من أربع وثلاثين بيتاً يقول في مطلعها :

الى مَ التواني يالؤيٌّ عن الضرب

لقد سئمت يمناك قائمة العضب

أهاشم هبّوا إنَّ صدر عميدكم

لقد هشمت منه الضلوع بنو حرب

أهاشم هبوا وانظروا ماجرى على

نسائكم بالطف من فادح الخطب

ضعي هاشم ثوب العلى وتقمصي

عن العار بين الناس بالستر والحجب

لقد ندبت فرسانها خفراتكم

وقد بحت الأصوات من شدة الندب

إلى أن يصل في نهايتها يستنهض الإمام المهدي عجل الله فرجه ويختمها بالبيت الآتي :

ويطعن عينيه وينكت ثغره

بمجلس أنس حفّ باللهو واللعب

١٣ - وفي نهضة الحسين ورثائه قصيدة رائعة من اثنين وثلاثين بيتاً بدؤها :

يـاخليلي اسـعداني ونوحـــــــــــا

فبطوفـــان مدمعـــي صـــرت نوحــــا

وختامها :

كلّما رمت ان أبوح بوجـــــــــــدي

خفــت مــن شـــامت بـــه ان ابوحـــا

١٤ – وكذلك قصيدة في الحسين عليه السلام مطلعها :

أفدي وحيداً دعاه الواحد الأحـــــــد

لـــم يثنـــه عـــن لقـــاه الخـــوف والفنـــد

والقصيدة من اثنين وثلاثين بيتاً آخرها :

لو آمنوبإله العرش ماقتلـــــــــوا

آل النبـــي ولكـــن ربهـــم جحـــدوا

١٥ – وفي رزايا الطف دالية من سبع وثلاثين بيتاً تستهل بقوله :

رمت من عين هاشم بالســـــــواد

ومـــن فهـــر ســـويداء الفـــؤاد

٥ وتنتهي :

وحبـلاً قيـدوا فيـه عليـــــــــا

بـــه الســـجاد أصبـــح في قيـــاد

١٦ - وفي الحسين عليه السلام رائية شهيرة تضم اثنين وعشـرين بيتـاً هي :

عجباً لهذا الدهر كيف يـــــدور

ويعـــمُّ فيـــه العـــالمين ســـرور

١٧ - وفي الحماسة ومخاطبة الهاشـميين ورثـاء الحسـين مقطوعـة مـن خمسة عشر بيتاً :

أهاشم هبي واشحذي البيض والسمرا

لكي تدركي مـن آل حـرب لـك الوتـرا

١٨ - وفي بطولة الحسين ورثائه قصيدة من سبع وعشرين بيتاً :

أبدلت ذل الدين عـــــــزا

مـــذ قـــل منجـــده وعـــزّا

١٩ - وقطعة في يوم الحسين عليه السلام من خمسة عشر بيتاً :

قد اقامت قواعد الظلم تيـــم

ويزيـــد عـــلا عليهـــا بنـــاه

٢٠ - في الطفل الرضيع أربعة عشر بيتاً مطلعها :

لهفي عليه حاملا طفلـــــه

يستسقي ماءاً من عداه له

٢١ - إن جئـت أرض الطـف فـأنزل فيهـا

واعقـــر نيـــاق الصـــبر ياحاديهـــا

رائعة عصماء من واحد وثلاثين بيتاً على وزن (ان كـان عنـدك عـبرة تجريها) القصيدة المشهورة للمرحوم السيد رضا الهندي .

٢٢ - وقصيدة في أربع وثلاثـين بيتـاً في تـاج رؤوس الهاشـميين أبـي الفضل العباس قال فيها :

من هاشم سلبت أمية تاجهـــــــــا

وفـــرت بســيف ظلالهـــا اوداجهـــا

٢٣ - وفي مسلم بن عقيل قصيدة معروفة تقع في ثلاثة وأربعين بيتاً :

لو كان ينقع للعليل غليـــــــــــل

فـــاض الفـــرات بمدمعـــي والنيـــل

٢٤ - وقصيدة أخرى في سفير الحسين مسلم بن عقيـل أيضـاً تتـألف من أربع وعشرين بيتاً أولها :

لمسلمٍ عينَ الهدى ســـــحّي دمـــا

وياحشـــى الاســـلام شـــبّي ضرمـــا

٢٥ - وفي علي الأكبر قصيدة من اثنين وعشرين بيتاً مطلعها :

يانيراً فيـه تجلى ظلمـــة الغســـق

قد غاله الخسف حتى انقض من أفق

٢٦ - وقصيدته العامرة في القاسم بن الحسن من أشهر مايردده الخطباء في هذه الذكرى وهي ثمانية وعشرين بيتاً ، ومطلع القصيدة :

يادوحة المجد من فهر ومن مضر

قد جفّ ماء الصبا من غصنك النضر

٢٧ - وله في حماة الإسلام وانصار العقيدة بائية عصماء يخص فيها حبيب بن مظاهر الاسدي في دفاعه ومواقفه المشرفة ثم رثائه وهي في سبع وعشرين بيتاً مطلعها :

كلما تعذلان زدتُ نحيبا

ياخليلي إن ذكرت حبيبا

٢٨ - قصيدة من اثنين وثلاثين بيتاً في رثاء الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ويبدو أنها أطول من ذلك ولكن فقدت بعض أبياتها :

لهف نفسي على ابن جعفر موسى

عاش في دهره يقاسي الحبوسا

وبعد هذا العرض الإجمالي لاضمامة عابقة بأريج البيت الطاهر ومشاعر ملتاعة لما حل بهم من المحن والخطوب ، ليس بمستكثر على خطيبنا المترجم هذا الأدب الجزل بعد أن عاش بأحضان اسرة ولدت في قلب الأدب والشعر وبيئة تتنفس الشعر وتتغذى بالأدب.

فوليدهـم في المهـد يـألف شـــعرهم
فكأنــه والشــعر قــد ولــدا معــا

ولايخفى أن الحلـة الفيحـاء – بلـد المترجم – كـانت معقـل الحضـارة العراقية ثـم أصبحت مركز الدراسات الدينية ، ومنطلق الحركة الثقافية ، ومحور النشـاطات العلميـة والأدبيـة عندمـا استوطنتها حـوزة العلـم والديـن لثلاثـة قـرون ، وخرّجـت فطـاحل العلمـاء وأسـاطين الأدب العربي أمثال ابن ادريس وابـن نمـا والمحقـق الحلـي والعلامـة الحلـي ، وغيرهـم من جهابذة العلم ، وأمثال شعراء الحلة كالسيد حيـدر الحلـي والسيد جعفر الحلي ، والسـيد عبـد المطلـب الحلـي ، والشيخ صـالح التميمي والشيخ صالح الكواز .والنحويين الشيخ أحمد وولـده الشـيخ محمد رضا وغير هؤلاء من عمالقة الأدباء وفرسان الشعراء .

فلا غرو ان كان سيدنا الحلي علماً من أعلام الأدب ، وعمـداً من أعمدة الشعر وقطباً من أقطاب المنبر والخطابة ، وركناً من أركـان العلم والفضيلة .

تاريخه السياسي :

٥ لو تصفحنـا القـاموس السياسـي للعـراق عـبر الأدوار التاريخيـة المختلفة ، منذ أن اسـتوطنه أمـير المؤمنـين علـي بـن أبـي طـالب عليـه السـلام في الصـدر الإسـلامي الأول ، واتخـذ الكوفـة عاصمـة للدولـة

الإسلامية ومركزاً للاشعاع الديني ، ونقل أجهزة الادارة والحكم وأنشطة الخلافة الاسلامية إلى هذا البلد ، لوجدنا كيف عصفت به الأعاصير الهوجاء والتقلبات السياسية ، وكيف أن هذا البلد عاش حالة من الغليان والصراع العنيف دينياً وسياسياً .

ولاشك أن الكوفة - عاصمة الدولة الإسلامية في حكم الإمام علي عليه السلام - والتي مصرت مبدئياً كمنطقة عسكرية هي مهد الولاء والتشيع لاهل بيت النبوة ، ومنها انطلقت الحركات الثورية والتحررية التي زلزلت العروش ونكّست التيجان وكانت ساحاتها وأراضيها مسرحاً للكثير من الثورات المسلحة والمعارك الدامية كثورة الحسين عليه السلام وثورة التوابين وثورة المختار وثورة زيد بن علي وسلسلة الثورات الأخرى .

وللكوفة ينتمي الطراز المتميز من رجال العقيدة وصناع الحضارة الذين رفعوا لواء القرآن بيد من حديد ، وجعلوا راية الإسلام خفاقة بجهادهم وتضحياتهم ، وطرزوا تاريخهم المشرق بالدم والفداء والعز والإباء كالطلائع الثورية التي التفت حول الامام أمير المؤمنين عليه السلام أمثال مالك الأشتر وحجر بن عدي الكندي وعمر بن الحمق الخزاعي وهاشم المرقال والكتلة المجاهدة التي نصرت الحسين حتى آخر قطرة من دمائها كحبيب بن مظاهر الأسدي واخيه علي بن

مظاهر الأسدي ، وزهير بن القين البجلي ، ونافع بن هلال الجملـي ، وبرير بن خضـير الهمدانـي ، وعـابس بـن شـبيب الشـاكري ، وغـير هؤلاء من قوافل المجاهدين وروادالعدالة والتحرير ، تلمس أن الانتماء الجغرافي والهوية الوطنية لهؤلاء الأبطال هي الكوفة .

وقد تظافرت بمجموعة من العوامل الاستراتيجية لبث هذا الوعي الثوري ، وبعث الروح الجهادية الواعية عند هذا المجتمع .

ولعل من أهم تلك العوامل المناخ المفتـوح والتربيـة الحـرة التـي غرسها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نفوسهم وضمـائرهـم ، وان قاسى الأمرّين وكابد المعاناة من تلقاء رسم معالم الحرية المطلقة ، نظرا لوجود بعض العناصر المشبوهة التـي أسـاءت اسـتغلال أجـواء الحريـة وإبداء الرأي والمشاركة في القـرار ، فراحـت تثير المشـاكل والشـغب والفـتن والاضطرابـات الداخليـة ممـا اربكـت المسيرة المظفـرة بوضـع العقبات والعراقيل في طريق الخطط الإصلاحية والمنـاهج التربويـة التـي تبناها الإمام عليه السلام لنشئة الأجيال المستقيمة وبنـاء الشـخصيات العقائدية وتأسيس المجتمع المتماسك .

ومنـذ ذلـك التـاريخ والافـذاذ مـن رجالنـا ، والعمالقـة مـن شخصياتنا يسجلون المواقف المشـرفة موقفـاً تلـو الآخـر بيـد الصلابـة والإخلاص .

ولو تخطينا مراحل التاريخ وتوقفنا عند تاريخنا السياسي المعاصر، لوجدنا مقارعة المستعمر ومكافحة الطغيان بكل صنوفه وأشكاله من المهام الشاقة التي اضطلع بها امجادنا ووقف لها رجالنا في الصفوف الأمامية والخطوط المتقدمة .

ولعل من أوليات التاريخ السياسي لحياة سيدنا المترجم عندما انقدحت الشرارة الأولى للحرب العالمية ، وخاضت الدولة العثمانية غمارها إلى جانب حليفتها ألمانيا ، وأحتل الانكليز ثغر البصرة عام ١٣٣٣ هـ ، وهب علماء الدين وزعماء المسلمين للذب عن بلد الرافدين والدفاع عن كرامة الشعب العراقي ومقارعة العدو المعتدي المحتل ، وقد تقدم الزعيم الديني السيد محمد سعيد الحبوبي زاحفاً بقبائل الفرات الأوسط ، والعشائر الجنوبية نحو البصرة ، ورابطوا في ساحات الوغى وميادين التصدي والتحرير .

وفي هذه الظروف السياسية الحامية كان سيدنا المترجم خطيباً في مجالس البصرة لإحياء الموسم السنوي لذكرى عاشوراء ولايخفى تأزم الأمور وتوتر الأحداث لاسيما والبصرة مسرح الاحتلال ، فانبرى السيد الحلي كالأسد الهصور والليث الغاضب بخطبه الحماسية في تعبئة المقاتلين وتحريض الجماهير على الالتحاق بجبهات القتال وميادين الشرف وتقرير المصير ، داعياً إلى النفير العام والزحف

المقدس ، باعثاً روح الحماس والاستبسال يشحذ الهمم ، ويوقظ المشاعر بما أوتي من قوة جنان ورباطة جأش ، ومنطق بليغ ، وبقي الخصم المناوئ العنيد والعدو المجالد اللدود للاستعمار طيلة حياته .

ولما انفجر بركان الغضب العراقي واندلعت ثورة العشرين ضد الاحتلال الإنكليزي الغاشم عام ١٩٢٠ م طفق السيد السند يخوض غمارها بجلجلا هادراً ببيانه ، ثابتاً كالطود الأشم في محاربة المحتل المعتدي وأذنابه ، يقول السرانولد ويلسن في كتابه الثورة العراقية : وكان من العاملين على إضرام الثورة في جهات ديالى السيد صالح الحلي والسيد محمد الصدر.

فكان يصول ويجول ويخطب ويحرض في بغداد وضواحيها حتى وصل إلى مدينة بعقوبة وتوغل في أريافها وقراها لمواصلة جهاده المقدس ، ترصدت له عناصر الشر وألقت القبض عليه ، وانشبت مخالبها فيه ، وأصبح في قبضة حكومة الاحتلال فحكمت بنفيه وابعاده إلى الهند عن طريق البصرة والمحمرة ، وجيء به مخفوراً حتى مر على قصر الشيخ خزعل خان بالفيلية فرفع صوته واخزعلاه ولاخزعل لي اليوم ، فأغاثه وآواه وانقذه من مخالب السلطة البريطانية .

ثم اكرم وفادته وأصبح نديمه الخاص مقيماً في بيته زهاء الثمانية شهور ، حتى خمدت الثورة العراقية ، أطلق سراحه وعاد إلى العراق مظفراً سالماً ، واتخذ الكوفة موطناً ومسكناً وحط رحله فيها .

وفي عام ١٣٤٢ هجـ انبرى يهاجم المدارس الحديثة ويعرض بأعضائها على المنابر ويعلن أن مناهج التعليم استعمارية مخالفة لقواعد الدين الحنيف ، فألقت السلطة المذكورة القبض عليه في كربلاء أبعدته إلى البصرة والسيبة والفاو أكثر من خمسة أشهر ثم أعيد إلى الكوفة .

وفي عام ١٣٥٢ نفته الحكومة العراقية إلى البصرة على أثر مشكلة الانتخابات البرلمانية لأول مجلس نيابي تأسيسي للعراق الذي تريث العلماء في تأييده ، وانبرى الخطيب الحلي يهتف بمقاطعته فأبعدوه أيضاً إلى البصرة ستة أشهر ثم عاد إلى النجف الأشرف .

وفي احداث الفتاوى المتعلقة بالدساتير البرلمانية الشهيرة التي عرفت بحركة المشروطة والمستبدة في إيران انقسم العلماء إلى فريقين مؤيد ومعارض ، وكان الفقيه الكبير السيد كاظم اليزدي صاحب العروة الوثقى يؤيد المستبدين خلافاً لزعيم الأحرار العالم الأصولي المولى محمد كاظم الخراساني المعروف بالآخوند صاحب الكفاية ، فقد كان يؤيد دعاة الدستور ويناهض المستبدين ، وحصل من جراء ذلك صراع عنيف ، وتوسعت دائرة التناحر والخلاف ، وكان السيد الحلي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من مناصري الآخوند الخراساني ، فراح يشن حملات الطعن ، وغارات النقد والتنديد ، وجابه حتى شخصية الإمام اليزدي بأقسى المجابهات ، وراح يتحداه وينال منه في شعره وكناياته وأقواله ومن ذلك :

فوالله ماأدري غداً في جهنم
أيزديّها أشقى الورى أم يزيدها

وقوله معرّضاً :

وفتاة تقول وهي تصبُ ال
ماء قلدت كاظماً قلت صبي

ويقصدها بالصبي هنا الصابئي باللهجة الدارجة وهناك تورية أخرى غير صب الماء والصابئي ، وهي أن كاظم صبي من رجال السلاح المعروفين في النجف بالمشاهدة أو الشقاوات أو القبضايات على حد تعبير المنطقة الشامية ، وليس لهذا الرجل أي شأن أو علاقة بالعلم والدين لامن قريب ولابعيد .

وبناء على هذه المواقف المتصلبة ، والتعابير الاستفزازية الجريئة، وبناء على صراعه المستمر مع اللادينيين المتسترين بأقنعة وعناوين مختلفة ، تظافرت جهود متعددة بعضها مشبوه ومريب يجمعها قاسم مشترك موحد هو بغض السيد صالح وعداؤه فنسجت مؤامرة ماكرة

ووضعت الدسائس المحبوكة وقد كتب لها النجاح بعض الوقت ورروجوا اشاعة خبيثة مضمونها أن السيد صالح يسب العلماء ، وليس القصد من وراء ذلك العلماء وإنما تحطيم شخصية السيد صالح الخصم العنيد والمناوىء الشديد ، وانطلى الأمر على الكثير من السذج والمغفلين وإلى يومنا هذا وتمكن التآمر الآثم أن يثير البلبلة بين صفوف العلماء فينقسمون إلى مناصر ومحارب (وتنتعش تلك الطغمة التي لايطيب لها العيش إلا في الأوحال والقيل والقال) (١) ، وحتى الفتوى التي أصدرها الإمام السيد أبو الحسن الأصفهاني بتفسيقه وتحريم الاستماع إلى قراءته والتي أرخها الشيخ علي البازي بقوله :

أبو حسنٍ افتى بتفسيق صالح قراءته ارختها (غير صالحة)

أجل حتى هذه الفتوى لاتخلو من تأمل ، ولايعلم من كان وراءها ومن الذي استصدرها من الإمام الاصفهاني ، ولاأتصور أنها خاضعة لضوابط دقيقة ، ومقاييس شرعية لم يخالطها الارتياب من الوسائط التي صورت للإمام المفتي انتهاك السيد صالح للمقدسات والمساس بكرامة علماء الدين .

يقول المرجاني في الطبعة الأولى من كتاب خطباء المنبر الحسيني المطبوع قبل نصف قرن تقريباً مانصه :

(١) أدب الطف ٢٠٦/٩ .

٥ وفي سنة ١٣٤٤ هجـ نسبوا إليه من طعنه على علماء الدين حتى حرم آية الله المغفور له السيد أبو الحسن الأصفهاني استماع قرائته وذلك في الثالث عشر من جمادى الأولى من تلك السنة حيث شهد عنده اعداء المترجم وهجره الروحانيون ، وكانت التهم التي وجهت إليه كاذبة يذيعها عليه أعداء المهنة الذين سدّت عليهم شهرته الطائرة طرق المعيشة – كما يزعمون – وأخيراً إذ تبينت برائته منها مال إليه السيد وعلماء الدين (١) .

ويتبلور للباحث من خلال استقراء الأحداث أن السيد المترجم كان شديد التمسك برأيه ، كثير الاعتداد بنفسه ، قوي الشكيمة متصلب الموقف شديد اللهجة ، قوي الحجة ، واثق الشخصية ، دائم التحدي والاستفزاز بحق وبغير حق ، ولانغفل الإشارة إلى أنه زميل السيد أبي الحسن في التلمذة والدراسة عند الشيخ الآخوند الخراساني. غير أن هذا اتجه للمرجعية وذاك اتجه للخطابة .

وربما ناوئته فئات وشخصيات ذات نفوذ وصلاحيات في كيان المرجعية الدينية نفسها، يساندها الطابور الخامس ويحرضها بعض المشبوهين والمغرضين، وتلتف حولها الأمعّات والنفعيين، والمرتزقة، والفاشلين،

---

(١) خطباء المنبر ١/٧٨ .

وأرباب المصالح، وباعة الضمائر، وقليلي الورع، والسذج، والهمج الرعاع الذين لا يخلو منهم أي عصر ودور، فافتعلوا هذه الضجة وأشعلوا هذه الفتنة، وربما طوقوا أعناقهم بظلامة ساهم الجميع فيها بقصد أو بدون قصد، واشتركوا فيها بحسن نيةأو بسوءها.

ومثلي من لا يتجرأ على مقام المرجعية المقدس، او التشكيك في نزاهتها وورعها بالذات، بل ولا حتى الأبرار والأتقياء من الشخصيات الهامة الفاعلة في كيان المرجعية والعياذ بالله، وانما نعني تلك العناصر التي تقحم انفسها الرخيصة بمكر ودهاء فتختلق اجواء التوتر والمواجهة الساخنة.

ولعل من أطرف ما ورد في سيرة السيد الحلي بهذا الصدد حول توبته المزعومة وقد ورد فيها ثلاث روايات:

الأولى: يجب أن يرقى الأعواد في الصحن الشريف ويعلن ندمه وتوبته على رؤوس الاشهاد ليسحب السيد ابوالحسن فتواه في تحريم قرائته، فلما ارتقى المنبر ورأى الحشود المكتظة تحت منبره والمتلهفة لما يقول أخذه الاعتداد بالنفس فلم يطرح ما كان مقرراً!.

الثانية: انعقاد المجلس العام للتوبة في الجامع الهندي وعندما ارتقى المنبر امام الجمهور الغفير تحدث عن مسألة فقهية تتعلق بطهارة الكر وأسهب فيها وعلق عليها ان الكر يبقى على الطهارة غير ان

الحواشي تبقى نجسة!!. معرّضاً لحاشية السيد أبي الحسن

الثالثة: إن مجلس التوبة عقد في بيت السيد أبي الحسن نفسه وهذا ما حدثني به الدكتور السيد مصطفى جمال الدين وقال لقد كنت من الشاهدين في هذا المجلس ولا زلت أتذكر انه عقد على سطح دار السيد ابي الحسن لأن الوقت كان في فصل الصيف وأعلن السيد صالح توبته وقبلها السيد أبوالحسن ورضي عنه.

ومما لاشك فيه أن شخصية المرجع الديني أو المصلح الاجتماعي أعلى وأرفع وأجل من الظلم والتعدي والمهاترات والتوتر الباطل، ولكن لا يسعنا التهرب ولابد من الاعتراف بوجود بعض العناصر المحيطة بتلك الشخصيات من ذوي الأفق الضيق والإيمان المحدود والتصورات الرخيصة هي التي تؤجج الفتن، وتشعل الخصومات، وتطور النزاع، وقلما تحصل جلسات للمكاشفة، والحوار الهادىء والتفاهم الودّي، والحلول السلمية، فكل يتمسك برأيه، ويتشنج لموقفه، ويتعصب على خصمه، ويثأر لكرامته، حتى يتفجر الموقف، وتتأزم الأمور، وتتعقد المشاكل، وتستعصي على الحلول، وإذا ما بحثت عن جذور المشكلة، لوجدت يداً خبيثة تتصيد بالماء العكر، وأصابع مشبوهة تخترق الصف الموحد، وتزرع روح التباغض، وتؤجج الأحقاد في القلوب، فتستخدم الشخصية النافذة ثقلها الاجتماعي ونفوذها وصلاحياتها لتحطيم الخصم وتدميره

واجتياحه بما أوتيت من قوة وبمختلف الوسائل المتاحة وغير المتاحة وبشتى الأساليب الممكنة والمستحيلة ، وتسخير العناوين الشرعية والدعائية بمناسبة وبغير مناسبة ضدها ، تشفياً ونكاية ، وانتقاماً وزراية .

هذا إذا كان الخصم بحجم السيد صالح الحلي وبضخامة شخصيته فما بالك إذا كان من سائر الناس ، فسوف تدوسه الأقدام وتسحقه الأرجل ، وتلوكه الألسن ، وتتحداه السماسرة ، وتضفي على مواقفها أنواع الأقنعة والعناوين الشرعية والمقاييس الدينية دون أن يشعر بظلامته أحد ، ويبقى نازف الجرح مهدور الكرامة بلا حسيب ولارقيب ولاسائل ولامسؤول .

وهذا من أخطر الأمراض الفتاكة في أوساطنا الدينية ، ومجتمعاتنا المعهودة .

الحلي والشعائر الحسينية :

٥ في دراسة حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام وتسليط الأضواء على المهام والمسؤوليات التي اضطلعوا بها ، والوظائف التي مارسوها يتجلى لنا اختلاف العمل الوظيفي ، وتنوع الاداء والفعاليات العملية حسب مقتضيات الظروف التي عايشوها في عهود الأنظمة الغاصبة والسلطات الجائرة فهناك من استلم مقاليد السلطة ، ومارس الإدارة

والحكم ، وبادر لوضع أسس التربية والاصلاح الاجتماعي ، وقام بدوره الرسالي في أحلك الظروف كما فعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

وهناك من اقتضت ظروف عمله وواجباته الشرعية أن يقوم بدور الاحباط للمخططات الجاهلية التي تستهدف النيل من الإسلام ، وإفشال تلك النوايا الشريرة المتربصة بالعقيدة سوءاً وشراً ، بالصبر والحكمة والتنازل الظاهري عن الحكم ، ومصالحة العدو ، وتجميد المواجهة العسكرية المباشرة حتى تحين الفرصة المناسبة ، والوقت الملائم للصدام المسلح والعمل التمهيدي المحنك لتفجير الموقف ، وذلك مانفذه الإمام الحسن عليه السلام .

وهناك من سلك طريق المحراب التوعوي والعبادة الثقافية وممارسة النشاط الإسلامي غير المباشر كرحلات الحج الهادفة وفتح مدرسة الرقيق التربوية وزعامة الحوزة العلمية كما فعل الإمام زين العابدين عليه السلام الذي عاصر شدة البطش الأموي ، وذروة القمع والارهاب الذي مارسه الحكام الأمويون ضد أهل البيت ، وتبناه الحجاج بن يوسف الثقفي ضد شيعتهم وأتباعهم .

بينما نهج أعلام آخرون من أئمة الهدى افتتاح معاهد العلم ، ومؤسسات الثقافة ، وتنوير المجتمع ، وتوعية الجماهير ، ونشر

المبادئ الأصيلة ، وفق أنظمة القرآن وتعاليم الإسلام ، ومفاهيم مدرسة النبوة ، كما برز بذلك الأمام الباقر وولده الإمام جعفر الصادق وسواهما من الأئمة الذين أتيحت لهم الفرص المناسبة لنشر العلوم الإسلامية .

وهكذا ترى تنوع الأدوار ، وتعدد المسؤوليات وتوزيع المهام الرسالية بين ممارسة الحكم ، وتجميد العمل الثوري ، والسلوك العبادي الهادف ، ونشر العلم والمعرفة كل ذلك ضمن إطار موحد في الهدف والمسؤولية .

أما الإمام الحسين عليه السلام فقد تزعم الجناح الثوري في الإسلام وفجر الموقف التضحوي والفدائي ، ودكّ حصون الجاهلية واقتلع معاقل الكفر وقلاع النفاق ، بأسلوبه الثائر بوجه الطغيان والتخلف الأموي ، فقد اقتحم الحسين ميادين الشرف والبطولة والاباء ، وسقى شجرة التحرر والعدالة بدمه الزكي الطاهر الذي زلزل الأرض تحت أقدام الطواغيت عبر العصور وألقى بتيجانهم في مزبلة التاريخ .

وبذلك يعتبر الحسين الرائد الأول والمؤسس الحقيقي للمدرسة الثورية في الإسلام ، ولهذا أصبح الحسين رمزاً للكرامة ، ومثلاً تتملاه قوافل الاحرار ، ونشيداً تردده حناجر الثائرين ، وقبساً ينير الدرب

للأجيال المضطهدة ، لاستعادة كرامتها المهدورة ومجدها الصريع على أيدي الجلادين والغاشمين والسماسرة ، وسيبقى سيفاً مصلتاً وحساماً مرهفاً يشير للظالمين بأن الظلم لايدوم وان الحق هو المنتصر ، ونبراساً مضيئاً يحدد معالم الطريق بأن الأمة المسحوقة والشعب المضطهد إذا أراد أن يختصر الطريق نحو المجد والشرف والكرامة والاباء والرفعة فلا بد ان يتكلم بمنطق الدم ، ويتحدث بلغة الفداء والتضحية .

ولذلك لم يكن الحسين المحتفى به كل عام ، والمخلد مدى الدهر جسداً ودماً ولحماً ، بمقدار ماهو قرآناً ومبدئاً وفكراً وحركة ثورية ورمزاً ومثلاً أعلى تهطع لعظمته الدنيا ، وتنحني على أعتابه تيجان الملوك وجباه العظماء .

وإذا أمعنا النظر في الشعائر الحسينية نجدها الامتداد الثوري لمدرسة الحسين، والتحدي المبدئي لرسالته المقدسة ، فما إقامة هذه المحافل والمهرجانات والمواكب والمسيرات الكبرى إلا تظاهرة جماهيرية صاخبة ، ومسيرة عالمية منتظمة، صبغت التاريخ بالدمع والدم، وملأت الدنيا بالاحتجاج والرفض وهزّت الضمائر الحيّة لكل شرفاء العالم،عارضة الحق المهدور والظلامة المنكرة لاهل البيت عليهم السلام، ثم هي التحدي العملي لبطش الجبابرة وطغيان الفراعنة، والرفض لكل أساليب القمع والاضطهاد التي أنزلت بشيعة آل محمد

طيلـة التـاريخ وكذلـك فهـي الوسـيلة الإعلاميـة الكـبرى، والدعايـة العقائدية المؤثرة لنشر الحق ، وترويـج المبـادئ ، وطـرح القيـم والمثـل والأخلاق والتراث العظيم وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، ثـم هي التعبير الناطق عن الحيـف والأجحـاف والحرمـان والتعـدي الـذي لحقهم على مر العصور.

٥ وقد تبرعمت مؤسسة الشعائر الحسينيه من عمق مأساة الطف، وولدت بعد مصرع الحسين ورسم لها أئمـة الديـن، ورجـال العقيـدة ،المناهج الهادفـة ، والضوابـط المتينـة ، ورفدوهـا بـالدعم العقـائدي ، ودعموها بالزخم العاطفي، ورسموا القواعد العامة، ووضعوا التعـاليم المطلقة لممارسة هذه التقاليد ، وتعظيم هذه الشعائر،واحيـاء أمـر أهـل البيت عليهـم السـلام علـى سبيل الأجمـال والاطـلاق، ودون تدخـل بالجزئيات ، ووسـائل التعبير، وقنـوات الممارسـة ، بـل تركـت هـذه الأمور الىالأجتهاد والأبداع ، وتغييّر الظروف والأزمنة.

وقد عبرت الجماهير بكل طبقاتها ومستوياتها العلمية والثقافية بتعابير مختلفة منذ القدم، ومارسـوها بقنـوات متنوعـة ، فلكـل شـريحة تعبير عن إقامة الشعائر بصيغة معينـة حسـب فهمهـا، ومـاتراه ملائمـاً ومنسجماً مع قواعد التعبير، بشـرط الا يتجـاوز الضوابـط المحـددة ، والمقاييس الشرعية العامة .

فهناك من عبر بلغة السيف والدم كمسيرات التطبير ، وهناك من تبنى أسلوب الاستعراض في الشوارع والساحات العامة كالمواكب الحسينية المعروفة بجناحيها ، لطم الصدور ، وضرب السلاسل ، وهناك من تكلم بمنطق العاطفة المتمثل بمجلس عزاء نائح ، وطائفة عبّرت عن ولائها وتعظيمها بمحاضرة مبدئية واعية ، وأخرى بعروض مسرحية أو تمثيلية لاحداث الطف وهناك شريحة عبرت بحرارة الشعر والأدب ، هكذا ترى تعداد الصيغ والقنوات والتعابير المعربة عن مفهوم واحد ، والمنتهية لمصدر واحد وهو ولاء أهل البيت عليهم السلام .

ولو تقصينا المناشئ التاريخية لانطلاقة هذه المؤسسة العملاقة الهامة ، لوجدنا أنها انبعثت من بيوت أهل البيت التي فتحت أبوابها تستقبل الشعراء والمعزين ، وتقيم المآتم وتعقد المجالس التي تمتزج بها العقيدة بالعاطفة ، والفكر بالدمع ، كما فعل الإمام الباقر مع الكميت الأسدي ، والإمام الصادق مع السيد الحميري ، والإمام الرضا مع شاعر العقيدة الجريء دعبل بن علي الخزاعي .

ولو تفحصنا قصيدة دعبل التائية كنموذج ثوري وعاطفي في آن واحد ، لوجدناها ثورة لاهبة تفيض باللوعة والاحتجاج لظلامة أهل البيت ، واغتصاب حقوقهم كقوله :

وماســــــــهلت تلـك المذاهـب فيهـم

علـــى النــــاس الا بيعـــة الفلتـــــات

أرئ فيئهـــــم في غيرهـم متقســــــماً

وأيديهـــم مـــن فيئهـــم صفـــرات

ثم لايغفل الجانب العاطفي عندما يقول :

أفاطم لوخلت الحســين مجــــــدلاً

وقــد مــات عطشـــاناً بشــط فــرات

إذاً للطمت الخد فاطـــم عنـــــده

وأجريــت دمـــع العـــين بالوجنــــات

* * *

وقـد لاقـت هـذه الممارسـات والتقـاليد مـن السـلبيات والنقـد والتجريح ماتجاوز الحدود المنطقية إلى الاستخفاف والتطرف والتنكيـل ، بينما أصرت الجماهير على مواصلتهـا بكـل تصميـم وتحـدي مهمـا كلفها الأمر من عناء ودفع ثمن باهظ قد يصل الى الموت أحياناً سـواء في الحقب التاريخية الغابرة ، أو التفنن في الملاحقة والتضييق والضغـوط في الظروف المعاصرة ولا أتصور أن المسألة تتعلق بذرف الدمـوع ، أو إشعال الحزن، أو مظاهر العزاء الأخرى على ثائر قتـل ظلمـاً وعدوانـاً قبل أكثر من أربعة عشر قرناً حتـى تتجـرع الجمـاهير صنـوف الأذى

وأنواع التنكيل بصبر وتضحية ، وانما أصبحت هذه المظاهر نوعاً من التحدي العقائدي ، وأثبات وجود شرعي ، وتثبيت لحقائق دينية يكاد يمسخها الباطل ، وتحاول قوى الردّة الجاهلية طمسها وأخفاء معالمها ، وإلا فبأي شيء تفسر دفع وتشجيع وحث الأئمة الطاهرين لأتباعهم وشيعتهم لممارسة الشعائر مع احتمال الاعتقال والقتل المتوقع من العدو المتربص بهم الدوائر ؟

وقد أتفقت الكلمة على إحياء الذكرى ، وتعظيم الشعائر عن طريق مؤسسة المأتم الحسيني،وأختلفت أختلافاً أخذ صور العنف والتطرف في حالات كثيرة، في الوسائل الأخرى للشعائر الحسينية وخصوصاًالأعمال الأستعراضية التي تقوم بها مواكب اللطم والتطبير والسلاسل بين مؤيد ومعارض .

وقد بادر لفيف من علمائنا في ظروف مختلفة لطرح مقترحات، أو وضع بدائل ، أو على الأقل عمليات تهذيب وتنظيم وحذف الزوائد ، فجوبهوا بسيل من الرفض الجماهيري الغاضب ، المدعوم بالعواطف الجياشة ، والمستند إلى غطاء شرعي من المؤيدين ، بالإضافة إلى الشعور المتأجج بالحيف والظلم الذي لحق بأهل البيت عليهم السلام واتباعهم من قبل قوى الشر ، وعناصر الطغيان .

وقد انحرفت حتى بعض الطلائع الواعية من العلماء والمثقفين إلى تأييد التطرف في محاربة الشعائر بذريعة أن بعضها مخالف للشرع ، أو مثير للإحراج ، وسوء السمعة من قبل الأجانب !!

وليت شعري كم من الاستعراضات المماثلة والمناورات المشابهة في العروض العسكرية والرياضية والفنية وسائر الأنشطة الاجتماعية في المناسبات القومية والوطنية ، وكم نرى حلقات الذكر الراقص عند المتصوفة في أماكن العبادة ، وحلقات العرضة في التقاليد العربية عند سكان البوادي ، بل وحتى بعض الممارسات المخزية في المراقص والمحافل الخليعة التي تعرض الأجساد المكشوفة بحالة من العري الكامل أو تكاد ! ، وتقليد الصرعات الأوربية بمختلف أشكالها وجزئياتها ومفرداتها إلى غير ذلك من الممارسات العامة والتقاليد المنتشرة ، ترى لماذا ترمق هذه الأعمال بعين الانبهار والاعجاب والتقدم ، وتضفى عليها عناوين الفن والابداع والفلكلور الشعبي ، ولاتجد أحداً يهزء بصدور بارزة ، أو يسخر بافخاذ وأرداف عارية ، في الوقت الذي يحشد كل عبقرياته وآرائه التقدمية وينظر بعين التخلف والرجعية والاشمئزاز لبعض الطقوس والشعائر التي تمارسها طائفة كبرى من طوائف المسلمين ، يدفعها الولاء ويسوقها الحب ، ويحدوها التعلق المطلق بأهل البيت عليهم السلام .

إن هذا الرصيد الجماهيري الهائل للعقيدة لا يصنعه إلا الحسين، وهذا الزخم الشعبي المتدفق لايلتقي إلا بمدرسة كربلاء ، ولا يتكهرب الإ بقيم عاشوراء ، فكل ماعندنا هو من عاشوراء وكربلاء، وكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء ارتفع شعاراً مجلجلاً في كل أقطار الدنيا ، ونبراساً مضيئاً في عقول الأحرار وضمائر الشرفاء .

إن العمل الحسيني اخترق الحدود المصطنعة وعم الكرة الأرضية شرقاً وغرباً ، فأصبحت شعائر الحسين ومواكب عزاءه تطوف العواصم العالمية ، في شوارع لندن وساحاتها ، وفي مساجد أميركا وحسينياتها ، وفي أماكن تواجد الجاليات الإسلامية في برلين وباريس، وفي القارة الهندية والأسترالية والأفريقية، بل حتى في كوريا والفلبين ودول شرق آسيا، وأين ما اتجهت وقصدت في دول العالم وأقطار الدنيا فسوف ترى علم الحسين مرفوعاً مرفرفاً خفاقاً.

* * *

وبعد هذه الجولة السريعة ، وهذه الصورة الإجمالية عن مؤسسة الشعائر الحسينية نعرض لمشكلة دونها التاريخ حدثت بين سيدنا المترجم وبين الإمام المصلح السيد محسن الأمين العاملي ، وملخص المشكلة أن فتنة كبرى اشتعلت في العالم الشيعي ، وشطرته إلى شطرين متعادين متكارهين ، فخلّفت في كل نفس حقداً لم يزل

اثـره باقيـاً إلى هـذا اليـوم ، فلقـد قـام عـدد مـن علمـاء الشـيعة يعلـن استنكاره لما جرت العادة عليه في شـهر محرم مـن الضـرب بالسـيوف والسلاسل واللطم على الصدور ودق الطبول والصنوج وماشاكل(١)

بينما أعلن عـدد آخـر مـن العلمـاء رفضهـم لذلـك الاسـتنكار واسـتنكارهـم للفتـاوى الصـادرة بتحريـم الشـعائر ، وكـانت الشـرارة الأولى لهذه المعركة الحامية ، قدحها السـيد الأمـين في الفتـوى بحرمـة التمثيل واللطم والتطبير ونشر رسالة (التنزيـه لأعمـال الشـبية) وكـان ذلك بمثابة الاصطـدام بتيـار جمـاهيري عـارم يتزعمـه الخطيـب اللسـن المفـوّه السـيد صـالح الحلّـي ، وقـد اسـتند كـلا الفريقـين إلى فتــاوى شرعية، وتأييد من شخصيات لها ثقلها الديني والاجتمـاعي ، وتجـدر الإشارة إلى أن سماحة المجتهـد الأكـبر الإمـام المصلـح السـيد محسـن الأمين العاملي رضوان الله عليه وإن كان عالمـاً مجتهـداً ، الا انـه ليـس من مراجع التقليد العليا ، ولـم تثنى له وسادة الزعامة الدينيـة العامـة ، ولـم ترجع إليه الناس في أخذ الفتاوى الشرعية ، وإنمـا كـانت الزعامـة المطلقة والمنصب المتقدم للسيد أبي الحسن الأصفهاني ، ولذلك أعتمد السيد الأمين على فتواه ، واستند على دعمه الشرعي في تحريـم بعـض الأنشطة في الشعائر الحسينية .

---

(١) هكذا عرفتهم للخليلي ٢/٢٠ .

وهنا وقف السيد صالح يقارع على جبهتين :

جبهة المرجع الأعلى ، وجبهة المجتهد الأكبر ، وانّى لخطيب حسيني ان يرد على هذين العلمين والراد عليهما راد على الله ومن يطق أن يستمع النقد والتجريح لفتاوى شرعية صدرت من إمام المسلمين ، ومرجع التقليد مثلها كمثل المرسوم الجمهوري أو الملكي بإضافة القداسة الدينية والمسؤولية الشرعية ، وهل هناك وجه للمقارنة بين خطبة منبرية وفتوى دينية ؟

فالخطبة المنبرية مهما بلغت من الجد والوعي واللباقة والحماس فلا تتعدى أن تكون كلام (روزخون) ، انّى له أن يتحدى فتوى شرعية ثابتة ، يعتبر الجمهور العام نفسه مسؤولاً أمام الله عن الالتزام بها وتنفيذ أحكامها وعدم مخالفتها ، وليس الأمر كذلك عند خطيب المنبر الحسيني ، مهما كان له من رصيد في النفوس فيبقى رصيده غير رصيد المرجع الديني ، لأن ارتباط الجمهور بالمرجع ارتباط روحي ، بينما ارتباطه بالخطيب ارتباط عاطفي ، وبتعبير آخر : لو أمر المرجع بشيء والخطيب بخلافه فلمن تكون الطاعة والاستجابة ؟ لاشك أنها للمرجع دون الخطيب .

وهنا تكونت جبهتان متحاربتان الأولى : رفع لواءها السيد الأمين ، والثانية لواؤها بيد السيد الحلي ولكل منهما رواد وانصار

وأعوان ، فقد أصدر السيد أبو الحسن فتواه لصالح السيد الأمين ، وقابله المرجع الأعلى يومئذ الميرزا النائيني بفتوى مماثلة وتبعه آل كاشف الغطاء بفتاواهم لدعم ومساندة السيد الحلي ، واحتدم النزاع واشتد الصراع ، وحمي وطيس المعركة ، وتطاير شررها لأغلب المناطق الشيعية ، فانقسمت الشيعة إلى فريقين : أمويون وعلويين ، ففي النجف آل كاشف الغطاء والميرزا النائيني والشيخ مرتض آل يس والشيخ عبد الحسين الحلي وكبار العلماء ، وفي البصرة آل المظفر كالشيخ عبد المهدي والشيخ محمد حسن والشيخ محمد رضا المظفر ، وكل اولئك من الشخصيات اللامعة الهامة ، ثم في لبنان السيد عبد الحسين شرف الدين بصور والشيخ عبد الحسين صادق في النبطية ، وهؤلاء كلهم ضد السيد محسن الأمين في آرائه .

وكذلك وقف إلى جانب السيد الأمين قوم آخرون على رأسهم الإمام السيد أبو الحسن الأصفهاني بفتاويه ودافعت عنه بعض الشخصيات الأخرى كالشيخ عبد الكريم الجزائري ، والشيخ علي القمي والشيخ جعفر البديري (١) في النجف ، وفي خارج النجف كالبصرة مثلاً السيد مهدي القزويني ، وفي بغداد السيد هبة الدين الشهرستاني.

---

(١) الخليلي هكذا عرفتهم ٢٠٩/١ .

وقد تجاوز الصراع الحدود المألوفة إلى الخصومات العنيفة ، والمهاترات والضرب والاعتداء والاهانة ، وكان السيد الحلي يرفع عقيرته منادياً :

ياراكباً أما مررت بجلق

فابصق بوجه أمينها المتزندق

ويأتي السيد رضا الهندي فينادي :

ذرية الزهراء ان عددت

يوماً لتحصي الناس فيها الثنا

فلا تعدوا محسناً منهم

لأنها قد اسقطت محسنا (١)

ويصيح آخر :

ومامعول النجدي أدهى مصيبة

من القلم الجاري بمنع المآتم

وكان لواء المعركة بيد الخطيب الحلي وكان يهزه بعنف بوجوه خصومه .

ويبدو للمتتبع والمساير للأحداث أن عناصر شريرة كانت توجج نار الفتنة ، وتضرم أتون المعركة لمآرب في أنفسها ، بينما تقف

(١) ديوان السيد رضا /١٥٣ .

عناصر أخرى مكتوفة الأيدي موقف الحياد والتفرج وعدم التدخل لوضع حد للمأساة ، وتطويق الموقف المتفجر بين شخصيتين عملاقتين من شخصيات العلم والاصلاح وإذا مااستعرضنا شريط التاريخ نجد النفس الكبيرة والتعبير المهذب وشرف الخصومة والتقويم المنصف لشخصية السيد صالح على لسان السيد الأمين مما يدل على عدم وجود الغل والحقد في قلوب هذه الشخصيات العظيمة ، فقد نقل الخليلي في حديثه عن السيد الأمين أنه قال خلال حديثه عن حركته الإصلاحية : إن السيد صالح الحلي هو أحسن خطيب عرفته المنابر الحسينية ، وأنا أود أن نعد الخطباء على غراره ، إذا ماأردنا أن ننبه الناس ونوقظهم ، ونوجههم توجيهاً صحيحاً ، ثم أضاف قائلاً : أما موقفه ضد الحركة الإصلاحية ، وضدي أنا بالذات فله تفاسير خاصة لايجوز أن تصدني عن قول الحقيقة (١) .

ثم إذا تتبعنا الظروف المحيطة بفتوى السيد ابي الحسن في تحريم بعض الأنشطة الحسينية دعماً للسيد الأمين وفريقه نقف موقف الارتياب والتشكيك إذا علمنا أن أحد انسبائه وهو السيد مير علي(٢) كانت له اليد الطولى في استصدارها لدعم رفاقه الشباب المناوئين للحلي .

---

(١) هكذا عرفتهم ١/٢١٤ .

(٢) شعراء الغري للخاقاني ٤/٢٩٩ .

وهناك ملاحظة أخرى ذكرها الخليلي هذا نصها : وكان السبب الأكبر في كل ذلك هو العامليون أعني أهل جبل عامل الذين كانوا يسكنون النجف طلباً للعلم وكان معظمهم من مخالفي السيد محسن (١) .

وبرر العلاّمة السيد جواد المير سجادي سبط الامام السيد أبي الحسن بحديث له ذكره الأستاذ نور الدين الشاهرودي في كتابه الحسين والحسينيون هذا نصه : ان المرحوم الأصفهاني كان يهدف من وراء فتواه هذه حماية العالم الروحي الكبير في بلاد الشام السيد محسن العاملي ، وجعله في مأمن من اذى الناس الساخطين عليه ، ولولا هذه الفتوى لما كان قد سلم من نقمة وسخط الجماهير الغاضبة عليه ، خاصة وأنه أي السيد العاملي كان في طريقه من سوريا الى العراق وإيران في ذلك الوقت بالذات ، وقد نزل خلال زيارته لمدينة النجف الأشرف ضيفاً معززاً محترماً على السيد الأصفهاني الذي كان المرجع الديني المطاع من قبل الجميع ، ومن هنا لم يجرأ أحد على الإساءة للسيد العاملي (٢) .

ومع ملاحظة البيئة التي كان السيد الأمين يعيش في أوساطها

---

(١) الخليلي هكذا عرفتهم ١/ ٢١٠

(٢) الحسين والحسينيون /٥٦

عندما أرسله الزعيم الديني الشيخ محمد طه نجف ممثلاً دينياً في دمشق، لم تألف ولم تستسغ ولم تهضم هكذا لون من اقامة الشعائر والطقوس الدينية الغريبة على محيطها وأعرافها .

فمن مجمل هذه الملاحظات نقول رحم اللّه السيد الأمين والسيد الأصفهاني ، فلربما كان لهما مايبرر مواقفهما تجاه الشعائر ، وربما كانت لهما أعذارهما الشرعية التي لم نهتد لمعرفة أسرارها ، ولكن ذلك لايقتضي النقمة التاريخية ، والتعصب والصخب والأحكام الارتجالية ، على رموز الاصلاح ، ورجال العقيدة .

ولايغرب عن بالنا بعض الأحداث المماثلة ، واللقطات المعاصرة ، وربط الحاضر بالماضي عندما أجاب سماحة الفقيه الكبير العلاّمة السيد محمد حسين فضل اللّه على سؤال وجه إليه حول بعض الروايات المتعلقة بتاريخ الزهراء عليها السلام ، بأنه لم يحقق فيها وربما لا تصمد تلك الروايات أمام التحقيق العلمي ، وأنا أقف منها موقف المتحفظ ، ولااتفاعل معها رأينا كيف أن موجة من السخط والنقد والتطاول عمت الأوساط الدينية خاصة ونشطت حركة توزيع المنشورات والكتيبات والكاسيتات وكلها ضد السيد فضل اللّه ، وكأن الزهراء قد أسقطت الحسين كما أسقطت المحسن من قبل ..

ولولا حنكة السيد الحسني ومعالجته للأمر بحكمة ورويّة لأصبح أميناً ثانياً ومحسناً آخرا ، تلوكه الألسن وتهجوه القصائد ، فيثأر منه كل موتور ، وينتقم كل ذي مأرب بحجة الدفاع عن ظلامة الزهراء عليها السلام .

وهذا كله نتيجة الفوضى والتسيب والاختراق وعدم التورع والالتزام بشرف الخصومة وآدابها .

وقبل اقفال هذه الترجمة ، واغلاق ملف السيد الحلي ، وأنا على مشارف نهاية الحديث أودّ أن أشير إلى أن الخطابة الحسينية رسالة مقدسة والخطيب الحسيني بلا مواقف مبدئية ، خطيب تجاري لم يلتزم بشرف المهنة ، وقدسية العمل ولم يدفع الضريبة الشرعية للجاه العريض ، والتكريم الكبير ، والحصانة الدينية التي يتمتع بها تلقاء انتسابه لهذه الخدمة المقدسة .

إن الخطيب الرسالي هو رجل المبادئ ، وهو اللسان الناطق باسم عقيدته ، والمنبر المعبّر عن آلام أمته والوقوف إلى جانبها في الشدائد والمحن بما يمتلك من طاقة وقوة ووجاهة ونفوذ وإمكانيات مادية واجتماعية في سبيل عزتها ورفعتها وكرامتها ، وإلا سيكون مصداقاً لقول ذلك العبد المملوك الذي خاطب الحسين عندما أذن له بالانصراف ليلة عاشوراء قال :

سيدي أنا بالرخاء الحس قصاعكم وبالشدة أخذلكم ...

لقد تفتحت الجماهير ، واستيقظت من سباتها وانتبهت من غفلتها ، وأصبحت تتعامل بفهم ووعي وتقوّم بعدل وحق ، وتحدد شخصية الخطيب العبقري الأول الجدير بتكريم الأمة وتقدير التاريخ هو الذي يشاطر شعبه ومجتمعه وأبناء جلدته في السراء والضراء والشدة والرخاء ، فما كانت الأمة يوماً بحاجة إلى عناوين عريضة جوفاء ، وشخصيات متخاذلة مثبطة لعزائم الشرفاء المخلصين ، حفاظاً على أنانياتها ومصالحها الرخيصة .

ليس خطيباً رسالياً مسؤولاً جديراً باحترام الناس وتقديرهم من يلوذ بالصمت عند النكبة ، وبالفرار عند الوثبة ، وبالهروب عند الشدة ، ويترك أمته تنزف ألماً ومحنةً وإذلالاً ، فيتفرج على آلامها ، ويرقص على جراحها ، متعللاً بأعذار هي أوهى من بيت العنكبوت، ومتشدقاً بتبريرات الجبن والخيانة للرسالة المقدسة التي يحملها في عنقه، والمضطلع بأعبائها ومسؤوليتها الخطيرة .

إن هذه الطبول المهزومة ، والبالونات المتخاذلة التي تسلقت إلى راية الدين فحملتها بكف وهزتها بأخرى بوجه الدين نفسه ، سوف تلفظهم الأمة وينبذهم التاريخ ويحاسبهم حساباً عسيرا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد مرت على أمتنا الإسلامية ، وشعبنا العراقي خاصة أعتى الظروف ، وأشد الأزمات ، وأعظم النكبات سواء أكانت ظروف الحرب ، أوتدمير الشعب الكامل إذلالاً وجوعاً ومهانة ، أو في ظروف الهجرة ومعاناة الغربة خارج الوطن المنحور ، لم نسمع لأولئك العباقرة وذوي الأصوات المسموعة صوتاً واحداً ، أو خطبة واحدة لها وقعها وأثرها في الصبر والمقاومة والثبات وتطييب الخواطر المنكسرة والأمل بنصر اللّه والفرج القريب .

ولم نلمس من هذه الأرقام المذهبة أي رعاية عملية حقيقية للبائسين والمسحوقين لحفظ كرامتهم وماء وجوههم ، كل ذلك تمسكاً بالحياة وحرصاً على الدنيا ورعاية للمنافع والممتلكات الزائلة .

لقد كان فيلسوف الخطباء الإيرانيين عملاق المنبر الحسيني الشيخ الفلسفي ، في قلب الجماهير الإيرانية الزاحفة على عرش الطاووس يوم محنتها وانتصارها ، لم يتخلف عنهم ولم يبخل عليهم بكل ما يمتلك من طاقة وقوّة ، يشدّ على أيديهم ، ويضمد جراحهم، ويشحذ هممهم بصدق وإخلاص .

لقد وقف إخوتنا وزملاؤنا وأساتذتنا الخطباء العراقيون وقفة الأسود في خطبهم النارية ، إبّان الانتفاضة على الطاغوت وهذا ماتشهد به المجالس الجماهيرية في الخليج وغير الخليج ، والإذاعات

العربية في إيرن وغيرها كالخطب المدوية لأعلام الخطباء كالشيخ المهاجر ، والشيخ المالكي ، والشيخ الشاهرودي ، والأستاذ الهلالي ، والشيخ الصيمري والشيخ المقدسي ، والشيخ الكندي ، والسيد الأغائي ، والسيد القزويني ، والسيد الفالي ، والشيخ الفقيه ، وغير هؤلاء ممن لم يحضرني أسماؤهم الآن ، وهناك صنف من الخطباء تعاملوا مع شعبهم ميدانياً وقيادة في التحدي والمواجهة ثم خلّفوا كل غال ونفيس وهاجروا بعقيدتهم ، وفروا بدينهم وأرواحهم كالشيخ الصمياني والسيد أبوشامة والخويلدي والنصراوي وإضرابهم، ومنهم من لم يزل يعاني ظلمات السجون وإرهاب الجلادين كالأستاذ المجاهد السيد جواد شبر، والخطيب اللامع المأسوف على شبابه الزميل السيد عبدالرزاق القاموسي وغيرهما فرج الله عنهم. فأين الواجهات العظام والعناوين الضخام والمتاجرين بمحنتنا ونكبتنا.

ولنا في حياة السيد الحلي إمام الخطابة صورة حيّة للجرأة والجهاد والمواقف المبدئية المقدسة كلما تعرض للنفي والإبعاد ، والصلابة والثقة المطلقة والمضي قدماً أمام الحملات المسعورة التي تحاول يائسة النيل من شخصيته وكرامته .

وهكذا كانت سيرته وتاريخ حياته سلسلة من المواقف والمفاخر حتى زفّ إلى الفردوس الأعلى مخلداً فيها بجوار أبي الضيم وسيد الأحرار الحسين بن علي عليهما السلام .

وفاته ومرقده وتأبينه :

٥ بعد رحلة العمر التي استغرقت سبعين عاماً ، أسس فيها السيد الصالح مجداً شامخاً ، وشيّد تاريخاً باذخاً ، وسجل صفحة في سجل الخلود ، ثم رحل إلى رضوان اللّه ورقد في روضة خالدة ، بعد صراع مع المرض ألزمه الفراش عشرة شهور في داره بجسر الكوفة ، فحمل جثمانه على الرؤوس إجلالاً وتعظيماً في آخر شهر شوّال من عام ١٣٥٩ هـ إلى مثواه الأخير في مقام المهدي بوادي السلام في النجف الأشرف تنفيذاً لوصيته .

وانطوت بموته صفحة من صفحات العلم والفصاحة والجهاد، وسكت لسانه الهادر وتوقف جنانه النابض ، وبقي منبره خالياً ، ومكانه موحشاً .

وقام العلاّمة الكبير الشيخ عبد المهدي مطر ينعاه بأسف وحرقةٍ في مجلس تأبينه :

نعتـــك الخطابـة والمنـــــبر

ونـــاح لـــك الطـــرس والمزبـــر

وهزّنعيـــّك قلـــــب الحطيم

فـــأعولك الركـــن والمشـــعر

وفيـــك انطـــوت صفحة للبيان

بغـــير لســـانك لا تنشـــر

ومات بمـوتك جـــــمٌّ غفير

وفيـــك انطـــوى عـــالم أكـــبر

فما روضة الفضل في زهــــوة

ومنهـــا ذوى غصنهـــا المثمـــر

ولاغابة الأسد في نجـــــوة

وفيهـــا تـــرى ليثهـــا القســـور

فكنت كمدرسة في الوجـــود

تغـــذي النفـــوس بمـــا يبهـــرُ

إلى أن يقول :

ويوم استســاغ هبات العـــراق

وســاومهـــا الـذلّ مستعمـــر

فهد المشـــاعر منـك الأبــــــــاء

وتيــه العروبـــة والمفخــــر

فرحـــــت تكشــــف ما خـبأوا

مـــن الغــدر ســيفاً ومــــاأضمروا

وكنت على رغمهم ثـــابتـــاً

وإن أبعـــــدوك وإن ســــــفرّوا

قعدت ولم تخش مكر الزمـــان

عليـــك ومـــاقدر مـــا يمكــــر

تذب عن الوطن المســــتظـــام

كمــا ذبَّ عـــن غابـــة قســـور

وقلتَ اخسئوا إن تهيجوا العـــراق

يهيـــجُ بكـــم يومـــه الأحمـــرُ

ثم يقول :

وأم الكبائـــــر ما لفقـــّوا

عليـــك افـــتراءً ومـــا صـــوروا

وأنت نزيه نقي الضميــــــــر

كمــــاء الســـحابة إن يمطـــر

وقاستك في مثلهـــــا أعــــين

لديهـــا اســـتوى الفحــــم والجوهـــر

ثم تسابق الخطباء والشعراء إلى المنصة في محافل تأبينه ومجالس فاتحته ، وخصوصاً في المأتم المهيب الذي عقدته جمعية الخطباء وفاءاً وعرفاناً لفقد عميدها ورحيل سيدها فأبنه الخطيب الكبير الشيخ جواد قسام بقصيدة عامرة قال في مطلعها:

باتت لفقـــــدك تندب الأعـــــواد

وأصيـــب فيـــك الوعـــظ والإرشـــاد

قد كنت نوراً للشـــريعة ســـــاطعاً

كيـــف اعـــتراه مـــن الـــردى إخمـــاد

أوقفت نفسك للصلاح مجاهـــــداً

وكـــذا حيـــاة المصلحـــين جهـــاد

ثم ارتجل أبو الشهداء العلاّمة الخطيب السيد حسن القبانجي كلمة مفعمة باللوعة والأسف ، أعقبه الخطيب المرحوم الشيخ مسلم الجابري بكلمة قيمة نشرتها مجلة الغري ، وقام من بعده الخطيب الجريء المرحوم السيد حسن الشخص يؤبن أستاذه بكلمة هادرة تفيض دمعاً وحزناً .

فإلى جنة الفردوس ، وفي ذمة الخلود ، ومع الحسين ورفاق الحسين وحسن أولئك رفيقا .

OOOOOOOOOOOOOO
OOOOOOO

مصادر الدراسة

١ - أدب الطف للسيد جواد شبر .

٢ - ديوان السيد حيدر الحلي .

٣ - ديوان السيد جعفر الحلي .

٤ - ديوان السيد رضا الهندي .

٥ - ثورة الحسين في الوجدان الشعبي لشمس الدين .

٦ - خطباء المنبر الحسيني للمرجاني .

٧ - الحسين والحسينيون للشاهرودي .

٨ - روح التشيع لعبد الله نعمة .

٩ - شعراء الغري لعلي الخاقاني .

١٠ - شعراء الحسين للايرواني .

١١ - هكذا عرفتهم للخليلي .

١٢ - موسوعة النجف الأشرف للدجيلي .

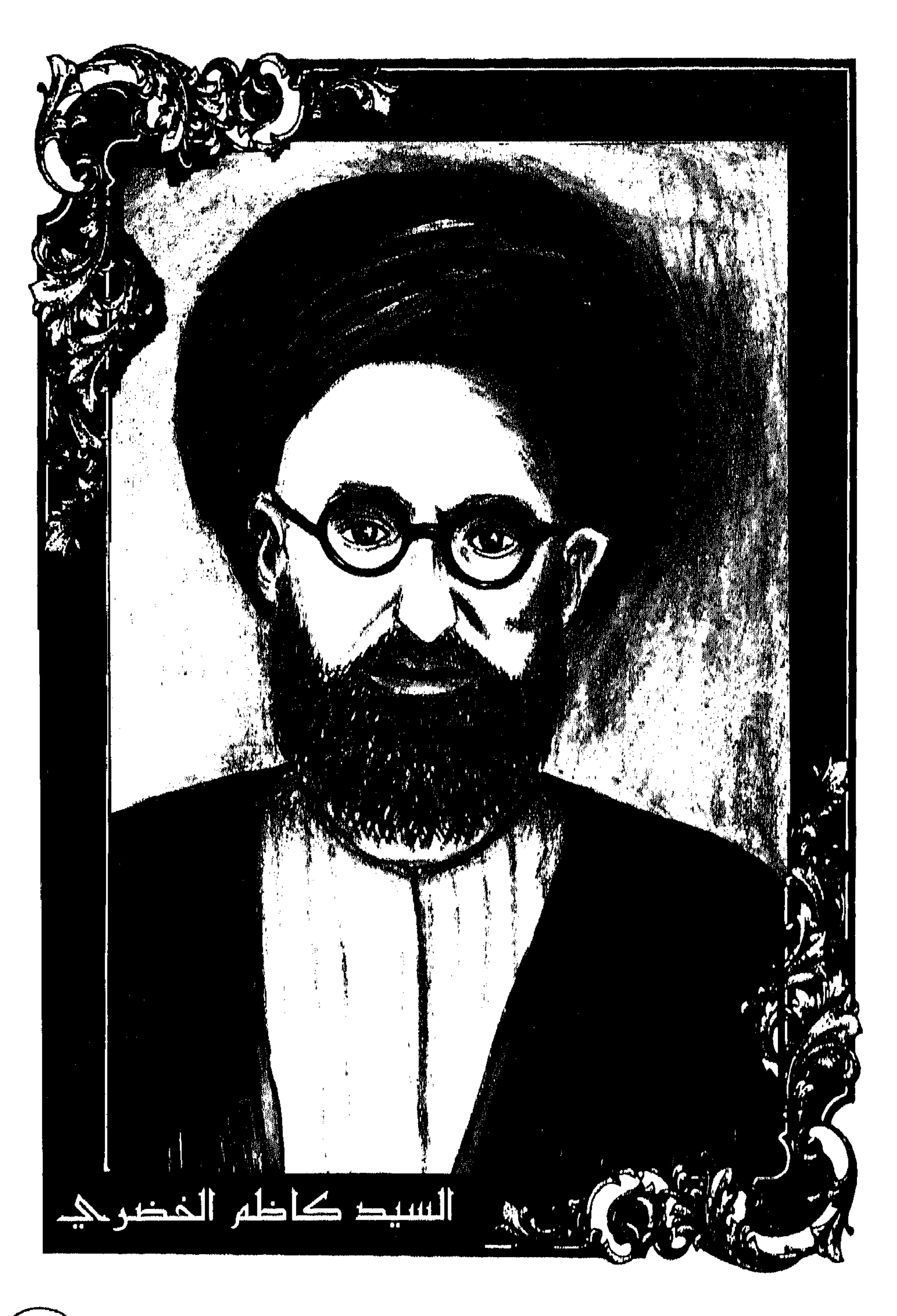
١٣ - ماضي النجف وحاضرها لمحبوبة .

١٤ - مجلة رسالة الحسين .

١٥ - مجلة الموسم .

١٦ - من لايحضره الخطيب للمؤلف .

١٧ - معجم رجال الفكر للأميني .


السيد كاظم الخضري





السيد كاظم الخضري

٥ من اساطين المنبر الحسينى، وجهابذة الخطباء الكبار السيد كاظم بن السيد على بن السيد حمود بن السيد نوح بن السيد ناصر الحسينى نسبا الخضري موطنا الخطيب مهنة وعملاً .

٥ لم ادركه، ولم اعاصره، ولم استمع إلى مجالسه وتوجيهاته ولا حتى عن طريق التسجيل، حيث ندرة اجهزة التسجيل بذلك الوقت ان لم يكن انعدامها، وعدم اهتمام ذوي الشأن بالاحتفاظ بهذه المقالع الثرة ، والاعتناء بهذا التراث العظيم .

٥ فبإمكان الباحث أو الدارس في المجالات الاخرى ان يجد المزيد من الوثائق سواء منها المقروءة أو المسموعة أو حتى المرئية القديمة كالاشرطة المسجلة والمتلفزة وكالمجلات والدوريات المصورة التي ترسم صوراً واضحة عن شخصيات ونماذج قديمة ربما لايشكل بعضها شيئاً تجاه حملة الفكر ودعاة المبدأ، كالتسجيلات والوثائق القديمة لبعض أبطال الرياضة و الملاكمة ولاعبي كرة القدم والمطربين

والممثلين وغيرهم، ومع كامل الاحترام لهذه الأنشطة والممارسات الاجتماعية، الا أننا نلقي باللائمة على من لم يلتفت عبر العصور المختلفة إلى الإحتفاظ بثروات هائلة على صعيد أساطين الفقهاء في بحوثهم العلمية وجهابذة العلماء في مقرراتهم ومحاضراتهم، وأساتذة الخطباء في مجالسهم وتوجيهاتهم ، وعمالقة الادباء في أشعارهم وانتاجاتهم الأدبية.

٥ ولايخفى مابذلك من سلبية وتحجيم لعطاء هؤلاء العمالقة واقتصاره على مجتمعهم وتقييده بحدود العصر الذي يعيشون فيه وبذلك حرمان الأجيال المتلاحقة من الاستفادة من هذه الخبرات، والتزود من هذه المنابع الغنية والطاقات العالية .

٥ فلو استقرأنا كل الأراشيف في حوزاتنا ، والخزانات في مكتباتنا لما وجدنا شريطا سينمائياً أو تسجيلاً صوتياً واحداً لاكابر العلماء وأعاظم الخطباء حتى المتأخرين الذين عاصرناهم في زمن وفرة الاجهزة الكترونية بكل أشكالها فمن المستحيل ان نجد شريطا مسجلا لبحث من بحوث المرجع الأكبر السيد أبو الحسن الاصفهاني، أو المرجع الراحل السيد محسن الحكيم بل وحتى المرجع الشهيد الصدر ، ثم من المتعذر والمستحيل أيضا أن تجد تسجيلاً صوتياً أو مرئياً لسيد

الخطباء السيد صالح الحلي ، أو لشيخ الخطباء الشيخ محمد علي اليعقوبي أو غيرهما من الجيل الذي تقدمناه

ه ومما يذكر في هذا الصدد ماحرره السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب في مذكراته عن أستاذه الأكبر الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وما كتبه لسيادة الدكتور الأستاذ حسن علي عباس لرفده وتزويده بمعلوماته وذكرياته عن الإمام كاشف الغطاء باعتباره تلميذه المبرز ليستعين بها في إعداد رسالة الدكتوراه التي خصصها في الامام كاشف الغطاء ، وقد راسل الأستاذ حسن المرحوم السيد بهذا الخصوص وأطلعني السيد في حينها على الرسالة وبعض إجاباتها ثم نشرت بعد وفاته في مجلة الموسم .

ه فمن جملة اللقطات التي ألمح إليها سيدنا الفقيد هي الخطبة النارية الغراء التي خطبها الإمام كاشف الغطاء في القدس الشريف والتي تعتبر من أهم الوثائق التي تدل على وقوف علماء الشيعة في خندق واحد مع أشقائهم للدفاع عن حقوقهم المغتصبة وأراضيهم السليبة في فلسطين ، وذكر السيد الفقيد عن العلاّمة الشيخ قاسم محي الدين قوله :

ه لما دعي الشيخ للمشاركة في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس ، عارض ذلك كثير من العلماء وأهل الحل والعقد من زعماء

الشيعة لأن الشيخ هو الوحيد من علماء الأمامية الذي يحضر المؤتمر في مقابل المئات من علماء المذاهب الأخرى من مختلف الأقطار ، ولعله لايستطيع أن يقوم بما ينبغي ، وفي فشله فشل الطائفة بأسرها ، ولكن الشيخ أصرّ على السفر وحضور المؤتمر ، وارتجل تلك الخطبة الغراء حتى إن من كان دورهم بعده امتنعوا عن التقدم لمنصة الخطابة خشية الفشل لأن الشيخ في خطبته بذّ من تقدم قبله وخاف الإنكسار من تأخر عنه .

٥ وكان من المقرر أن يؤم المسلمين السيد أمين الحسيني مفتي فلسطين يومئذ ، ولكن السيد الأمين أبى أن يتقدم على الشيخ في الصلاة ، فقدمه وصلى خلفه مايناهز الخمسين ألف من علماء المذاهب الإسلامية الأخرى وغيرهم من سائر المسلمين .

٥ ويتحدث السيد بأسف بالغ عن عدم وجود هذه الخطبة حتى في مكتبة الشيخ نفسه في النجف الأشرف برغم أنها طبعت في كرّاس وقد بذل السيد رحمه الله جهوداً في العثور عليها في المكتبة الظاهرية بدمشق في الملفات الخاصة بالشؤون الفلسطينية فلم يظفر بشيء ، وبحث عنها في المجمع العلمي وغيره من المظان الأخرى فلم يفلح في العثور عليها ، وكذلك يتحدث السيد عن خطبة أخرى أرتجلها الشيخ في مسجد الكوفة استمرت عدة ساعات ، وخطب مماثلة في النجف

والبصرة والناصرية والحلّة ، ثم يبدي أسفه لعدم وجود الأهتمام بتسجيل هذه الخطب بأجهزة التسجيل المتوفرة يومذاك .

٥ وأذكر أنني في نهاية الستينات وفي بداية مجيء العفالقه إلى الحكم حضرت خطبة هامة ارتجلها العلاّمة الشهيد السيد مهدي الحكيم في الصحن الحيدري الشريف ، وكان غاصاً بالأمواج المتلاطمة من البشر ، وقد هزَّ السيد الحكيم بذلك الخطاب الثوري كيان السلطة الحاكمة مطالباً أياها بحقوق الشعب المشروعة وحرّية معتقداته ، وحماية العتبات المقدسة ، والكف عن ملاحقة الناس ، وممارسة الضغوط عليهم وخاصة في شعائرهم وقد بادرت يومئذ لتسجيل تلك الخطبة التاريخية على شريط كاسيت بجهاز تسجيل أقتنيته من الكويت عندما قرأت فيها بنفس العام ، وقد استعار مني ذلك الشريط المسجل سماحة الشيخ مهدي العطّار حفظه الله ، وكان أستاذي في درس الفقه الإسلامي بكتاب شرائع الإسلام في مكتبة العلمين بمسجد الشيخ الطوسي ، ولاأدري أين مصير الشريط اليوم ؟.

٥ ولو كان محفوظاً لكان من أهم الوثائق التي تتعلق بسيرة السيد الشهيد الحكيم وتاريخ جهاده ومواقفه الجريئة ، وأوليات الحركة الإسلامية في العراق .

٥ وفي عقيدتي أن عدم وجود هذا الجناح المهم في التوثيق وحفظ التراث لاعاظم الشخصيات يعود لعدة عوامل :

الأول : يتعلق بالظروف السياسية الضاغطة التي تتعامل معنا تاريخياً بمنطق القمع والإرهاب .

الثاني : إنعدام المؤسسات الإستراتيجية التي تقوم بدور الأعلام وحفظ التراث من الضياع عبر القنوات المختلفة في دوائر المرجعية العليا .

الثالث : عدم وجود الانفتاح بين أجهزة الدولة الإعلامية وطاقاتها الكبيرة في الإذاعة والتلفزيون ، وبين الطاقات الضخمة لرجالاتنا وشخصياتنا العملاقة ، فترى التحقيقات والمقابلات والحوارات قائمة على قدم وساق مع الفنانين والمطربين والرياضيين نساءاً ورجالاً ولحد الأشباع والتخمة ، بينما لاتجد لقاءاً أو حواراً أو محاضرة بشكل منتظم لعالم من علمائنا أو خطيب من خطبائنا الا على سبيل الشذوذ والاستثناء .

ولعل من أبلغ الشواهد على ذلك ماذكره الأستاذ علي أحمد البغلي وزير النفط الكويتي السابق وعضو مجلس الأمة في مقال له نشرته الصحافة الكويتية بتاريخ

١١/٩/١٩٩٢ تحت عنوان (عبقريات إعلامية) على أثر وفاة الزعيم الإسلامي الكبير السيد الخوئي طاب ثراه ، وأنهم أتصلوا بالإذاعة وبوزارة الإعلام لإذاعة النبأ تأسياً بالإذاعات الأخرى ، فكان الرد : وهل أن الخوئي كويتي حتى نعلن نبأ وفاته ؟! فكانت الإجابة المسددة إذاً هل أن عبد الحليم حافظ كويتي حتى قطعتم البرامج المعتادة وتوقفتم عن البث وأعلنتم نبأ وفاته !!؟؟ (١) .

الرابع : هناك عامل آخر وهو أن الكثير من شخصياتنا الدينية بعيدون كل البعد عن الأضواء والشهرة والتهالك على زخارف الدنيا فانهم يعيشون حياة بسيطة متواضعة برغم الملكات العالية ، وأما شريحة الخطباء فإلى وقت متأخر كنا نرى كيف أنهم يغضبون أشد الغضب إذا رأوا مسجلاً بيد أحد المستمعين ويمنعونه علناً عن التسجيل بمرأى من الناس ومسمع ، وربما تتدخل

(١) مجلّة الموسم عدد ١٧ لسنة ١٩٩٤ .

عوامل أخرى في هذا المنع غير الذي ذكرنا من رقابة التسجيل واحصاء الهفوات وقلة البضاعة وتكرار المحاضرات ، إلى أن تغيرت الدنيا وانتشرت التقنيات الحديثة ، ودخلت التكنولوجيا في كل مجال ، أصبحت الأجنحة المستقلة في كل مؤسساتنا للتسجيلات بمختلف أشكالها ، وبإداراتها الكفوة ، وأجهزتها العملاقة وانتشارها المنتظم مسايراً للحياه الحديثة المتطورة المعاصرة .

والخلاصة : إن سيدنا المترجم لانملك لمحاضراته تسجيلاً يعطينا فكرة متكاملة عن قابلياته العلمية أو كفاءته الخطابية ، غير أني سمعت الكثير عن شخصية السيد كاظم الحسيني منذ عهد الطفولة المبكرة ، فقد كان أسمه يتردد في أوساط بيئتنا مقروناً بالهيبة والإجلال والتقدير ، وكان ذكره لايبرح ألسنة الجيل الذي سبقنا من أهلنا وشخصياتنا في مدينة الخضر ، وحتى أني أدركت أحد الأخيار من الشيبة وهو الشيخ علي صفر كان يجهر بصوت عال طالباً من الجميع قراءة سورة الفاتحة على روح السيد كاظم كلما عقد مجلس للحسين في أي مكان وزمان اعتزازاً وتقديراً ووفاءاً .

٥ وأما تلميذه البار وقرّة عينه وابن عمه المرحوم الفقيد السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب فلا تكاد تخلو أحاديثه ومجالسه وشواهده من ذكر (السيد) حتى أصبح مصطلحاً إذا أطلق ولم يقيد فالمقصود به السيد كاظم كما أعتاد الفقهاء أن يطلقوا (الشيخ) على الشيخ الطوسي ، و(السيد) على السيد المرتضى .

٥ أجل كان يثني عليه غاية الثناء ، ويطري شخصيته بإكبار واعتزاز ويستشهد بأحاديثه ومشاهداته ووقائعه بتأثر بالغ نظراً للملازمة الطويلة والأنصهار في شخصيته ، وسمعته يقول :

حصل خلاف - ذات يوم - في مسألة لغوية بين المرحوم الشيخ أسد حيدر وجماعة من العلماء واحتدم النقاش مابينهم فانبرى الشيخ أسد قائلاً سمعت ذلك من خالي السيد كاظم وهو لايخطأ في ضبط الكلمات يقول ذلك بثقة وبصيرة وتحدي .

٥ لقد كان السيد المترجم قوي الحجة واسع المعرفة دقيق الملاحظة كما كان من ناحية أخرى حسوراً جريئاً مهيب الطلعة عزيز النفس موفور الكرامة ، ومن شواهد هذا الباب ماذكره السيد عبد الزهراء رحمه الله أنه قصد عائداً أحد المرضى من معارفه ، فلم يقم المريض احتفاءاً به واستقبالاً له ، واكتفى بالسلام عليه وهو على فراشه ، فالتمس له السيد أسباب العذر باعتباره مريضاً لاطاقة له على

القيام والمجاملة وبينما السيد في زيارته وحديثه معه إذ دخل عليه أحد موظفي الدولة ، فانتفض المريض من فراشه مرحباً ومستقبلاً ، فما كان من السيد الا أن وقف على قدميه وخاطبه بلهجة غاضبة قائلاً تعساً لأمك عذرتك لمرضك ، أما أن تقوم لهذا فهل هو أشرف مني ؟! وتركه وخرج .

٥ وكان قوي الحافظة متفتح الذهن ، متوقد الذكاء ، شديد التتبع ، ولما كفّ بصره في أيامه الأخيرة كان يستعين في مطالعاته وقراآته بمجموعة من الشباب المثقف وخصوصاً الأستاذ دايم الثويني الذي يجيد أكثر من لغة كالإنكليزية والفرنسية بالإضافة إلى لغته العربية ، فإذا ماانتهى وقت المطالعة وحان الموعد الثاني لها يتذكر بكل نباهة ويقظة موضوع المطالعة ، ورقم الصفحة التي انتهوا عندها بل وحتى السطر الذي توقفوا عنده في قراءتهم السابقة .

٥ حدثني السيد جعفر الحسيني أن أخي السيد جبار سأل المرحوم والده بحضوره : لوأردنا أن نقسّم المقدرة الخطابية والإحاطة بفنون المنبر على مراحل ودرجات فأين نضع السيد كاظم من اليعقوبي المعروف بشيخ الخطباء بذلك الوقت ، فأجاب السيد إن السيد كاظم أرفع درجة وأعلى مكانة من اليعقوبي لولا أن الأخير

أنطلق من النجف وأشتهر باشتهار أسمها ، وبقي السيد محجماً في الخضر بعيدا عن ، الأضواء والشهرة .

٥ تتلمذ على يديه ثلة من أعاظم الخطباء وفي مقدمتهم سيدنا الفقيد السعيد السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب ، والخطيب البارع السيد طاهر السيد حسن ملحم .

٥ وحدثني والدي أنه كان يصطحب السيد المترجم في مجالسه السنوية بمناسبة شهر محرم إلى الناصرية ويقيم معه ، ويقرأ مقدمة أمامه وكان كثير التحدث عن مكارم أخلاقه ، وأنه كان يؤثره على نفسه لاسيما وأن الزمن كان زمن قحط وجوع ، وماذلك الا لسمو نفسه وطيب معدنه وتفقده لارحامه ، حيث تربطنا به قرابة قريبة مباشرة عن طريق أمهات آبائنا فهو وأبي ولدا خالة من أختين شقيقتين خالصتين ومن نفس هذا المصدر تنبثق قرابتنا مع السيد عبد الزهراء والسيد طاهر والشيخ طالب حيدر والشيخ أسد حيدر ، وكذلك الحاج مدلول والحاج فاخر وليد الطائي .

٥ وذكره الأخ الفاضل السيد محمد الحسيني في الملف الخاص عن السيرة الذاتية للسيد عبد الزهراء الذي نشرته مجلة الموسم في عددها العشرين لسنة ١٩٩٤ ، وأكتفى بذكر نسبه وماترجمه له السيد عبد

الزهراء في مصادره ، والشيخ الأميني في معجمه ، فأما السيد في المصادر فعرّفه بمايلي :

٥ هو أستاذي وابن عم والدي ، ولد في سنة ١٣٠٦ هـ في ضاحية من ضواحي الناصرية حيث كان أبوه مزارعاً هناك ، ونشأ نشأة تلوح منها علائم النبوغ ، وأمارات العبقرية ، وتفرس فيه ذلك صهره العلامة الشيخ محمد حيدر رحمه الله فحثّه على طلب العلم ، فهاجر إلى النجف الأشرف سنة ١٣٢٠ هـ وجّد في الطلب ، وثابر على التحصيل ، وامتهن الخطابة ، وبرع فيها حتى صار موضع إعجاب المستمعين على أختلاف أذواقهم لغزارة علمه ووفرة أطلاعه ، ومعرفته بحرمة المنبر ، وتحسسه بأدواء المجتمع ، ومشاكل الناس ، ومهارته في وصف الأدوية الناجعة ، ووضع الحلول النافعة ، بالإضافة إلى عذوبة منطقه ، وجهورية صوته ، ورخامته ، ووقاره المتناهي ، وأتزانه المنقطع النظير ، حتى قال في حقه الإمام الفقيد كاشف الغطاء ، وكانت بينهما مودة أكيدة :

(قلّما رأيت مثله في صلابة إيمانه ، وتأثير موعظته) .

٥ توفي رحمه الله في الخامس عشر من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ وكان من يومه مشهوداً ودفن في النجف الأشرف .(١)

٥ وكذلك ذكره سيدنا الفقيد في تقديمه لكتاب من لايحضره الخطيب الجزء الثاني فقال :

ولايمكنني – عرفاناً للجميل – الا أن أذكر السيد كاظم الحسيني الخطيب رحمه الله ذلك الرجل الذي صحبته أكثر من عشر سنوات ، واستمعت اليه أكثر من عشرين سنة ومازلت أتذوق قرائته وكان يعرف للمنبر قدسيته وللمجالس حرمتها ، ومارقى المنبر جنباً طول حياته ، ومارقاه بلا وضوء قرابة الأربعين عاماً كما سمعته يذكر ذلك لبعض تلامذته ، ولذا صار موضع إعجاب السامعين لغزارة علمه ... الخ .

٥ ولو أردت أن أذكر محاسنه وعبادته وأذكاره لطال بي المسير ولكن أسجل واقعتين شاهدتهما بنفسي والله شاهد على ماأقول :

رأيته في ليلة عاشوراء جاء إلى أحد المجالس فلم يتخط عتبة الباب حتى أجهش الناس بالبكاء ، وأرتج المجلس بالنحيب فوصل

---

(١) مصادر نهج البلاغة واسانيده ، ٢١٧/١ .

المنبر وقد علت أصواتهم على صوته ، ولم يتمكن من اسماعهم لأنه لم تكن مكبرات للصوت يومئذ ولم يقرأ الا بيت واحد باللغة الدارجة ، ونزل عن المنبر واستمر الناس بالبكاء مدة من الزمن ليست بالقصيرة .

٥ ثم رأيته في أحد مجالسه في الناصرية ولاأنسى أنها كانت الليلة الحادية عشرة من المحرّم ، وهكذا ماج المجلس وهاج حتى رأيت رجلاً أغمي عليه من البكاء ، فحملوه إلى خارج المجلس ومأدري ماحدث له بعد ذلك (١) .

٥ وقال عنه الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني في معجم رجال الفكر والأدب : خطيب عالم جليل متكلّم فاضل ، مثال الورع والتقوى والصلاح ، كثير الدعاء والصلاة .

٥ تتلمذ على علماء عصره ، وكان شديد الأتصال بالشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، ووكيله في الخضر ، وكانت له معه مراسلات وقد احتفظ بكثير منها ابن عمه السيد عبد الزهراء الخطيب ، وعاد إلى بلدته (الخضر) وواصل التوجيه وكفّ بصره في السنين الأخيرة

---

(١) من لايحضره الخطيب ١٨/٢

ومات سنة ١٣٧٠ هـ وله : تبويب كشكول البهائي ومجاميع في مختلف المواضيع ١ - ٦ (١) .

وتحدث المرجاني عند عرض ترجمته فقال :

أما أسلوبه الخطابي فهو أسلوب منقطع النظير ، يثير إعجاب المستمع ويحوز استحسانه ، ويخلب لبه من أي الطبقات ، هو بلاغة في القول ، وفصاحة في اللهجة ، وحفظ للنصوص ، وشرح للمتون ، وضبط للأسماء ، وبيان للغريب ، وعناية بالوعظ والإرشاد ، فإذا أحسَّ من المستمع كلالا ، جاء بالنادرة اللطيفة ، والنكتة المضحكة ، مما يدخل في تلك الباب ويندرج تحتها ، حتى يعيد للمستمع نشاطه ، أضف إلى ذلك صوته الرقيق فالمترجم كان علماً من أعلام الخطابة ، وبطلاً من أبطال المنابر ، ورجلاً من رجال الإصلاح ، فكان كثيراً مايرقى الأعواد في بلاده وناصرية المنتفك ، والبصرة والمعقل وسوق الشيوخ وبعض المدن الإسلامية ، وكان كثير الإطلاع والمطالعة حتى أثّرت كثرة المطالعة في بصره فأخذ يتنازل تدريجيا حتى كفّ بصره تماما في سنة ١٣٦٦ هـ ، ولم يثن ذهاب بصره عن عزمه ولم يقصر

---

(١) معجم رجال الفكر (٢/٥٠٦)

من خطوه ، وكان على غاية من الذكاء وسرعة الحفظ (١) .

وإذا أردنا أن نلخص حياته في سطور فنقول أنه :

ولد في قرية من ضواحي الناصرية تدعى (أبو غريب) حيث كانت أسرته مقيمة هناك لظروف عملها ، وقد توفي أبوه بعد ولادته بستة أشهر فرجع أهله إلى موطنهم الأصلي في مدينة الخضر فنشأ في أحضان أخواله آل حيدر وأشرف على تربيته المرحوم الشيخ محمد حيدر والد الشيخ طالب والشيخ أسد حيدر .

تلقى تحصيله العلمي في الفقه والأصول والنحو والمنطق والعلوم الأخرى في النجف الأشرف ، وبعد إكمال الدراسة عاد إلى بلاده وأقام فيها خطيباً مفوهاً مصلحاً .

وفاته :

في الخامس عشر من شهر شعبان من سنة ١٣٧٠ هجرية وفد على ربّه، وحمل الى النجف الأشرف، وأوى إلى مثواه الأخير في مقبرة وادي السلام، وقد زرت قبره فيها بعد وقرأت اللوحة التي نحتت بإسمه وتاريخ وفاته، عندما دفنت والدي إلى جانب قبره سنة ١٩٧٠م.

(١) خطباء المنبر الحسيني الطبعة القديمة ج٣ ص٣٨ .

وبعد وفاته بثلاثة أشهر توفي ولده السيد علي الذي لم يعقب ولداً ذكراً غيره ووري الثرى بقربه أيضاً وأرخ وفاته الأديب المعروف الشيخ علي البازي رحمه الله :

منابر الحسين قد	بكت بدمع ساجم
فقد الخطيب البارع ال	ندب أبي المكارم
وسجلت تاريخه	برسم عبد الكاظم

٥ انحصرت ذريته في ولده المرحوم السيد علي الذي أنجب أربعة من خيرة الشبان وهم :

السيد حسين وقد امتهن الخطابة أخيراً بالإضافة إلى عمله الرسمي في دائرة البريد والبرق والهاتف ، والاستاذ السيد جابر المدرس في وزارة التربية .

والأستاذ السيد نعمة الذي غدرت به يد الطغيان فأودعته السجون الرهيبة ولايعرف مصيره إلى اليوم ، وأصغرهم السيد باقر وهو قمة في التهذيب والأخلاق العالية .

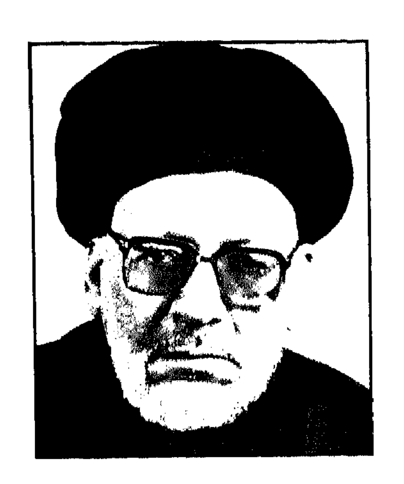
رحم الله السيد الخطيب وفرّج عن ذريته وأبناءه ، ووفقنا لاقتفاء أثره ، والاقتداء بسيرته على خط أهل البيت الطيّبين الطاهرين.

000000000000000
0000000




السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب





السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب

١٣٣٩ ـ ١٤١٤

في ترجمة السيد الحسيني، وفي عرض سيرته المباركة، ودراسة حياته الكريمة، أنحني أمام صرحه الشامخ هيبة وإجلالاً وتعظيماً وأسجّل اعترافي بقصور القلم العاجز عن تدوين ما يختلج في النفس، وتصوير ما يدور في الفكر من مشاعر الاعتزاز والعرفان، وأقف متهيباً خاشعاً في محراب التاريخ لأخوض في غمار شخصية اختزلت ثقلاً خطيراً في صناعة التاريخ وترقيم صفحاته وفهرسة مضامينه واستخراج مصادره، ثم تسنمت موقعاً متميزاً في نفوس الجمهور وقلوب المجتمع، واحتلّت مكانة هامة في الوجدان والضمائر الشريفة.

بيد أني أستميح «العزّ»[١] عذراً، وأستغفره سلفاً عن كلّ قصور أو تقصير قد بدر أو يبدر، وأستأذنه في قطف زهرة من حديقته الوارفة، واقتباس شعاع من سيرته الكريمة.

وفي مطلع الحديث لا يسعني إلا أن أجعل هذه الشخصية في

(١) مصطلح مختصر أول من أطلقه اختصاراً لاسم السيد عبد الزهراء هو الدكتور أسعد علي.

مصاف الشخصيات النادرة التي قلّما يجود بأمثالها الزمن، وأعتبرها نسخة مفردة في طهارة الضمير ومكارم الأخلاق وملتقى الفضائل لا تتكرر إلا قليلاً.

ولا بد لي من التدرج في سلّم الأيام الطويلة والتاريخ العريق ومراحل الحياة التي عايشته فيها عملاقاً عطوفاً، وأريحياً شريفاً، ورمزاً وعميداً لعزّتنا وهيبتنا، وسنداً وملاذاً لعوادي الزمن، وطوارق الأيام حتى تجرعنا مرارة فقده، واكتوينا بجمرة رحيله عظمت النكبة وفدحت الخسارة وجلّت المصيبة.

ولعل لوعة الذكريات التي سكبتها على صفحات مجلة الموسم في ملفّها الخاص عقب الخسارة الجسيمة بوفاته هي التلخيص الناطق لانطباعاتي وذكرياتي خلال أربعة عقود من الزمن تقريباً، وإليك النص الكامل:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليك يا سيد الخطباء، السلام عليك يا عزّ العلماء، السلام عليك يا فخر المحققين والباحثين، السلام عليك يا فقيد العلم والدين السلام عليك يا إمام المنبر والمحراب، السلام عليك يا سلالة السادة الأطياب قدس الله روحك، ونور الله ضريحك، طبت حياً وميتاً وطابت الأرض التي تضمنت جسدك وتشرفت بمرقدك أما الحزن عليك فسرمد، والليل لمصابك مسهد أشهد أنك كنت نوراً في قلوبنا، وضياءاً في عيوننا وخيمة لعزّنا، وتاجاً فوق رؤوسنا، وبلسماً لجراحنا فانطفأت بموتك شمعة العز، وانطوت برحيلك صفحة المجد، وهدّ ركن العقيدة، وزلزل كيان الإسلام سيطول ذكرنا لك وحزننا عليك وفجيعتنا بك، أصحيح غمضت عين المروءة وأطبق جفن الأريحية

وتوقف القلب الرؤوف الرحيم وخبت بسمة الثغر المهذب وضمَّ قبرك أيادي المعروف وأكف الندى، وأبلى التراب محياك الوقور وجبينك الشامخ؟

يا مالكاً نطقي عليَّ بموته ... أطلق لساني في رثاك متمتماً

ما كنت أرجو أن أكون مؤبّناً ... بل كنت أرجو أن أكون مكرماً

يا دهر حسبك واختتم بمصابه ... فلقد أصبت به الكمي المعلما

إن العواطف والزفرات والدموع التي نثرناها لفقدك لهي إكليل متواضع ننصبه على ضريحك الغالي ومرقدك المقدس.

ففي ذمة الله أيها الفقيد العظيم، وبعين الله ما عانيت وكابدت من ألم التشرد والغربة، وفي سبيل الله جهادك بقلمك ولسانك، فإلى جنة الخلد مع الأولياء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً، وروح وريحان يحفّان مرقدك الطاهر، فقد كنت في هذه الحياة الفانية سليم القلب عفيف اليد طاهر الضمير شريف النفس زكيّ السيرة لقد كنت ملتقى الفضائل ومجمع المحامد، جواداً سخياً وقلباً عامراً بالمروءة، وطوية ما انطوت إل على حبّ الخير وصنع الجميل.

إيهِ يا سليل الزهراء ما نسيناك ولن ننساك وهذا مكانك باقٍ بيننا ورسمك محفور في قلوبنا نحفظ لك طيب الحديث وجميل السيرة وعطف الأبوّة.

لقد لَجَّ بنَا الحزن وشرقنا بالدمع وبكينا خلقك العالي ونفسك الطاهرة التي لم تلوثها المغريات ولم تبدلها الحفاوة ولم تغيرها المكانة والمنزلة السامية والموقع الاجتماعي المميز، كلما ألحت عليك

المحن لم تجد منك إلا عملاقاً بجلد وشموخ وكلما ازدحمت عليك الخطوب، وتكاثرت عليك النوائب لم تجد منك إلا الموضع الصلب الذي يزداد ثقة وبطولة، ولا يعرف اليأس أو الإحباط إلى نفسه سبيلاً.

وكلما تظافرت عليك الأحقاد فكالت لك من الإساءة والانتهاك ما لو كان على جبل لتدكدك كلما أعطيتهم دروساً بليغة بالخلق العالي والتواضع الجم والضمير النقي والقلب الكبير، لذا خلّف رحيلك جمرة في قلوبنا وقرحة في عيوننا، لقد تجاوبت الأقطار عليك حزناً، وفاضت العيون عليك دمعاً، واحترقت القلوب عليك أسفاً.

لقد كان لك في الشام مأتم وفي الإمارات مأتم وفي البحرين مأتم وفي لندن مأتم وفي إيران مأتم وفي سائر الأقطار أقيمت مآتمك ومحافلك في أعماق القلوب، تمجّد ذكراك وتكرّم شخصك ويغمرها الأسى وتلذعها الحسرة وتستنزل الرحمات على روحك الطاهرة، وها أن الأيام تمر وذكراك وأصداؤك لم تنقطع كأنما دفنت في تلك القلوب التي أحبتك من الصميم وأعجبت بشخصك من الأعماق، كنا نؤمل فيك طول العمر ونفع الناس ونحن نعاني من ألم الغربة ونصارع شدة المحنة، لأن الزمان لا يجود بأمثالك دائماً إنه شحيح العطاء من طرازك وأمثالك يا سليل الحسين ويا عز الزهراء، لقد كنت مصدر عزنا ومنبع فخرنا ومحط آمالنا حتى اختطفتك المنية من بيننا واختارك الله إلى جنة الخلد وبقي محرابك خالياً مظلماً ومكانك موحشاً مكفهراً ومنبرك حزيناً باكياً تهدمت آمالنا وفدحت خسارتنا وجلّت مصيبتنا ولكن الموت المحتم الذي لا بد



من اليمين: السيد محمد حسين فضل الله، السيد المترجم، المؤلف، الشيخ السهلاني.



من اليمين: الحاج عبود الصائغ، الشيخ محمد علي زين الدين، السيد مضر الحلو، السيد محمد عبدالحكيم الصافي، الحاج حسين الشاكري، الدكتور السيد مصطفى جمال الدين، السيد المترجم، السيد طاهر الملحم، الشيخ ليث السهلاني، الجالسون: الأستاذ الطريحي صاحب الموسم، المؤلف، السيد محمد الحسيني.

لكل إنسان أن يتجرع مرارته، والنتيجة المؤلمة التي لا بد لكل إنسان أن ينتهي إليها، والحقيقة الموجعة التي لا بد لكل إنسان أن يصطدم بها:

الموت لا والد يُبقي ولا ولدا   هذا الطريق إلى أن لا تجد أحدا

فلو كانت الدنيا يدون بقاؤها   لكان رسول الله فيها مخلداً

إيهِ يا سليل الزهراء والحسين واحرّ قلبي عليك وا لهفَ نفسي لمصابك وا أسفي وحزني لفقدك ورحيلك.

سيدي يا حبيب القلوب وأنا أعيش غمرة مصابك وجمرة حزنك تعود بي الذكريات إلى عهد الطفولة ودور الصبا المبكر يوم فتحت عيني على الحياة تحت ظلّك الوارف، يوم كنت في أوج عطائك وفي قمة نشاطك وحيويتك، يوم كنّا نتسابق لخدمتك ونعتز بحضرتك ونلتف حولك ونتنقل في مجالسك ومحافلك في مدينتنا (الخضر) وخصوصاً في ليالي شهر رمضان المباركة، وإني لا أنسى ضوء وجهك وضياء يدك ينيران لنا ظلمة الأزقة والطرقات المؤدية لتلك المجالس، ولست أنسى مشهد النصف من شهر رمضان الكريم وأنت تعتلي صهوة الخطابة ومنبر المجد بولادة الإمام الحسن (ع) كريم أهل بيتك فتفيض أريحيتك ومكارمك المستمدة من مكارم أجدادك لتسعف المعوزين والمحتاجين دون منّ أو أذى، فتعلن أسماء المتبرعين اسماً اسماً عبر مكبرات الصوت لتخلق بذلك جوّاً من التسابق والتشجيع للبذل والعطاء والمعروف ثم تتسلسل مجالس الشهر الكريم وذكرياته الإسلامية وأحداثه التاريخية وتبرز من بينها ذكرى شهادة الإمام أمير المؤمنين (ع) فيرتدي مسجدك حلة الحزن ويتسربل لباس السواد وتبدو الكآبة على محياك الطاهر، ويلفّك الحزن والأسى بإبراده، ولا أنسى

استغاثتك الحزينة بصوتك المتهجد واعلياه فتضطرب حيطان المسجد ويكاد الصراخ والعويل أن يخترق السقف إلى عنان السماء، ويضجّ الجمع بالنحيب وتسيل العبرات أيّما مسيل ثم يعتلي المنبر من بعدك سيدي خادم الحسين الوالد المغفور له فينشد قصيدة في رثاء أمير المؤمنين (ع) تتجاوب معها جموع المؤمنين بالحب والولاء ويتفاعلون مع أبياتها ومقاطعها بالحزن وفداحة الخسارة بمصرع مفخرة الدنيا وفلتة الزمن الإمام أمير المؤمينن عليه السلام كل ذلك ماثل أمام ذاكرتي، كما يشع في مخيلتي شخصك المهيب، وطلعتك البهية، وقامتك المباركة، وأنت مع كوكبة مؤمنة من أتراب الصبا ورفاق الإيمان كأبي الباقر وأبي حسون وأبي عقيل وأبي صادق وغيرهم من صفوتك وحواريك، ورواد مجالسك، وتلامذة مدرستك وأنت توسعهم نبلاً، وتغمرهم لطفاً، وتلقنهم أسمى معاني الخلق الكريم، وتغرس في نفوسهم أعمق مشاعر الإيمان والاستقامة والشرف، وتربي في ضمائرهم وأحاسيسهم مسؤولية الذود عن العقيدة، والانصهار والذوبان في حب أهل البيت الطاهر (ع).

وما وقفتك المشهودة التي سجلها لك التاريخ بأحرف من بطولة وتقدير بوجه موجة الإلحاد التي اجتاحت بلدنا أيام المد الأحمر والصفوة المؤمنة والطليعة المجاهدة من ورائك إلا معلم بارز من معالم تاريخك الناصع وسجل حياتك المشرق.

كما لا تغيب عن ذاكرتي الآن مجالسك العامرة في شهر صفر الخير في بيوت أهلنا في الخضر كمجلس الحاج مطر ومجلـس آل حاج حسين ومجلس آل السيد جاسم، لست أنساك وأنت تصطحب معك ملازمك وأوراقك وبحوثك وتحقيقك في مصادر نهج البلاغة مكبّاً

على تأليفه وتنسيقه وتبويبه ريثما تتكامل جماهير مجلسك ورواد محاضرتك، حتى صاغت عبقريتك فصوله وتصدى يراعك الممشوق لإحباط كل المحاولات الخبيثة وإفشال النوايا الماكرة التي تحاول النيل من نهج البلاغة ومن جامعه السيد الشريف الرضي، وكنت بذلك الجناح الثاني الذي يحلّق به نهج البلاغة في سماء العظمة والإبداع والعبقرية فقد تصدى ابن أبي الحديد لشرحه وتسليط الأضواء التاريخية والفلسفية والأدبية على ما ورد في النهج من الخطب والكتب والحكم والرسائل وتصديت أنت لإرساء القواعد وتثبيت الجذور وترقيم الأصول والمصادر بما لا يدع مجالاً لهراء المستشرقين والحاقدين وأذنابهم ومحاولاتهم الفاشلة لتزييف نهج البلاغة.

فيا موسوعة التاريخ المتحرك ويا دائرة معارف النهج، ويا سيد المنبر والمحراب ويا شيخ المحققين والباحثين، ويا أيها المتضلّع في علوم آل محمد خسأ الموت أن ينال من خلودك أو يحد لك عمراً قصيراً.

فإنك حي في علي مخلد لأن علياً لا يحدّ له عمر

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا أهذا الكيان الضخم يجمعه قبر؟

واستعيد شريط الذكريات مرة أخرى إلى مجلس الخياطين في الخضر الذي كان يعقد في الشارع العام وكنت أنت بطل المنبر فيه وكان لي شرف القراءة أمامك للمرة الأولى في خدمتي المنبرية بذلك المجلس في ذكرى وفاة الإمام الحسن (ع)، ومن هذا التاريخ لقيت منك الرعاية والتشجيع، وتسلسلت ألطافك وتوجيهاتك في كل خطوات المنبر الشريفة، لقد تعلمت منك حرمة المنبر وشرف المهنة ومسؤولية الخطابة وقدسية الخدمة ثم غادرتنا إلى «بلد» مرجعاً دينياً وموجهاً ومربياً بتكليف من سيد الطائفة الإمام الراحل السيد



من اليمين: المحامي علي العطية ، الدكتور جمال الدين، السيد مهدي الحكيم، السيد المترجم، السيد بحر العلوم، المؤلف.



السيد المترجم، السيد علي مكي العاملي، الشيخ عبدالرحمن الخيرّ، السيد عامر الحلو، ماجد الدهان، الدكتور أبونبوغ.

محسن الحكيم، فكنا نتطلّع إلى ظهورك ونتوقع طلعتك ونترقب إطلالتك ونتلهف لرؤيتك، وكنت بين الفترة والأخرى تطل علينا كهلال العيد فنتسابق للصلاة خلفك والائتمام بك ونلتذ بالاستماع إلي حديثك ونشتاق بحرارة للقائك وتجديد العهد بك ثم تتالت الأيام ودارت عجلة الليالي وحالفني شرف التوفيق بالإنتساب لجامعة النجف الأشرف وحوزتها العلمية فكان دعمك المادي والمعنوي يلاحقني ولا ينقطع وعطفك الأبوي يغمرني ولا يقف عند حد، فما أسعدني في خدمتك ومرافقتك عندما تزور النجف الأشرف، وما أسعد قلبي في اصطحابك والتنقل معك في بيوت العلماء ومجالس المؤمنين وزيارة الأصدقاء والمعارف، والكل يتصور أني ولدك الصلبي، وطالما كنت تعبر عني عبر مخاطباتك ومراسلاتك التي أحتفظ بعدد غير قليل منها تستهلها وتستفتح مطلعها بتعبيرك العطوف ولدي، ذلك التعبير الذي أعتز به والذي يغمرني بلمسة الحنان والعطف التي افتقدتها في مطلع الصبا بوفاة والدي رحمه الله.

وبعد أن حلّت ظروف المحنة والغربة التي مزقت شملنا وأذلت عزيزنا وفرّقت جمعنا في مختلف الأقطار والأمصار فقذفتك سفينة الدهر إلى البحرين، وألقتني أمواجها إلى الكويت وكنا نتواصل ونلتقي وخصوصاً في عشرة محرم حيث التزامي بالقراءة هناك فأجدك أمامي أو زائراً بعد وصولي إلى بيت السيد الماجد وإذا لم يطرق سمعك علم بوصولي أبادر فوراً بلهفة لزيارتك وألثم أناملك الكريمة، ودارت عجلة الزمن دورة اخرى ونحن في خضمّ المعاناة والغربة والتشريد فلذنا في كنف ابنة الزهراء وآونيا إلى ظلال بطلة

كربلاء ورحابها الطاهرة فكنت الأب الغيور والمشفق العطوف والكهف الحصين الذي نلتجيء إليه إذا جارت الأيام وادلهمت الخطوب. لقد مرت علينا هذه السنين المجدبة والليالي العجاف وسحابة جودك ومعروفك تغمر القريب والبعيد فلا فرق عندك بين أبناءك وأصدقائك ومعارفك بل وكل من يحتاج رفدك ولو لم يكن من معارفك وأخصائك فالجميع عندك سواسية تتعامل مع الجميع بمقياس الإيمان والحاجة وميزان الثقة وبراءة الذمة، هدفك الأجر والثواب ورائدك الشرف وحفظ الكرامة، فكم من ملهوف أغثته وكم مكروب نفّست كربته وكم من طالب حاجة قضيت حاجته وكم من شريف متعفف أعنته سراً ولا يعلم بما صنعت معه إلا الله، لاتقصد من وراء ذلك جاهاً ولا تنتظر حمداً وتسبيحاً، لم يخالطك غرور التفضل ولم يخالجك شعور الاستعلاء وكنت بعطائك كجدك أمير المؤمنين الذي يوزع بيت المال على مستحقيه ثم يكنسه ويصلي ركعتين شكراً لله على توفيقه لأداء حقوق الناس. لقد كنت في الشام أباً لكل العراقيين وعماداً لعزهم وكرامتهم ومفزعاً للمحرومين والملهوفين.

حتى إذا وقع الاختيار عليك لتكون سيد المحراب بمسجد الإمام علي في دولة الإمارات العربية بدبي فكنت الإمام الناصح والثقة المطلق لمراجع الدين العليا فقمت بدورك ومسؤوليتك خير قيام ترشد الناس إلى طريق الحق وتهديهم إلى سبيل الهدى والرشاد وترد على أسئلتهم واستفساراتهم بجدارة ودراية وتحتضن الخطباء وتفيض عليهم من نمير علومك وبحر معارفك وإلى جانب مسؤولياتك لن تبارح قلمك وتحقيقك وبحوثك حتى وأنت على فراش المرض،

وهناك هجمت عليك العلة وازدحمت عليك الأمراض فألزمتك الفراش.

وهنا أتذكر لقطة عندما زرته عائداً في مشفى دبي ولما رمقني خلع خاتماً من يده الكريمة وقال ضعه بيدك ذكرى مني ولم يزل ذلك الخاتم أثمن ذكرى وأغلى هدية.

كان رحمه الله في هداياه وهباته لا يعرف معنى الشح أو البخل بل كان يجود بما عنده بثغر باسم ومحيا طلق ونفس كريمة تألف المعروف وتأنس بالخير والعطاء حتى صار مصداقاً لقول الشاعر:

مـن قـاسَ جـدواكَ يـومـاً بـالسـحـب أخـطـأَ مـدحـك

فـالسـحـبُ تـعـطـي وتبكـي وأنـت تـعـطـي وتـضـحـك

ولا زلت أتصور تلك النظرات الوادعة وأشعر بتلك الكلمات التي امتزج جدها بهزلها البعيدة عن الجفوة والقسوة التي تركت في نفوسنا أعمق أثر كريم لذلك العطف الأبوي الذي أفاضه علينا، وكم كنا نأنس بذلك المرح والمزاح المفعم باللطف والعطف فيغرس في قلوبنا أسباب الحب والاحترام والإجلال.

لقد كان سيدنا الفقيد الراحل حتى في أواخر أيامه وهو على فراش المرض لا تفارق البسمة ثغره ولا الدعابة لسانه الدافىء وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى، وكأنه يدفع عادية الزمن بهذا المرح المهذب وداهية الأيام بذلك المزح الذي كان يغمره غمراً فقد كان حلو النكتة رطب الحديث يمزج الجد بالهزل رغم قساوة الدهر ومرارة الغربة.

كان رضوان الله عليه يوقّر الصغير والكبير ويحترم كرامات الناس جميعاً وكان معقلاً من معاقل الصدق والوفاء ومقلعاً من مقالع المروءة

والإباء ومكارم الأخلاق، وكان زكي النفس حسن العشرة صادقاً في قوله وعمله متودداً محباً إلى كل من يتصل به، وكان صاحب أخبار ونوادر ومعرفة بأحوال الناس، لم يقدّم غيره على نفسه في النفع والمصالح، وكل من أنس بصحبته اعترف بفضله ودماثة طبعه ومرونة تفكيره ولين عريكته، وهو إلى ذلك قوي الإرادة ذكي الفؤاد مرهف الحس واسع الثقافة فصيح اللسان حلو الحديث يحب الضبط في الأفكار والأخبار وكلام العرب، لا يحدث إلا عما ترغب فيه النفس، ويستمتع به الخاطر، يحدثك عنه باتزان وهدوء وتأنٍ وصبر ودعة، وإذا حدثك عن الناس لم يذكر من أخبارهم إلا ما فيه مثل وعبرة، ولا يميل إلى النقد والذم ولا يلذ له الحديث إلا إذا كان منزهاً عن الإيذاء أو التجني، لذلك أحبه الناس وقدّروا فضله لعلمهم أنه مجبول على الخير محب للبر والمعروف وكان أسَفُهم لفقده عظيماً وحزنهم لمصابه شديداً وتجمهرهم لتشييعه وتأبينه ما لم يحصل حتى لبعض مراجع الدين الكبار وقد استمرت مجالس تأبينه عشرين ليلة كانت الأولى كالأخيرة من حيث الحشود والتجمهر والحرارة والأسف وإلقاء الكلمات والقصائد والإطعام على روحه الطاهرة وما ذلك إلا لمكانته المتميزة في النفوس وأثره المحبب في القلوب والضمائر.

ولئن أساء له البعض في حياته فقد كان معهم كالنخلة العراقية التي إذا قذفت بحجر تساقطت رطباً جنياً وهكذا كان فقيدنا العظيم كلما أوسعوه إساءة أوسعهم عفواً وغفراناً وكلّما ألحّوا عليه بالأذى ألحّ عليهم بالصفح والتسامح، وكأنما كانوا يختبرون عظمة شخصيته وكنز مروءته ومعقل صبره وحلمه وكظمه للغيظ.

حتى إذا حل العاشر من رجب الشهر الذي استشهد فيه جده كاظم

الغيظ الإمام موسى بن جعفر أسلم الروح إلى بارئها بعد صراع طويل مع المرض، فقد كانت صحته في أيامه الأخيرة بين مد وجزر تتحسن يوماً وتنتكس يوماً آخر كان بين الفترة والأخرى يرقد بأحد مستشفيات الإمارات ودمشق للفحوص والعناية، حتى كانت رحلته الأخيرة من دبي إلى دمشق وكان لي شرف خدمته ورعايته وهو محمول على كرسي متحرك لا طاقة له على القيام مستقلاً ولا قابلية له على الحركة دون الاستعانة بأحد، حتى إذا حلّ بدمشق وتحسنت صحته وتفاءلنا خيراً وأنه سيعود إلى منبره ومحرابه إذ تدهورت صحته وهاجمه مرض الموت وأحاطت به الأسقام وأنهكته العلل وأثقل حاله، وأدخل المشفى الشامي بدمشق مرتين، وفي المرة الأخيرة توقف قلبه الكبير ولحقت روحه بالرفيق الأعلى وفتحت أبواب الجنان لاستقباله ضيفاًعلى سيد شبابها فسرى نعيه في الأقطار والأمصار وجزع الصحب وهلعت قلوب الأحبة ومشى الحزن في الصدور، وطوى الموت بفقده مزايا نادرة، وصفات باهرة في الخلق والمروءة والأريحية والتسامح، وانطوى علم كان مرفوعاً خفاقاً من أعلام العقيدة وانهدم صرح من صروح المجد وسقط تاج من تيجان العز وانطفأت شمعة من شموع العلم والتحقيق وأغلق سجل حافل بالمفاخر والمآثر ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾.

فطبت حياً وميتاً وسلام على روحك الطيب وجسدك الطاهر وشآبيب من رحمة الله على مرقدك المنور وضريحك المطهّر وصلاة وتسليماً من الله عليك ورحمة وبركات.

أقول ونعشه يختال تيهاً تحيط به المهابة والجلال
خليليَّ أحسرا دمعي قليلاً لأنظر كيف سيّرت الجبال

وستبقى ذكرياتك لوعة في قلوبنا وجمرة في أحشائنا ودمعة ساخنة في عيوننا، وستبقى تجاربك وكلماتك مدرسة لنا، وشواهدك وحكمياتك مثلاً وقدوة في مسيرة حياتنا، وإلى أن نلقاك تحت راية الحسين (ع) يوم نفد على الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

نسبه وأسرته:

نسبٌ كأنَّ عليهِ من شمسِ الضحى   نورٌ ومن فلقِ الصباحِ عمودا[1]

يلتقي نسب السيد المترجم بعميد أسرته الخطيب الكبير السيد كاظم الخضري الحسيني بالجد الثالث السيد حمود[2] بينما يجتمع ذلك النسب مع ابن عمه الخطيب البارع السيد طاهر الملحم بالجد الخامس السيد نوح[3].

وبهذا النوح يجتمع الأعلام الثلاثة من الخطباء السيد كاظم، والسيد عبد الزهراء، والسيد طاهر. فهو السيد عبد الزهراء بن السيد حسين بن السيد جبر بن خفي بن حمود بن نوح بن ناصر بن شلّال بن محمود بن محمد بن شوكة بن عبدالله بن علي بن أحمد بن أبي عبدالله بن أبي الهيجاء بن يحيى بن الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

نسب كمثل الشمس أشرق نوره   فأضاءت الأقطار بالنور الجلي
من حيث جدهم النبي محمد   وأبوهم الكرار حيدرة علي

(١) لابي تمام الطائي.
(٢) تراجع ترجمة السيد كاظم في حقل خطباء في ذمة الخلود.
(٣) انظر سلسلة النسب في ترجمة السيد الطاهر.

وهكذا رأينا كيف تمتد أعراقه لتتصل بزيد الشهيد فهو إذن حسيني من أسرة حسينية اشتهرت في الجنوب العراقي بأخوة سمية، ولهذا الفرع الحسيني ثلاث فصائل شهيرة تتحد بأجدادها الكرام وهم آل ياسر وآل فياض وأخوة سميّة[1].

موطنه ومولده:

أحبُّ بلادِ اللهِ ما بينَ منعجٍ   إليَّ وسلمى أنْ تصوبَ سحابها
بلادٌ بها نيطتْ عليَّ تمائمي   وأولُ أرضٍ مسَّ جلدي ترابها[2]

لا شك أن الأرض التي يستقبل الإنسان الحياة على ترابها، والموطن الأول الذي يحتضن الإنسان وليداً ويافعاً، والبلد الذي يضمه بدفء وحنان عند مجيئه إلى الدنيا، يتحول إلى جزء من كيانه ووجوده، وتطبع بصمات الحب والحنين لتلك الأرض في أوردته وشرايينه، وتبقى ألواح الذكريات عالقة ومثبتة في شاشة تفكيره في كل أدوار الحياة ومراحلها المختلفة. لأنها الأرض الأولى التي تنفس الهواء على سطحها، ورأى النور فوق ترابها، وامتزج دمه بذراتها وعناصرها، وعاش ونشأ وترعرع في أجوائها. وتفاعل مع مجتمعها بسرائه وضرائه، وشاركه بأفراحه وأتراحه، فهي مسقط رأسه، ومرتع صباه، ومنبت طفولته، ومركز ذكرياته،

(١) يراجع تحقيق هام في نسب هذه الأسرة، وتعريف بعض شخصياتها بقلم الباحث المسدد السيد محمد الحسيني في كتابة السيرة الذاتية للسيد المترجم بمجلة الموسم العدد العشرون سنة ١٩٩٥ م.
(٢) بلاغات النساء/ ٢٢٠ .

وعليها تتكون شبكة علائقه الاجتماعية، وعليها تتأسس ملامح حياته الحضارية والثقافية.

وقد سجل الأدب العربي هذه الظاهرة ببيتين من أروع ما قيل في هذا الباب.

نقّلْ فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى ... وحنينُهُ أبداً لأول منزلِ

ولذا أصبح هجر الوطن والابتعاد عنه بمنزلة الموت، وخروج الإنسان من أرضه، كخروج روحه عن بدنه، كما عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله: (ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه)[1].

ومن الظواهر البارزة في سيرة سيدنا المترجم أنك لا تكاد تجتمع به بلقاء أو حديث بجلسة عامة أو خاصة دون أن يتحدث عن ذكرياته الأولى أو يطعم كلامه بحكاية أو نادرة عن الخضر وأهالي الخضر وشخصياته الفلكلورية، فما هي يا ترى قصة الخضر؟.

الخضر بُليدة تقع على ضفتي الفرات، بينها وبين مدينة السماوة ما يقارب الثلاثين كيلو متراً من الجنوب، يقابلها عن شمال السماوة وبنفس المسافة تقريباً مدينة الرميثة الباسلة.

ثم توسّعت هذه البليدة حتى امتدت بيوتها ومبانيها إلى بعض القرى المجاورة، ونشطت حركة العمران والتوسع حتى أصبحت بلدة عامرة بسكانها وبيوتها وأسواقها وسائر مرافقها الأخرى.

ويخترق البلدة نهر الفرات فيقسمها إلى شطرين أو كما يصطلحون

---

(١) النساء/ ٦٦ .

محلياً بالصوب الكبير والصوب الصغير اللّذين يربط بينهما جسر من أضخم جسور العراق. وقد وقعت عليه مجزرة بشرية عندما قصفت قوات التحالف الدولية العراق إبان حرب تحرير الكويت سنة ١٩٩١م. كما تعرضت البلدة للإحراق من قبل القوات البريطانية إبّان غزوها العراق في عام ١٣٣٣ هـ، وتصدى الأهالي لمقارعتهم، بقيادة العلاّمة المجاهد الشيخ علي حيدر الذي أسهم في قيادة حركة الجهاد ضد المستعمر الإنكليزي الغاشم. فأحرق البريطانيون هذه المنطقة، وارتكبوا مذبحة (العين) فلاذ الناس بالفرار خشية البطش والمذابح وهذا ما اشتهر على ألسنة الرعيل الأول من أبناء المنطقة بسنة (الهجّة) التي تعرضوا فيها للنهب والإحراق.

وهذه (العين) أشبه شيء بالمنطقة الحدودية لمدينة الخضر تقع في الطريق الخارجي المؤدي إلى محطة القطار، وهي عبارة عن حي صغير في الجانب الثاني من مقام الخضر اشتهرت بمعامل الطابوق. ثم إنها منطقة جميلة تحفها المزارع والبساتين، وفي مدخلها بستان وارف اشتهر بين الناس ببستان الحساوية وربما تنزهنا في طفولتنا بهذا البستان، وشاهدنا دوالي الكروم وعروش العنب، وأشجار الرمّان والحمضيات الأخرى، والنخيل الباسق المحمل بأنواع التمور العراقية كالإخلاص والبرحي والشكر والعمراني ومختلف الأصناف الأخرى، كما اشتهرت منطقة العين في أيامنا بملاّك سيارات التأجير وسائقيها، فيكاد أن يكون معظمهم من أهالي هذه المنطقة وقد عرفت كذلك بالكثير من الأخيار والأجواد والأتقياء.

وما برحت تعقد فيها مجالس الحسين بمختلف المناسبات ومن أشهر خطباءها المقيمين فيها هو المرحوم الشيخ سلمان الميّاوي والشيخ ياسين

كالعباس آل عَلّو. وحصل لي الشرف أن خطبت فيها في إحدى السنين بمناسبة شهر رمضان المبارك.

وقبالة العين على الطرف الآخر من الفرات شاطىء جميل كان السيد المترجم يرتاده سامراً فيه بسهرة خفيفة مع ثلة من خيار القوم الذين يقضون وطراً من الليل متحلقين حوله يستمتعون بمسامرته، ويستلذون بأحاديثه، وينتهلون من نمير علومه وتوجيهاته.

* * *

وعلى مقربة من مدينة الخضر تقع منطقة الوركاء المنطقة الأثرية الموغلة في القدم، والتي يزعم صاحب تاج العروس وصاحب معجم البلدان أن فيها مولد إبراهيم الخليل عليه السلام[1]. وطالما يقصدها السوّاح الأجانب، وعلماء الجولوجيا من الأوربيين وغيرهم منقّبين وباحثين عن الآثار القديمة.

ومن ذكريات الطفولة أننا كنا نتجمّع على سيارات هؤلاء الزائرين الأجانب، بدهشة واستغراب بدافع التفرّج والفضول، وتنطق عيوننا متسائلة كيف إن نساء هؤلاء الأجانب يخرجن سافرات متبرجات؟ في محيط ألف الحشمة والمبالغة في الحجاب المفرط حتى أن المرأة لا تكتفي بعباءة واحدة بل لا بد من عباءتين أحداهما تنزل من الكتف لتلف الجسد بكامله والأخرى من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

ولا زال أهلنا يتذكرون هذه التقاليد بفخر واعتزاز، ويتحدثون عنها بغيرة وحمية، ويعتبرونها من الأعراف الدّالة على الشرف والأصالة.

ومن أشهر المعالم التاريخية في هذه المنطقة مقام الخضر وهو عبارة

(١) تاج العروس ٣٨٩/٢٧ ، معجم البلدان ٣٧٢/٥ .

عن قبة بيضاء سامقة ترفع على حرم يحيط به صحن كبير يقصده الزائرون بحاجاتهم ونذورهم من مختلف أنحاء العراق.

ومقام الخضر مركز ديني مقدس، ومحراب من محاريب العبادة والصلاة والدعاء والذكر والتوسل إلى الله يزعمون أن الخضر الذي التقى نبي الله موسى عليه السلام ـ كما ورد في القرآن ـ مر من هنا وتعبّد في هذا المكان، ولا أدري ما هو المستند أو الإثبات التاريخي لذلك. وعدم الوجدان لايدل على عدم الوجود.

ويشرف على سدانة المقام منذ القدم أخوالنا من بني طي المعروفون بالقوّام، فيستقبلون الزائرين ويستضيفونهم ويلتزمون بوجبات إطعامهم كل حسب نوبته وتسلسل دوره بالقيام في خدمات زوار المقام.

وتحول الخضر من ناحية إلى قضاء تابع إدارياً إلى محافظة المثنى منذ عام ١٩٦٩ م وهو بلد شيعي قح ليس فيه خليط من الأجناس الأخرى ولذلك تراه عريقاً في خدماته الحسينية المختلفة مثله كمثل سائر المدن الشيعية الأخرى في العراق من عقد المآتم وإقامة المجالس النسائية والرجالية، وكان لوالدة سيدنا المترجم مجلس نسائي رئيسي في شهر المحرم اشتهر باسمها وعرف بمجلس (الملّا آية) وهي آية بنت الحاج خيون محمد علي الحسيناوي، وكانت امرأة فاضلة تقية تجيد القراءة والكتابة وتنظم الشعر الشعبي في مديح ورثاء أهل البيت عليهم السلام.

وربما حصل تنافس بين مأتمها والمأتم المقابل التي تقيمه جدتي رحمها الله، والذي اشتهر هو الآخر باسمها فيقال مأتم (الملّا زهرا) وهي الحاجة زهرا آل مطر الطائي وكانت هي الأخرى قارئة للقرآن، ويجري

الشعر الشعبي على لسانها مجرى السهل الممتنع، وكم كان السيد المترجم يتحدث عن طرائف ونوادر في المنافسة الشريفة بين القارئتين الحسينيتين والدته وجدتي رحم الله الجميع.

وأما مآتم الرجال فكانت الخضر غالباً ما تستورد خطباءها من النجف الأشرف، مع وجود عدد كبير من الخطباء المحليين، فقد حدث المرحوم السيد أن في أحد الأدوار التي مرّت على الخضر بلغت إحصائية الخطباء فيه أكثر من أربعين خطيباً، وقد أدركت بعضهم في الأيام الأخيرة كالمرحوم الشيخ محمد آل حالوب والمرحوم الشيخ راضي الحاج محمد والشيخ سلمان المياوي، والشيخ شيحان الحسيناوي، والوالد السيد حسن السيد داخل والشيخ كاظم عليوي أخ السيد المترجم لأمه والذين لم أدركهم كالشيخ حمد التوبي والشيخ يحيى الشيخ حسن والشيخ طاهر وحتى الخطباء الجابريون الذين هاجروا من الخضر إلى النجف طلباً للعلم كالشيخ محمد علي الجابري والشيخ مسلم الجابري واسرتهم وغير هؤلاء الذي يؤسفني عدم تسجيل لائحة بأسماءهم من السيد المترجم. إلا أن مغنية الحي لا تطرب كما هو معروف فكانت الخضر تدعو كبار الخطباء من النجف كالخطيب السيد حسن القبانجي، والسيد مهدي السويج، والشيخ جعفر الأيرواني، والشيخ شاكر الوائلي، والشيخ جعفر الهلالي، والشيخ مجيد الصيمري، والشيخ عبد الأمير الجمري من البحرين، والسيد جابر أبو الريحة، والسيد مرتضى الكشميري، والشيخ منديل التميمي وغيرهم.

أما عن المواكب الحسينية ففيها موكبان رئيسيان الشرقي والغربي، يباشران نشاطاتهما الحسينية على التعاقب بعد انتهاء الخطيب من قراءته

في المأتمين الشهيرين مأتم الحاج عبد الصاحب ومأتم آل جوير فتقرع طبول الموكب الغربي استعداداً للعزاء، وايذاناً بخروج المسيرة.

وكان يصدح بقصائده وأشعاره بذلك الموكب المرحوم الحاج جبار علي الساجت، وهو رادود حسيني محلّي. ثم يعقبه الموكب الشرقي معزّياً إلى وقت متأخر من الليل، وكان هذا الموكب يدعو قرّاءه من النجف وكربلاء، ولا زلت أتذكر منهم المرحوم الأستاذ عبد الأمير الترجمان، والسيد نزار أبو الريحة، والأستاذ جاسم شيروزة، وسمعت منذ القدم أن المرحوم الوالد والرادود جسّوم يتوليان القراءة لتلك المواكب.

وهكذا بقية الأنشطة الحسينية الأخرى كموكب التطبير الذي كان ينطلق من بيت السيد هاشم السيد محسن، أو من بيت الحاج مسلم آل مطلق الطائي، أو كمراسم الشبيه التي كانت موضع اهتمام وإشراف المرحوم خادم الحسين عبد مناف الحاج ياسر. والمرحوم خادم الحسين عمران آل مزعل، وموكب الزنجيل الذي كان يعدّه ويتولى شؤونه المرحوم خضير آل حمود.

وكان مقام الخضر مركز التجمع لموكب (الزنجيل) الذي التزم الوالد رحمه الله بالقراءة فيه طيلة حياته وأتذكر أنه كان رحمه الله ينظم القصيدة لذلك الموكب صباحاً بمحل عمله ويقرأها عصراً عند خروج الموكب، وهذه عادته في كل يوم من أيام المحرم وفي كل عام يقدم شعراً جديداً طازجاً ساخناً ولم يستعد شيئاً مما يقرأ في الأيام السالفة. وطالما كنت أقوم بدور المساعد له، وربما المقرىء المستقل في السنين الأخيرة ثم انتقل الدور لأخي الشاعر الأديب أبي لؤي السيد جبار في مواصلة هذه الخدمة على قاعدة فرخ البط عوّام فأمه

وأبوه وجدته وأخوه كلهم تشرفوا بهذه الخدمة وانتسبوا لهذا السلك المقدس.

وكم هي عزيزة على قلبي تلك الذكريات التي لا تنمحي عن ذاكرتي ولا تفارق مخيلتي، لم تزل ماثلة أمامي وشاخصة في خاطري تلك الصورة المتمثلة بطبل كبير يضعه شخص من سدنة مقام الخضر وقوّامه الطائيين يدعى (نعمة آل والي) بعنقه ويعلّقه برقبته، ثم يخطو قافزاً، ويقفز بخطوة متميزة بكل قرعة طبل بعصاة أعدّت خصيصاً لهذه الغاية، وإلى جانبه طبل آخر يقرع على غراره، تحف بهما حَمَلَة الطوس والصنوج التي تقرع هي الأخرى لتعطي الطبول نغمة وهيبة وشجاءاً. وتتقدم هذه الجوقة الشبيهة بالجوقات العسكرية الحزينة، ثم تنتظم من بعدها طلائع المعزّين يتقدمهم عليّة القوم ووجوه البلد، لم يمنعهم كبر السن، ودور المشيب عن المشاركة في عزاء الحسين، فتركوا الوقار، ولبس الجميع لباس الحزن، وارتدى جلباب السواد، وقد وضعوا على رؤوسهم قلنسوة سوداء مكتوب عليها (يا حسين).

ويخرج الموكب المهيب كعرض عسكري حزين بإيقاعه وانتظامه من مركز التجمع في مقام الخضر مخترقاً الأسواق المتفرعة عنه ثم يشق طريقه في الشوارع والحارات، ويتجول في البلاد عرضاً وطولاً ثم يعود إلى ساحة كبرى اعتاد التفرق والانصراف منها بعد أن يتحمس فيها بعروضه وهتافاته يا حسين يا شهيد يا مظلوم يا غريب.

وبعد هذه الألمامة الموجزة عن بلدة الخضر - موطن المترجم - لنرى من هو الخضر الذي انتسبت البلدة إليه وحملت اسمه عنواناً وتعريفاً لهويتها؟.

الخضر شخصية حقيقية أقرّها القرآن، وأكدتها السنة النبوية الشريفة، وذكرتها كوكبة من الأحاديث والروايات في الحضارة الإسلامية، غير أن القرآن الكريم أحاطها بشيء من الغموض وعدم الكشف والتصريح باسمها بشكل واضح ومحدد، ولكنه أثنى عليها وأعطاها من النعوت والصفات الكريمة كإخلاص العبودية، وإعطاء الرحمة، وغزارة العلم عبر قوله تعالى: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنّا علماً﴾[1].

وقد يستخدم القرآن الكريم أسلوب التكتم على بعض الشخصيات في القصص القرآني للعظة والعبرة التي تستهدف المبادىء والمعنويات، ولا تعنى بذكر الأسماء، وإناطة العمل بشخصية معينة، ليبقى العمل مفتوحاً لجمهور المجتمع، أو لوجود الحكمة والمصلحة في التكتم بالمنظور البعيد لحماية تلك الشخصيات أو تحقيق الأهداف المستقبلية والأغراض البعيدة المدى.

وبناء على عدم وجود النص القطعي الذي يحسم بوضوح مشكلة الخضر، لذا أصبحت مثار الجدل ومبعث التساؤل والحيرة، وإدخالها في خانة المغيبات والخوارق، بينما ترى وجود النص الحاسم في مشكلة عيسى عليه السلام مبعثاً للإيمان والإذعان والتسليم بحياته دون أدنى شك أو ريب.

وقد تناولت كثير من البحوث والدراسات القديمة والحديثة ملف شخصية الخضر وتسليط الأضواء على جوانبها المتعددة ولكن دون الوصول إلى نتيجة حاسمة.

---

(١) الكهف/٦٥ .

وفي الحقيقة إن مثل هذه الدراسات، وتحقيق هذه الجوانب تعتبر من ترف الثقافة العامة، وليست من مسائل العقيدة الهامة إذ لسنا مسؤولين عن الاعتقاد بنبوة الخضر أو حياته كمسؤوليتنا عن الاعتقاد بوجود الإمام المنتظر الذي يمثل ركناً من أركان عقيدتنا الأمامية يناط به مستقبل الحياة العادلة ومصير الرسالة الإسلامية.

أما موقفنا الشرعي من قضية الخضر فلا يتجاوز موقف الحيطة والسكوت وعدم القطع بشيء ثابت عما يكتنف تاريخ هذه الشخصية من ملابسات وهل أنه كان نبياً أم ولياً أم عبداً صالحاً، ثم هل هو حي أم ميت؟؟. وموقفنا مستمد من القرآن الكريم الذي اغفل هذه الأمور.

واحتلت قضية الخضر مساحة واسعة من كتب التفسير وموسوعات الحديث ومعاجم اللغة ودوائر المعارف. وألفت العديد من الكتب لإعلام المسلمين وكبار العلماء كما أن هناك دراسات حديثة وكتب معاصرة خصصت لمعالجة هذه المسألة المدهشة، ومناقشة النظريات الإسلامية حولها وما هو الموقف الديني تجاه الاعتقاد أو عدم الاعتقاد بها، إلا أن هذا الزخم الهائل من الأحاديث والروايات والأبحاث لم تستقر على نظرية موحدة، ولم تتفق على رأي واضح، بل يبقى التأرجح هو المسيطر على نتائج الأبحاث والنظريات المطروحة.

وإذا حاولنا تثبيت لائحة بأسماء المفسرين والمحدثين والمؤرخين الذين تناولوا مسألة الخضر في كتبهم وموسوعاتهم فذلك أمر متعذر في هذا الاستطراد نظراً للكثرة الهائلة والجمهرة الكبيرة التي طرحت هذا الموضوع فلا يمكن أن تستعرض أمهات التفاسير وموسوعات التاريخ

دون المرور بقضية الخضر عليه السلام بيد أننا إتماماً للفائدة نختزل بعض الأسماء كنماذج شهيرة ندرجها في الهامش(١) دون التدخل بتصحيح آرائهم أو عدم التصحيح، فهذا ما يحتاج إلى دراسة مستقلة شاملة وطرح علمي مجرد.

ولعل من أحدث الدراسات المعاصرة حول هذا الموضوع هو كتاب الخضر بين الواقع والتهويل للأستاذ محمد خير رمضان فقد تقصّى مسألة الخضر بدراسة تحليلية مقارنة على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ، وكتب الأستاذ عبد الحليم قنبس بحثاً تحت عنوان الخضر بين الحقيقة والخيال طبعته دار الكتاب العربي بدمشق، وهناك كتابات أخرى وإن كان بعضها تجاوز المنطق العلمي إلى الشنشنة المعروفة من أخزم، والتي أصبحت بالية متهرئة وكشف المنطق العلمي زيفها وسوء نوايا المتمسكين بإثارتها بمناسبة وبغير مناسبة، كما فعل أحمد بن عبد العزيز الحصين في كتيب أطلق عليه اسم الخضر وآثاره بين الحقيقة والخرافة فراح يتحدث عن زيارة القبور بتشنج تقليدي وغمز روتيني لا علاقة له بأصول البحث العلمي النزيه.

* * *

(١) تفسير الرازي، تفسير القرطبي، روح المعاني، روح البيان، في ظلال القرآن لسيد قطب، الكشاف للزمخشري، الكاشف لمغنية، تفسير الميزان للطباطبائي، من وحي القرآن للسيد فضل الله، تفسير سورتي الكهف ومريم للمودودي.
البداية والنهاية لابن كثير، الإصابة لأبي حجر، تاريخ الطبري، قصص الأنبياء للنجار، الأنبياء للحسني، تاريخ ابن عساكر، صحيح مسلم والبخاري، تاج العروس، لسان العرب، وغيرها مما لا يحيط به الإحصاء.

ولعل من صميم البحث أن نتعرف على البطاقة التاريخية للخضر عليه السلام في سطور موجزة نظراًلتعدد الأقوال والروايات في ذلك ولكن نختصرها بما يلي:

١ ـ اسمه بليا بن ملكان.

٢ ـ لقبه الخضر لأنه إذا صلى اخضرّ ما حوله[١]، وقيل لإشراقه وحسنه[٢].

٣ ـ كنيته: اتفقت المصادر على أن كنيته أبو العباس واشتهر عندنا محلياً بأبي محمد ولم أعثر على مستند تاريخي لهذه الكنية.

٤ ـ أمه وأبوه: قالوا أن أمه رومية وأباه فارسي وزعموا بل إن أمه فارسية واسمها المي. وذكروا اختلافاً كبيراً في تحديد أبيه فقالوا أنه الابن الصلبي لآدم، وقالوا بل هو ابن قابيل، وقيل إنه ابن سام بن نوح، وقيل ابن فرعون ملك مصر وغير ذلك من الأقوال التي لا جدوى وراء تحقيقها.

٥ ـ ونصت بعض المصادر أنه كان قائداً عسكرياً في جند الإسكندر والخضر والإسكندر أبناء خالة!!.

٦ ـ ومن الإشارات التاريخية لوجوده في العراق ما ورد أنه عاصر إبراهيم الخليل وآمن بدينه وهاجر معه من أرض بابل حين هاجر إبراهيم منها[٣].

٧ ـ اختلفوا في تحديد شخصيته هل أنه نبي أم ولي أم عبد صالح

(١) الخضر بين الواقع والتهويل لمحمد خير رمضان/٢٩ .
(٢) تاج العروس ١١/١٨٤ مادة خضر.
(٣) تاريخ الطبري ١/١٨٨ .

ولا مانع من الجمع بين هذه الصفات الثلاث.

* * *

أما إذا تحولنا إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام نجد الروايات وأجوبة المسائل لا تغفل هذه المسألة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: أن الخضر كان نبياً مرسلاً بعثه الله إلى قومه فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته ألا يجلس على خشبة يابسة، ولا أرض بيضاء إلا زهرت خضراء وإنما سمي خضراً لذلك[1].

وقد تذكر بعض الأحاديث أنه حي لم يمت بعد وليس هناك دليل قطعي يثبت ذلك، كما أنه ليس هناك دليل عقلي يمنع من ذلك، من خلال قدرة الله المطلقة على ذلك وعلى أكثر منه[2].

وقد ورد أن دعاء كميل الدعاء المعروف الذي علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد النخعي واشتهر باسمه إنما هو دعاء الخضر، ويفهم المحللون من تعبير الإمام علي عليه السلام أنه دعاء أخي الخضر كونه حياً.

وما ورد عن الرضا أن الخضر أدى مراسم التعزية لأهل البيت بوفاة جدهم رسول الله حيث وقف على باب البيت وفيه علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: السلام عليكم يا أهل البيت كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة إن في الله خلفاًمن كل هالك، وعزاء من كل مصيبة... إلخ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هذا أخي الخضر جاء يعزيكم بنبيكم.

---

(١) تفسير الميزان ٣٥٢/١٦ .

(٢) من وحي القرآن ٣٨٥/١٤ .

وفي اليوم الذي توفي فيه أمير المؤمنين عليه السلام أبنه بكلمات حارة وهي الزيارة المعروفة التي يزار بها الإمام يوم وفاته: رحمك الله يا أبا الحسن كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله... إلخ[1].

وهناك كوكبة من الأحاديث تنطق بأنه يخرج مع الإمام المهدي عجّل الله فرجه ويكون من أنصاره وأعوانه.

* * *

وبعد هذه الجولة في رحاب الخضر عليه السلام نعود إلى ربط الموضوع بحياة سيدنا المترجم الذي احتضنته مدينة الخضر عند ولادته، واستقبل الحياة في رحابها وذلك سنة ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١م.

ثم تدرج في سلّم الحياة وليداً وطفلاً، وشاباً وكهلاً، وخاض غمار الدنيا، وتوغل في ساحة العلم وصفوف المجتمع من هذا المنبت الطيب، وانطلق من هذه الأرض الخضراء التي غذته البراءة ونقاء الضمير والبساطة وطيبة القلب، حتى اشتد عوده عملاقاً يتملاه المجتمع ويرمقه بعين الإكبار والتقدير.

دراسته:

ابتدأ الخطوات الأولى في مسيرته العلمية من مسقط رأسه على يد العلامة الجليل المرحوم الشيخ طالب حيدر فقد أخذ عنه مقدمات الدروس العربية ومبادىء العلوم الإسلامية حتى إذا

---

(١) الأنبياء للحسني/٣٦١ .

انتصف العقد الثاني من عمره هاجر إلى النجف الأشرف في سنة ١٩٣٦ م لطلب العلم، وانتمى لمدرسة كاشف الغطاء وأولاه الإمام كاشف الغطاء عناية خاصة ورعاية متميزة حتى أصبح السيد فيما بعد أمين سره، ومحرر علومه.

ومن نماذج ذلك أن الإمام كاشف الغطاء أملى عليه تمام كتابه (تحرير المجلة) وهو عبارة عن تعليقات للشيخ كاشف الغطاء من وجهة نظر الفقه الشيعي على (المجلة العدلية)[1]. ثم واصل دراسته مكباً على تحصيل العلم، مجدّاً في انتهال المعارف، مرتشفاً من تلك المناهل، حتى قطع أشواطه الدراسية، ومراحله العلمية بفترة وجيزة نسبياً، ولكي يتبلور هذا الجانب من دراسة سيرته لابد لنا من الحديث المفصل عن اعلام اساتذته.

أساتذته:

١ ـ الإمام المصلح الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء طاب ثراه وهو ممن انتهت إليه الزعامة الدينية، وثنيت له وسادة المرجعية العليا، وهو جهبذ من جهابذة العلم والتحقيق والأدب والتأليف، كما كان صرحاً من صروح الجرأة والشجاعة والمواقف المبدئية المشرفة.

وقد تأثر السيد المترجم بشخصه إلى أبعد الحدود، واستقى من معين علومه، وانتهل من نمير معارفه، فهو المؤسس لهذه الشخصية، وهو المشرف على بنائها، والمتصدي لرعايتها وتوجيهها، وهو المتعهد لسقاية هـذا البرعم حتى نمى وتفتح ولذا ما انفك يذكره بأجلال، وما برح يستشهد بأقواله بإعجاب، وما فتيء يلهج بتعظيمه والثناء عليه في

(١) الموسم العدد العشرون لسنة ١٩٩٤ .

مجالسه وتآليفه وأحاديثه العامة والخاصة طول أيام حياته ولا أغفل الإشارة إلى أن أغلب إنتاجه في حقل التأليف والتحقيق كان من مقترحات سماحة الشيخ كاشف الغطاء، حيث أنه الغارس لبذرتها، والراسم لهياكلها، والطارح لفكرتها، وكان يتمنى أن تتصدى الكفاءات العالية من تلامذته لمتابعة تلك الأبحاث وخوض تلك الغمار لكشف الحقائق ورد الشبهات والدفاع عن العقيدة.

وقد صرح السيد الخطيب في كلمة رصفها في ديباجة المصادر للإمام كاشف الغطاء تحت عنوان: اقرأ هذه الكلمة تعرف قيمة هذا الكتاب جاء فيها: وعسى أن يوفق الله لإفراد كتاب يجمع أسانيد نهج البلاغة من كتب الفريقين فإني أحس بشدة الحاجة إلى ذلك وقد اضطرّنا هذا الوقت وأعوزنا إلى مثله، على أني لا أجد لنفسي كفاءة القيام بمثل هذا العمل الجليل، فعسى أن يعنى له بعض الأفاضل فينهض بمثل هذا المشروع الشريف الذي فات السلف الصالح أن يقوم بمثله وكم ترك الأول للآخر، وغير خفي على ذي لب أن من يقوم بهذه الصنيعة العظمى يكون قد سد فراغاً كبيراً في المعارف والعلوم، وأسدى إلى الحقيقة يداً بيضاء يقطع بها ألسنة المعتدين، ويكعم بها أفواه المتجاسرين، وأقلام المتطاولين على هذا السفر العظيم، الذي لا ثاني له بعد كتاب الله العزيز، كما يعترف به كل منصف من العارفين، وعسى أن لا يخيب رجاؤنا ولا يفشل اقتراحنا من أفاضلنا إن شاء الله[1].

فامتشق السيد يراعه، وشمّر عن ساعد الجد والهمة العالية ونزل إلى ساحة التأليف وتحقيق الآمال فارساً جديراً ومحققاً خبيراً ومؤلفاً قديرا.

---

(١) المراجعات الريحانية ٢/٢١٢ ، مصادر نهج البلاغة ١/٧.

فأتحف المكتبة العربية والاسلامية بمصادره، وسدّ فراغها بمعارفه وعلومه، وقطع ألسنة المعتدين، وكعم أفواه المتجاسرين، كما أراد أستاذه الامام الكبير، وقد قطع بهذا العمل الجبار الطريق بحواجز فولاذية على كل من تسول له نفسه النيل من حرمة نهج البلاغة، والتشكيك المشبوه في نزاهة الشريف الرضي، وانبرى لتثبيت الوثائق التاريخية وترقيم المصادر، وفهرسة المستندات بأحرف بارزة وأرقام معتمدة بما لايدع مجالاً للشك والهراء والتطاول.

وبذلك حقق الحلم والأمنية التي كانت تراود أستاذه الامام، وماذلك إلا جانباً من جوانب بره بأستاذه، وكان كثير البر له دائم الثناء عليه، ولسان حاله يقول:

أفضّل أستاذي على فضلِ والدي   وإن نالني من والدي الفضلُ والشرف

فذاك مربي الروحِ والروحُ جوهرٌ   وهذا مربي الجسم والجسمُ من صدف[1]

٢ . العلامة الجليل الشيخ طالب حيدر رحمه الله. وهو من أجلاء الأساتذة، وفضلاء علماء الدين، عرف بالورع والتقوى والتحرج في الدين، وكان عفَّ اليد واللسان، كثير المروءة والاحسان، نموذجاً مشرفاً للشخصية العربية بما فيها من الوضوح والكرامة والاباء، جريء في الحق، صادق في القول جسور في المواجهة، صلب في العقيدة، ليس لمناوئ فيه مغمز، ولا لشانيء فيه مهمز، بالاضافة إلى ذكائه ونبوغه.

وهو الأخ الأكبر للمؤرخ الكبير الشيخ أسد حيدر، تربطني به أواصر

(١) أدب الطف ١٠/ ١٩٤ ترجمة اليعقوبي، ونسب الأستاذ الطريحي في مجلة الموسم الغرّاء عدد ١٥ لسنة ١٩٩٣ صفحة ٤٠٦ البيتين للخطيب السيد حسن الكشميري وأشار إنه نظمها وعلقها على صورة أستاذه السيد جواد شبر، وذلك اشتباه محض.

رحم ووشائج قربى، فهو بالاضافة إلى الخؤولة النسائية المتشابكة، صهر أبي على شقيقته وأم أكبر أولاده الخطيب الشيخ سعود حيدر المكّنى به، فهو ابن عمتي وأنا ابن خاله.

ومن ميزات الشيخ طالب رحمه الله شدة ورعه في التصرف والانفاق من الحقوق الشرعية في تأمين حياته المعاشية كما يفعل غيره من المشائخ، بل كان يعيش من خالص ماله على القناعة والكفاف، متكلاً على الله، معتمداً على نفسه بما يرده من أجرة بعض الممتلكات المتواضعة هنا وهناك.

ولصلابته واباءه وعدم رضوخه للهوان حصلت بينه وبين أكابر العلماء في النجف خلافات حادة أدت إلى حجب الأضواء عن شخصيته لما يمتلك الطرف الآخر من نفوذ واسع وشهرة عالمية وصلاحيات دينية كبيرة ذهب ضحيتها الشيخ طالب حتى لقي ربه عزيزاً أبياً ومضيعاً نقياً.

وكان هذا العالم الجليل من أوائل الأساتذة لسيدنا المترجم والذي يحتل منزلة متميزة في نفسه فطالما سمعت منه عبارات الاطراء والثناء والاعتزاز بهذه الشخصية الكريمة.

٣ . البحاثة المتتبع والمؤرخ الثبت الشيخ أسد حيدر تغمده الله برحمته، وهو الشقيق الأصغر للشيخ طالب. والحقيقة أن علاقة المترجم بهذين العلمين ليست علاقة تلميذ بأستاذ من النوع المتعارف وإنما هي علاقة الرعاية المطلقة في كل شؤون الحياة.

والعلاّمة الأسد غني عن التعريف بعلمه ومواهبه وتأليفاته القيّمة فهو خارق الذكاء، وافر الاطلاع، طويل الباع، موضع التبجيل والاحترام عند مختلف الطبقات الدينية والاجتماعية، ترجمه الدكتور الأميني في

رجال الفكر[١]، والخاقاني في شعراء الغري[٢]، وغالب الناهي في دراسات أدبية، ونشرت له عينيته في الحسين مذيلة بترجمة مختصرة في كتاب من لايحضره الخطيب[٣]، كما طبعت بعض أشعاره الدارجة مقدماً لها بنشر صورته وترجمة حياته في كتاب أدب المنبر الحسيني[٤].

ولد في الخضر سنة ١٣٢٧ هجري ونشأ وترعرع في أجواء أسرته العلمية محباً للعلم شغوفاً في طلبه، طموحاً في اكتسابه، كان هو وشقيقه الشيخ طالب، والخطيب المقدّس السيد كاظم الخضري، والعلامة الجليل الشيخ محسن البزوني، والسيد المترجم محاور النشاط الديني في مدينتنا (الخضر)، ورواد المجالس الحسينية والمشرفين على إقامتها وتهذيبها وبث الوعي الحسيني، وغرس محبة أهل البيت في النفوس والضمائر.

وكان رحمه الله متولعاً بحب الحسين، وإذا كان يوم عاشوراء كان يوم حزنه ومصيبته، فلا يكتفي أن يستمع لخطيب نائح أو مقريء حزين يستعرض سيرة الحسين ومأساته دون أن يشارك هو بنفسه في العزاء، ويتقدم فينشد الشعر في رثاء سيد الشهداء، وخصوصاً في مجلس آل الصراف الذي كان يقام بكربلاء في العاشر من المحرم[٥]، وقد أعطاني رحمه الله شريطاً مسجلاً لذلك المجلس بصوته وقراءته،

(١) معجم رجال الفكر ١/٤٦٠

(٢) شعراء الغري ١/٣١٣

(٣) من لايحضره الخطيب ١/٢٣٨

(٤) أدب المنبر الحسيني /٣٥

(٥) أدب المنبر الحسيني /٣٥

وبمشاركة بعض الخطباء والذاكرين، وكانت تعلو أصوات البكاء والنحيب على أصواتهم، وكان المجلس ضجة واحدة بجمهوره وخطبائه، يقول الخاقاني في ترجمته: (ولكني لم أستمع له مجلساً غير مرة في اليوم العاشر بكربلا وهو يروي قسماً من شعر ابن نصار الدارج فرأيت في صوته شجاً يمتلك الاحساس ويوقف الشعور فيما إذا كان السامع يرى شخصه نظراً لتلفعه بقدسية وإيمان حادّين)[١]

وكان شيخنا الأسد رحمه الله أديباً لامعاً في اللهجتين الفصيحة والدارجة وكان سريع البديهة في نظم الشعر وربما ارتجل قطعة الشعر بدون تكلف، ومن شواهد ذلك أنه مرض ذات يوم برمد في عينه ففاجأه الشيخ كاشف الغطاء زائراً وعائداً له في داره فارتجل الأسد والشيخ على عتبة الباب:

ما أسعد اليوم داري　　والأرض تشقى وتسعد
وطأت منها تراباً　　فكان للعين أثمد
لو جئتني قبل هذا　　ما كنت أحتاج أحمد

وأحمد هذا هو السيد أحمد ربيع الحسني الطبيب المشهور المعالج لعينه، ونموذج آخر ذكره الأستاذ غالب الناهي في دراسات أدبية: أن شخصاً من أهالي الناصرية اسمه طالب كانت له صحبة وصداقة معه، فأرسل إليه مبلغاً من المال ليشتري له كتاب (الدمعة الساكبة)، ولما استلم المال توهم أنه صلة وهدية من صديقه كما هو المألوف، ولكن لم تمض إلا أيام حتى طالبه طالب بالكتاب، واتضح للشيخ حقيقة الأمر، فما كان منه إلا أن اشترى الكتاب ووضع المبلغ فيه وكتب عليه:

---

(١) شعراء الغري ١/٣١٤

جائت دنانيرك عفواً لنا فقلت هذي صلة واجبه
ومذ بها طالبت ياطالب أرسلتها بالدمعة الساكبه

ومن ذلك مارواه السيد المترجم أن المرحوم الشيخ أسد لاطف الشيخ كاشف الغطاء بالبيتين التاليين:

أباحليم أنت عينُ الحياة واردها يحيى مع الدهر
وكلّنا يبغي وصولاً لها ولم يفز منّا سوى الخضري

يعني الشيخ عبد الغني الخضري وكان من حاشية الشيخ وأخصائه والتورية غاية في اللطافة، إذ أن الروايات تنطق بأن الخضر عليه السلام شرب من عين الحياة وبقي حياً مدى الدهر.

وذكر له الأستاذ علي الخاقاني في ترجمته بموسوعة شعراء الغري قصيدة عامرة في رثاء السيد أبي الحسن الأصفهاني تقع في خمس وعشرين بيتاً قال في مطلعها:

لرزئك وقع في الورى دونه الحشر وفقدك أبقى الحزن وارتفع الصبر

ومن أشهر مؤلفاته الموسوعة العملاقة الامام الصادق والمذاهب الأربعة في ستة أجزاء، وأتذكر أنه أملى عليَّ الجزء السابع وكتبت له فصولاً كبيرة منه ولاأدري مصيره اليوم ولابد أن يكون محفوظاً عند أنجاله الكرام مع بقية مؤلفاته المخطوطة الأخرى.

وهذا الأسد العالم المؤرخ والخطيب الأديب من أبرز أساتذة السيد المترجم، ومن أقرب الناس إليه والقائمين على توجيهه ودعم مسيرته، وكان يجله غاية الاجلال، ويوقره منتهى التوقير ويشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه وحصافة رأيه يقول في مقدمة المصادر: ولايفوتني بهذه المناسبة أن أثني أحسن الثناء على (أسد آل حيدر) سلّمه الله، فكم

شجعني على مواصلة هذا العمل، وحثني على الجد في اتقانه وكم جعل في متناول يدي من أمهات المصادر، ومختلف البحوث المتعلقة بهذا الموضوع، ودلّني بمعلوماته القيمة، وخبرته الواسعة على موضع الفائدة منها فجزاه الله عني خير مايجزي به الواصلين لأرحامهم[(١)]

٤ . العلاّمة الورع التقي أبو الفرج الشيخ علي المرهون القطيفي. عالم جليل، وخطيب واعظ، وأديب شاعر، ومؤلف ماهر. ولد في النجف الأشرف سنة ١٣٣٤ هـ . ١٩١٥م

زرته في داره بطرف المشراق في النجف الأشرف زيارتين إحداهما بصحبة العلامة المقدّس الشيخ محسن الشيخ حسن البزوني رحمه الله، وكانت بينهما صداقة حميمة، والأخرى مع السيد المترجم. فكان مصداقاً لقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

المرء مخبوء تحت طي لسانه لاتحت طيلسانه، أو القول الشهير الناس مخابر لامناظر، فلعمري لقد كان هذا العلم لم يعط بسطة في الجسم، ولكن الله وهبه بسطة في العلم وعوضه موهبة الفكر، وهذا هو الشرف والخلود، ومالجسم إلا الفناء والزوال.

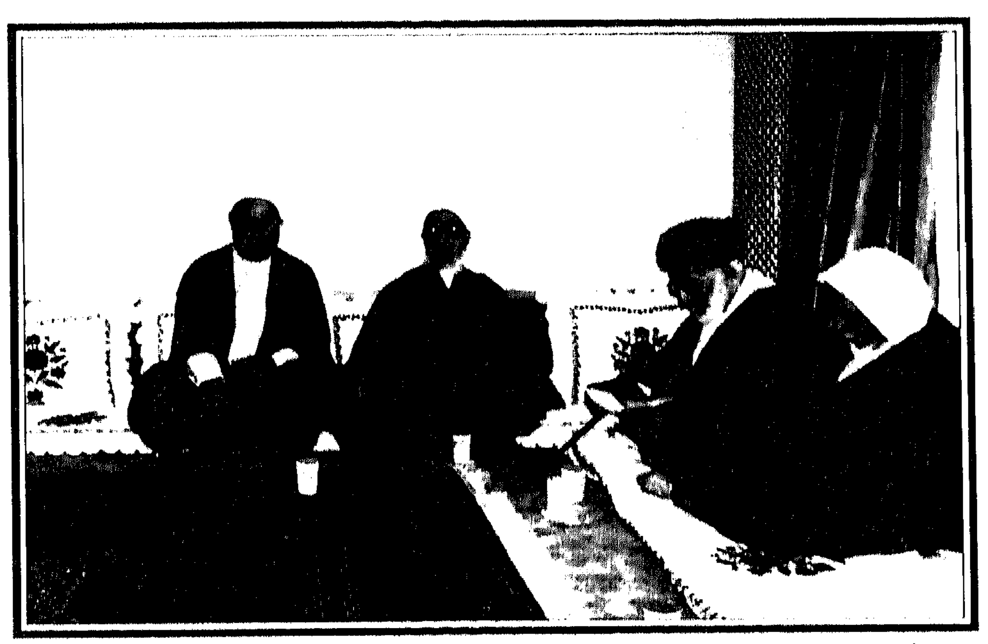
لقد كان الأستاذ أبو الفرج القطيفي من أجلاء العلماء وافاضل الحوزة وأكابر المؤلفين، ولوامع الشعراء والأدباء وأساتذة خطباء المنبر الحسيني، إذا تحدث إليك ملأ عليك القلب إيماناً وسكينة وهدوءاً، وإذا أصغيت لحديثه لم يزدك إلا اقبالاً وبشاشة ولم تلق منه إلا لساناً مهذباً دافئاً.

وقد يتبادر إلى ذهنيات العامة أن الابدال والعظماء والمبدعين

(١) مصادر نهج البلاغة ١/١٧



السيد المترجم، الشيخ الاحقاقي، الحاج حسن فردان.



من اليمين: الشيخ علي المرهون، السيد المترجم، الشيخ الاحقاقي، الشيخ مرتضى الساعدي.

المتميزين من البشر لابد أن يكونوا عمالقة الأجسام، ضخام الهياكل الجسدية، ويحضرني في هذا السياق ماحدثني به سماحة الأستاذ الباحث الكبير الشيخ باقر القرشي والابتسامة طافحة على وجهه، أنه كان جالساً ذات يوم بمكتبة المعرفة لصاحبها الحاج عبد الحسين معرفة في مدخل سوق الحويش في النجف الأشرف إذ جاء رجل من أهالي البصرة يسال بلهفة عن كتاب حياة الحسن للقرشي فقام صاحب المكتبة ليأتيه بالكتاب، فداعبه الشيخ القرشي مؤلف الكتاب قائلاً: ماتفعل بهذا الكتاب؟! إن مؤلفه لايفهم شيئاً!.

وكانت البسطة الجسدية لسماحة الشيخ لاتوحي بأنه صاحب هذه العبقريات والانجازات الضخمة. يقول الشيخ القرشي فما كان منه إلا أن غضب وانتفخت أوداجه وصرخ في وجهي بمصطلح محلي عراقي رديفه الفصيح إخرس. ولولا تدخل الحاج عبد الحسين واخباره بأني مؤلف الكتاب لوقع مالايحمد، فوقع الرجل على يدي يقبلها معتذراً عما بدر منه من جرأة وتطاول!!.

ومثل ذلك حدث للشيخ أسد حيدر رحمه الله في مكتبة التربية ببغداد عندما جاء رجل يسأل عن كتابه الامام الصادق والمذاهب الأربعة وإن كان الشيخ مهيب الطلعة، وقور الشخصية، غير أنه كان يعتمر الكوفية والعقال المتداول فمثله كمثل عامة الناس من حيث المظهر الخارجي، وأمثال ذلك كثير بأن مقاييس الجماهير العامة وتقويمهم للشخصيات المرموقة غالباً مايتأثر ببسطة الجسم وصباحة الوجه وطول اللحية وهيبة المظهر ولكن قد فاتهم أنه:

رُبَّ شخصٍ كالثورِ فهماً سوى أنَّ على رأسِهِ ترفُّ العمامه
وإذا مابلوته عندَ خطبٍ تبصرُ الجهلَّ خلفه وأمامه

وقد تزدري عامة الناس، وتنظر بعين الاحتقار لشخص لايمتلك بنية جسدية، أو مظهراً خلاباً، أو بريقاً خارجياً، ومايدريهم أن يكون ذلك من أولياء الله أو من العباقرة والأفذاذ.

وسماحة الشيخ المرهون من أهالي القطيف الكرام الذين هم كتلة من الذوبان في حب أهل البيت عليهم السلام، وأمثلة نموذجية للولاء الصادق المطلق، بيد أن الله عز وجل جعل الطابع العام لأشكالهم الخارجية خالياً من ضخامة الجسم ومفتقراً إلى بسطة الجسد وقد وصفهم شاعر ساخر من الخليج ببيت خبيث من الشعر قال فيه:

بنت وردان في زوايا الكنيف ذكرتني أشكال أهل القطيفِ

ونعود إلى القول أن السيد المترجم تلقي بعض علومه وانتهل بعض معارفة عن طريق التلمذة على يد هذا الأستاذ الجليل واستمر صديقاً حميماً له حتى آخر أيامه.

٥ . العلاّمة الفاضل السيد سعدون البعّاج وهو من تلامذة الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والسيد عبد الهادي الشيرازي وممن حضر أبحاثهم ودروسهم[١] وكان من فرسان المنبر الحسيني، تمتاز مجالسه بالوعظ والارشاد وكانت مجالس البصرة والفاو وسوق الشيوخ وعبادان تستقبله بالحفاوة والاعتزاز ليعلو أعوادها خطيباً موجهاً وعالماً متكلماً.

ولد السيد البعاج في كرمة بني سعيد في الناصرية عام ١٣٢٢ هجـ، وتوفي رحمه الله عام ١٣٨٦ هجـ عن عمر ناهز أربعاً وستين عاماً قضاه بخدمة العلم، وشرف الخدمة الحسينية. وأقيمت مآتم تأبينه في النجف الأشرف بعد أن دفن فيها بجوار أمير المؤمنين عليه السلام،

(١) خطباء المنبر للمرجاني ٢/٣٠ ط ٢

وتبارى الأدباء والخطباء، وتسابق الأساتذة والمثقفون لتأبينه في قصائدهم وكلماتهم، فقد ارتجل الأستاذ الخطيب السيد جواد شبر كلمة في تكريمه وتعداد مآثره وأعقبه الأستاذ الشيخ جعفر الهلالي بقصيدة في رثائه: قال في مطلعها:

أرثيك والقلب المقرح موجع ... والشعر من بين الأضالع يقطع

ويكاد هول الخطب يخرس مقولي ... حزناً وخطبك للأحبة يفزع

وهي قصيدة طويلة تحتوي خمساًوستين بيتاً.

ثم ابنه الخطيب الكبير مهدي السويج بقصيدة افتتحها بقوله:

أسعدون أنت بما حويتَ سعيدُ ... لك في المنابر خُلّد المجهودُ

للفقه والتفسير ترشد لاهياً ... غرته قومٌ للفتاة عبيدُ

كم قد صعدتَ على المنابر واعظاً ... وصدعت في أمر وأنت وحيدُ

فإذا المسامع سلمتك قيادها ... وإذا بمختلف القلوب جنود

ياأسرة البعاج إن فقيدكم ... لن يفن فهو بفضله موجود

وتبعه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الرحيم فرج الله بقصيدة عصماء من تسع وخمسين بيتاً قال في أولها:

حقاً بفقدك لو تفيض الأدمع ... فلقد خبا نجم واقفر مربع

ثم جاء دور الشيخ محمد جواد فرج الله فرثاه بقصيدة من سبعين بيتاً قال في مطلعها:

جرتَ يادهرُ والخطوبُ تكيدُ ... ولباسُ الأسى عليَّ جديدُ

ثم اشترك في تأبينه الشاعر توفيق مهدي، والأديب السيد يحيى البعاج، وابنه الأستاذ أحمد عبد العزيز الدوري بكلمة ارتجالية، وألقى

من بعده الأستاذ محمد رضا عباس الكرماني كلمة ارتجلها بالمناسبة. وهكذا كانت وفاته موضع الأسف والتكريم من قبل محبيه وعارفي فضله، الذين بادروا لمشاركة أسرته الكريمة في مصابه ومشاطرتهم في فقده ورحيله.

وقد أعقب سادة نجباء وأبناء بررة هم السيد عبد الستار والسيد محمود، والخطيب السيد محمد تقي، وكان من زملائنا في النجف الأشرف، وروى لي السيد المترجم نادرة حدثت معه في الكويت، وهو في قافلة متوجهة لحج بيت الله الحرام هو إمامها ومرشدها، كما هي عادته في كل عام، فقد كان يقصد بيت الله في موسم الحج من كل سنة لأربعة عشر عاماً، وكنت ألتقيه هناك بعد هجرتي إلى الكويت عام ١٩٧٦م.

ففي إحدى السنوات وأثناء مرور حملتهم بالكويت نزلوا بإحدى الحسينيات للاستراحة، ولما حان وقت الصلاة تقدم السيد لأدائها جماعة، فأتم به الحاضرون إلا السيد محمد تقي وكان متواجداً هناك افترش عباءته واعتزل الناس وصلى فرادى، فما كان من السيد المترجم إلا أن قصد إليه وهمس في اذنه وهو يصلي بلطافته المعهودة قائلاً لماذا يا... لاتصلي خلفي ولاتأتم بإمامتي أفلا تثق بعدالتي؟! فانفجر ضاحكاً وأكمل صلاته مأموماً بإمامة السيد المترجم.

وهذا الأسلوب من الظواهر البارزة في سلوك السيد رحمه الله إنه يعالج مثل هذه الأمور البسيطة بحكمة وأريحية، وبلا تشنج وضغينة، فتتلطف الأجواء وتصفو القلوب وتعود الألفة لمجراها الطبيعي فيما إذا كان هناك شيء من الخلاف أو الاشكالات على قضية ما.

وأتذكر عندما عزم بعض الشباب ومعهم بعض أئمة المساجد في

الامارات على إقامة صلاة الجمعة بناء على فتوى تخييرية لأحد العلماء، فنظر السيد بعيداً، وحاول مخلصاً تلافي الاحراجات والاشكالات المستقبلية، فقصدهم بشيبته بكل رفق ولين، وقال أقسم عليكم بشيبتي لما اقلعتم عن هذه الفكرة، وكان يخشى الانشقاق والانقسام في صفوف المؤمنين، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى توفي ذلك العالم المرجع الذي يرى جواز اقامتها تخييرياً فوقع المحذور وتورطوا بتوجيه الأمر وهدأت فورة الشباب وربما ندم البعض على عدم الاصغاء والأخذ بالرأي الحصيف لسماحة السيد المترجم.

وفي الواقع هذا كله نتيجة عدم الانضباط والفوضى والتسيب الذي تعيشه بعض مجتمعاتنا في علاقتها بالعالم الديني فالبعض يريد أن يتدخل ويملي حتى الفتوى الدينية والحكم الشرعي على علماء الدين!! لاسيما وأنهم يجدون حفنة من أدعياء العلم والدين يباركون أعمالهم، ويسايرون أهوائهم خوفاًعلى كيانهم من التصدع وعلى مركزهم من الانهيار وهنا مربط الفرس ومكمن العلة.

وهكذا رأينا السيد المترجم يبادر لمعالجة الأمور باستخدام وجاهته الاجتماعية وتأثير كبر سنه بروح العطف والجد تارة وبروح المرح واللطافة تارة أخرى كما همس بأذن السيد البعاج ليلتحق بصلاة الجماعة، وهذه أيضاً من المشاكل الأخرى الشائعة في أوساطنا مع شدة الحرص في النصوص والروايات الواردة عن أهل البيت في إقامة صلاة الجماعة، إلا أننا نختلق في حالات كثيرة أسباب التملص، وطوي الصلاة فرادى بحجة عدم الاطمئنان، أو الدقة الشديدة في عدالة الامام والكل يتذكر كيف أن الخطباء بصورة خاصة كانوا يفترشون عباآتهم في الصحن الشريف ويصلون

فرادى مع وجود أئمة الدين وكبار المراجع في إمامة الصلاة!!

ومن أولى من الخطيب الحسيني في الحفاظ على حرمة المظاهر الدينية ودعوة الناس إليها عملياً وسلوكياً، قبل دعوتهم نظرياً على أعواد المنابر وكم من الخطباء من جمع بين الفضيلتين الامامة والخطابة، ووفق بين فضيلة العلم وأصول المنبر كما كان سيدنا المترجم وأستاذه العالم الخطيب السيد سعدون البعاج.

.....

ومن أساتذته الذين حضر أبحاثهم الخارجية عند تواجده في النجف خصيصاً لهذا الهدف هو الشيخ محمد رضا آل ياسين، والسيد حسين الحمامي، والشيخ عباس الرميثي.

هؤلاء أساتذته للمناهج المقررة، والعلوم الأساسية المعتمدة أما الملكات الذاتية والثقافة الشخصية العامة، ومواصلة التتبع والتحقيق والبحث والتنقيب فكان شغله الشاغل وشغفه المتواصل، فلقد كان الكتاب سمير وحدته وأنيس وحشته، كما كان متنوع الثقافة، عصري الأسلوب، متفتح التفكير، يتلقف الصحف، ويتابع المجلات، ويستمع الأخبار العالمية، ويطلع على البرامج العامة، حتى أصبح موسوعة متحركة في الثقافة، ومخضرماً في العلوم القديمة والحديثة.

وساعد على تكوين شخصيته الثقافية مرابطته بين أحضان الكتب، وأروقة المكتبات، وقاعات المطالعة، منذ نشأته الأولى. وكم كان يتحدث باعتزاز عن تلك المجالس الدورية التي كانت تعقد في مطلع شبابه في بيوت المؤمنين ببلدة الخضر وربما عقدت ثلاثة أوقات في اليوم الواحد صباحاً وعصراً ومساءاً متوزعة على البيوت والأماكن الدينية العامة، وهي أشبه شيء بالمنتدى الثقافي أو المتلقى العلمي حيث

اجتماع أهل الفضل، والتقاء حملة العلم وأرباب المنابر وأعلام الخطباء فيحددون كتاباً معيناً يتفقون على قراءته، فيقرأ أحدهم ويشرح الآخر ويعلق الثالث، ويشكل الرابع وهكذا حتى تنتهي مطالعة الكتاب بتمامه يواصلون عملهم بكتاب آخر في ندواتهم المفتوحة وهكذا دواليك.

ومن ذكرياته رحمه الله عن تلك الحلقات المباركة يقول، عندما فرغنا من قراءة كتاب النصائح الكافية لابن عقيل، أشار علينا الأستاذ السيد كاظم الخطيب تجميد مطالعة أي كتاب آخر لمدة شهر لترسيخ فوائد الكتاب المذكور، واستحضار معانيه، والاستمتاع بلذة طعمه ودسومته!.

ولاتقتصر هذه الندوات على شريحة العلماء والخطباء فحسب، وإنما يشاركها المثقفون والأساتذة أمثال الأستاذ عبد المنعم العكام، والأستاذ دايم الثويني، والأستاذ هاشم الصراف وغيرهم.

ومنذ بواكير شبابه رحمه الله في الخضر كانت مكتبة السيد كاظم الخضري تحت تصرفه وبين يديه تلك المكتبة التي رقدت واختبأت في الزوايا والكراتين في الأيام الأخيرة وقد أطلعني على قسم منها الأخ الفاضل السيد حسين السيد علي الحسيني قبل عشرين عاماً تقريباً.

وعند انتقال السيد المترجم إلى النجف الأشرف احتضنته مكتبة الامام كاشف الغطاء الزاخرة بآلاف الكتب والمصادر، والحافلة بالمخطوطات والنوادر.

ثم أسس مكتبة خاصة في داره لاتقل عن خمسة آلاف كتاب طفحت بأمهات المراجع العلمية، وأنواع المعارف الثقافية. وعند نزوله في الامارات رئيساً لمجلس الأوقاف الشرعي بدبي وإماماً في مسجد

الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، بادر لتأسيس مكتبة عامرة في مجمع الأوقاف واعتنى بصورة خاصة بالكتب التي يستفيد منها الخطباء خلال تواجدهم في المواسم الحسينية حيث محل إقامتهم ومكان استضافتهم في الأوقاف الجعفرية. وقد أوقف من ماله الخاص وهداياه الشخصية كل ماتضمنته تلك المكتبة من كتب قيّمة.

ولاأغفل الاشارة إلى مكتبة الواثق في مدينة بلد بالعراق التي كان ممثلاً دينياً فيها من قبل الامام الراحل السيد محسن الحكيم فقد كان يرتاد تلك المكتبة ويستفيد مما تحتويه من الكتب والوثائق.

وبعد أن أناخ رحله وحط ركابه في دمشق الشام رابط في المكتبة الظاهرية وطالما صحبته إليها ورأيت حفاوة الموظفين واهتمامهم بسماحته بدءاً من مدير المكتبة وانتهاءاً بأصغر موظفيها لما كان يمتلك من التواضع والخلق الرفيع، ثم ينهمك بين الأسفار فيقلب بطون الكتب ويسوّد الصحائف، ثم يدفع بها لبعض الشباب من عشاق شخصيته لتبييض تلك المسودات لقاء أجر معين، وكنا نطلق على أحد الشباب الملتزمين في الكتابة للسيد ومن باب الدعابة بأن فلاناً (كاتب الوحي).

وكان يزور مكتبة المعهد الفرنسي، ومكتبة الأسد الوطنية وغيرها من المكتبات العامة والخاصة منقباً وباحثاً، ومجداً ومجتهداً، ليظفر ببغيته، وينال مراده، ويشبع نهمه العلمي والثقافي.

خطابته:

الخطابة فن قائم بذاته وعلم مستقل بنفسه، يرتكز على مقومات أساسية، وعناصر هامة يحقق توفرها النجاح والتقدم، كالإحاطة الشاملة، والخبرة الموسوعية، وتنوع المعلومات، وتعدد المواهب، والجرأة

والشجاعة، واللباقة، وطلاقة اللسان، ورخامة الصوت، وقوة الحافظة، وتوقد الذكاء، وهيبة الخطيب، وشخصيته المؤثرة، ورصيده في النفوس وشعبيته في أوساط المجتمع.

وقد تحدثنا في فصول مضت عن الخطابة وأصولها وفنونها في أكثر من موقع من هذا الكتاب.

وتتميز خطابة المنبر الحسيني بشكل خاص بميزات خطيرة وهامة منها التجمهر الهائل والحشود المتدفقة التي تتوافد في مواسم عاشوراء وغيرها للتعلم من مدرسة الحسين دروس العز والإباء والشرف والكرامة، وبهذا تمثل مجالس الحسين الوسائل الاعلامية الضخمة، والمحطات التربوية الهادفة، والدورات العقائدية التي تنتمي إليها جماهير المؤمنين لتنتهل منها معاني الخير والاستقامة والخلق الكريم والتمسك بالمبادئ والقيم التي استشهد الحسين من أجلها. وبناء على هذا المفهوم ومن هذا المنطلق يجب أن يتصدى الأكفاء من رجال المسؤولية وأعلام الخطباء لادارة هذه المجالس والمحافظة على حرمتها من الترهل والتسيب، وفتح الأبواب لمن هبّ ودب، بل يجب الوقوف بحزم دون تسلل بعض العناصر المشبوهة، أو أنصاف الخطباء الذين يخلقون لنا مشاكل نحن في غنى عنها، ويسببون لنا احراجات حقيقية ومطبات مخجلة بما يطرحون من أفكار ويعرضون من قضايا استفزازية أو خرافية تعطي الصورة المشوهة عن هذه المؤسسة الدينية الهامة. فما كان المنبر يوماً ملاذاً للفاشلين في الحياة ولا للنفعيين والمرتزقة وأنصاف الرجال، وإنما هو مسؤولية خطيرة كبرى ورسالة مقدسة عظمى، يجب أن تناط بشخصياتها القادرة وأساطينها الكفوءة..

ولايعني ذلك أننا نفرط بطاقات شبابنا الواعد، وطلائع المستقبل،

ولكن يجب أن يكون لدينا مقاييس دقيقة تضع الانسان المناسب في الموقع المناسب، ونعطي كل ذي حق حقه، ويعرف كل انسان حجمه الطبيعي، بلا فوضى وفقدان الموازين العادلة واختلاط الحابل النابل، وتجميد الطاقات الهامة الكفوءة، وحينئذ يتسلل إلى المواقع الأمامية وخطوط المواجهة من لايمتلك المؤهلات اللازمة والامكانيات المطلوبة.

وإذا ماقلبنا السجل الخطابي لسيدنا المترجم نجده مصداق قول الأديب العربي:

مجد الخطيب بأن يكون خطابه　　مثلاً به تستشهد الخطباءُ

فلعمري لقد استمعت لخطابته منذ أيام الصغر في أمهات المجالس، فإذا رقى المنبر ملأه هيبة وقداسة وإذا تناول بحثاً أشبعه تحقيقاً ودراسة، كان ذرب اللسان، فصيح البيان، قوي الحجة، صادق اللهجة، متوقد الذهن، سريع الخاطر، متهجد الصوت، شجي النبرات، لايمل حديثه، ولايسأم مستمعه، يتنقل به من آية إلى حكمة، ومن حديث إلى عبرة ثم لايغفل تطعيم مجلسه بقصص التاريخ، ونوادر الأخبار وعيون الأشعار، والشواهد الممتعة، فإذا ماأحس أنه أطال بخطابه فاجأ المستمعين بنكتة لاذعة، أو حكاية بارعة ليعيد لهم النشاط، ويزيل الملل، ويفتح صفحة جديدة بعذوبة منطقه، وجمال أسلوبه.

وكان رحمه الله يقدس تلك المجالس ويحبها لحد العشق والهيام وسمعته مرة يقول أني لأخشى ألا يكون في الجنة مأتم عزاء للحسين عليه السلام.

وقد كتب رحمه الله في مقدمة الجزء الثاني من كتاب من لايحضره الخطيب فصلاً ممتعاً عن تعلقه بتلك المجالس، وعميق حبه لها وبعض ذكرياته وانطباعاته عن الخطابة والخطباء أقتبس منها مايلي:

والمجالس الحسينية مدرسة سيارة استفاد منها كثير من الناس قديماً وحديثاً، مع اختلاف الأفهام وتباين الأذواق، ومنها أخذوا أصول العقائد، ومعالم الدين وأحكام الشرع، وهي التي غذّتهم العزّة والكرامة، والاستماتة في سبيل الحق، وهي التي علمتهم مكارم الأخلاق، ومحاسن الأداب، والابتعاد عن كل مايمس بالكرامة، أو يدعو إلى المذلة والمهانة.

ومنها عرفوا التاريخ والسير، وأخبار الأوائل، وأحوال الرجال، وغرائب الآثار، وعجائب الأمصار، وهلم جراً.

ولذلك كانت هذه المجالس موضوع عناية الأئمة عليهم السلام، ومحل رعايتهم حتى قال الصادق عليه السلام: «إني أحب تلك المجالس» ولقد سلك العلماء. سبيل الأئمة عليهم السلام في تأييد هذه المجالس وتشييدها فرعوها حق الرعاية وأعطوها كل الاهتمام قولاً وفعلاً، لأنهم عرفوا أنها أساس العقيدة، وقاعدة الإيمان حتى قال الامام المصلح الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء طيب الله ثراه «أما والله لولا تعظيم هذه الشعائر، وقيام أعواد هذه المنابر، لأصبحت الشريعة الاسلامية أموية، والملة المحمدية يزيدية» ولذا نرى أنَّ أعداء أهل البيت والمنحرفين عنهم بذلوا كلّ ما في وسعهم للقضاء عليها فلم يزدها ذلك إلاَّ ظهوراً وانتشاراً، فما ضعفت في بلد إلاَّ وقويت في بلد آخر، ومااختفت في جهة إلاَّ ظهرت في جهات أخرى من بلاد الله العريضة الطويلة واذكر لك نماذج من اهتمام العلماء بهذه المجالس:

لقد رأيت الإمام كاشف الغطاء عطر الله مرقده أيام ملازمتي له إذا جاء إلى مدرسته المعلومة في النجف الأشرف لايتعدّى بضع

خطوات من باب المدرسة إلى غرفته الخاصة، ولايأتي الجهة المقابلة لها إلاّ إذا أقام أحد الطلاب مجلساً للعزاء وسمع القارئ ابتدأ بالقراءة فحينئذ يترك عمله، ويدع مافي يده فيأتي الغرفة المقام فيها العزاء، ويجلس عند الباب، وكان رحمه الله رقيق القلب، سريع الدمعة وكأني أنظر إلى قطرات عينه تنهمر على لحيته المباركة كأنهن خرزات نظم ينحدرن، مع أن القارئ . في أكثر الأحيان . من المبتدئين، ولايتجاوز الحاضرون عدَّ الأصابع.

كما أني رأيت المرحوم الشيخ محمد رضا آل ياسين، وهو من العلماء الربانيين، تذكرك بالله رؤيته، وتنفصل من العالم المادي تماماً بمجرد النظر إلى طلعته البهية، وشيبته المباركة، نعم رأيته في ليلة الجمعة في حرم أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صلاة العشاء متوجهاً إلى القبلة، آخذاً في التعقيب، فجاء أحد المبتدئين، ووقف خلفه واندفع يذكر مصيبة الحسين عليه السلام فترك الشيخ الاستقبال وماهو عليه من التعقيب، وتوجه إليه منصتاً في غاية الخشوع.

وفي وصية الشيخ المامقاني أعلى الله مقامه لولده: وعليك بني بإقامة عزاء الحسين عليه السلام في كلّ ليلة فإن لم تتمكن فأجمع عيالك واتلو عليهم ماجرى على الحسين عليه السلام.

وسمعت ممن أثق به أن السيد عبد الهادي الشيرازي قدّس سره كان يجمع عياله في أكثر الليالي ويذكر لهم طرفاً من مصيبة سيد الشهداء عليه السلام.

ذلك لأنهم عرفوا فضل المجالس، وعظيم فائدتها (ولا يعرف الفضل إلاّ ذووه).

وكان لي صديق لايزال على قيد الحياة، وهو ذو ثقافة عالية، واطلاع واسع، وأدب جم وكان كثير المطالعة والمراجعة ويتقن الانكليزية والفرنسية مضافاً إلى لغته العربية يقول:

كم قرأت من الكتب باللغات الثلاث فلم تؤثر في نفسي أثر المجالس الحسينية التي كنت أحضرها في مقتبل عمري، وأيام شبابي:

وأنا أقول: كم قرأت من الكتب فلم تترك في نفسي أثر تلك المجالس التي كنت أحضرها في طفولتي وريعان شبابي، وكنت ولاأزال أرى أطيب أوقاتي، وأسعد أيام حياتي حضور تلك المآتم خصوصاً إذا كان الذاكر يجيد هذه الصنعة، ويتقن هذا الفن، وذلك مادعاني أن أتخذ من الخطابة مهنة فخدمت المنبر أكثر من خمسين عاماً، وبلغ من حبي لها، وشغفي بها أني لو خيرت بين أعلى المراتب الدينية، وأسمى المناصب الدنيوية وبين أن أكون خطيباً ناجحاً لما اخترت عليها غيرها، وماتركتها حتى تركتني، ومارغبت عنها حتى رغبت عني بسبب كبر سني، وضعف بدني، ونسيان أكثر محفوظاتي، فكنت كذلك الشاعر الذي قيل له: لم تركت الشعر؟ فقال: يأباني جيده وأأبى رديئه، وأسأله سبحانه أن يتقبل خدمتي، ويجعلها في ميزان عملي، ويحشرني في زمرة خدام سيد الشهداء صلوات الله وسلامه عليه، كما أسأله عزّ شأنه أن يعفو عن الهفوات التي زل بها اللسان أو سها عنها الجنان.

ومهنة الخطابة شاقة فالله تعالى يريد منا الصدق في القول، والاخلاص في العمل، وأن نكون عاملين بما نأمر، ومنتهين عما ننهى.

وقد سمعت أن الشيخ جعفر التستري طيب الله ثراه جاءه عبد

مملوك لأحد المؤمنين الذي يحضرون مجلسه فقال: إن مولاي لايسمع منك موعظة إلاّ وعمل بها واطلب منك أن تذكر فضل العتق وثوابه لعله إذا سمع ذلك اعتقني فوعده خيراً، وجعل ذلك العبد يتردد على مجلس الشيخ فلم يره تعرض للعتق ولاذكره من قريب ولابعيد، فظنَّ أن الشيخ رحمه الله نسي ما وعده به، ومرّ على القضية مايقارب الستة أشهر فسمعه ذات يوم يذكر العتق وفضله وثوابه، فلما عاد سيده إلى منزله قال له: أنت حرّ لوجه الله تعالى، فذهب العتيق إلى الشيخ وشكره على مافعل، وسأله عن السبب في تأخره عن ذكر العتق هذه المدة فقال رحمه الله: لايزال طلبك على بالي، ولم أنس وماوعدتك به، ولكني كنت ألزمت نفسي أن لاآمر الناس بشيء إلا وسبقتهم إليه، ولانهيتهم عن شيء إلاّ وتناهيت قبلهم عنه، تأسياً بأمير المؤمنين عليه السلام، وأنا منذ طلبت إليّ ذلك جعلت أقتطع من مؤنتي كل يوم شيئاً حتى اجتمع عندي من المال مااستطيع أن أعتق به مملوكاً فاشتريته وأعتقته ثم تكلمت في العتق.

ومن شغفي بالمجالس وحبي لها أني استمعت إلى كثير من الخطباء الذين أدركتهم أمثال الشيخ محمد علي جسام رحمه الله الذي كان يملك مؤهلات كثيرة يجعلك تنشد إليه ومن تلك المؤهلات أن يصور لك الوقائع والمشاهد التي يذكرها تصويراً فنياً حتى يخيل إليك أنه أحد مواقعيها أو مشاهديها مضافاً إلي مارزق من تهييج العواطف عند التعريج على المصيبة فلا تسمع إلاّ باكياً أو نادباً حتى أن الكثير من أهل المنابر العالية كالسيد صالح الحلي مثلاً يغبطه على ذلك.

والشيخ محمد علي اليعقوبي وكان دائرة معارف يخرج للناس ببعض مافي «صندوقه»[1] من اللئالي التي تعجب النظار، وتكاد تذهب بالأبصار[2].

والشيخ حسن جلو رحمه الله في محفوظاته التي هي من عجائب الأمور حتى سمعت أحدهم يقول: كان الشيخ حسن جلو يستمع إلى قارئ في كتاب، فقال له: بقي من هذه الصفحة كذا سطر ثم تقلبها وكان الأمر كما قال.

والشيخ كاظم نوح رحمه الله في محاججاته العقائدية ومحاكماته التأريخية، وقد قرأت في أحد كتب الأستاذ أحمد أمين صاحب كتاب فجر الاسلام غاب عني اسمه الآن لبعد العهد به ماحاصله قال: وفدت إلى العراق وكان بصحبتي جماعة من الأساتذة وكنا ضيوفاً على الملك فيصل الأول، وأحببنا أن نشاهد المجالس الحسينية فأخذونا إلى أحدها فدخلنا والخطيب على المنبر وهو الشيخ كاظم نوح فقطع كلامه والتفت إلينا فرحب بنا ترحيباً حاراً بحيث وجه أنظار الحضور إلينا، فلما استقر بنا المجلس عاد في كلامه فأخذ فقرة من أحد كتبي يظن أن بها طعناً على الشيعة، وأخذ يرددها، ويعلّق عليها فرأينا الوجوه قد اكفهرت، والعيون قد اشرأبت، وبدت طلائع الشر لنا وخفنا أن يثب المستمعون إلينا، وينكلوا بنا فاضطربت جوانحنا، وارتعدت فرائصنا فأقبل

(١) إشارة الى صندوق اليعقوبي المعروف وهو صندوق كان يرمي به أوراقاً وقصاصات قد دوّن فيها مايعثر عليه من غرائب الآثار، وتحف الأشعار ولايعرف مصير هذا الصندوق اليوم.

(٢) كناية عن جريان الدموع.

إلينا المرافقون لنا فأخرجونا من الباب الخلفي في غاية السرعة، وشكونا ذلك إلى الملك فوعدنا أن يعاقبه على ذلك ولكنه لم يفعل شيئاً.

واستمعت إلى السيد حسن الاسترابادي في كربلاء وغيرها فكان يذكرني باستطراداته، وتنقله من فن إلى فن ومن باب إلى باب بالجاحظ، وكان يمزج الجد بالهزل ليرفع السأم عن المستمعين، ويعيد إليهم نشاطهم.

وعلى هذه الشاكلة من استمعت إليهم من أكابر الخطباء كالسيد حسن البغدادي وأخيه السيد صالح، والسيد سعيد العدناني والشيخ خلف الشيباني، والملا عطية الجمري، وأمثال هؤلاء الذين هم مضرب المثل لكل ورد رائحة، ولكل فاكهة طعم وقد أدركت جماعة من جهابذة الخطباء لم أوفق للاستماع إليهم كالسيد صالح الحلي والملا خضير الحياوي، والشيخ محمد جواد المسيباوي والملا محمد الشطري والملا محمد الجلعاوي، والشيخ أحمد بن رمل، والشيخ سلمان الأنباري ولكن سمعت الشيء الكثير عنهم.

وهناك جماعة انتقلوا إلى رحمة الله قبل مولدي ولكن ملأ سمعي ذكرهم كابن عياش والحاج عباس قوزي والشيخ كاظم حنين السماوي، والشيخ علي الحمامي، والسيد هاشم الهنداوي، والشيخ محمد علي الجابري، والشيخ كاظم سبتي الذي كان الشيخ محمد طه نجف قدس سره يرى أن من أسرار شهادة الحسين عليه السلام كون الشيخ كاظم من الذاكرين له، هذا وهو فقيه الأمة، والمرجع الأعظم في عصره ولايمكن أن يصف انساناً محاباة

أو مجازفة وأمثال هؤلاء كثير رحم الله الجميع، وأسكنهم المكان الرفيع.

ولايمكنني ـ عرفاناً للجميل ـ إلا أن أذكر السيد كاظم الحسيني الخطيب رحمه الله ذاك الرجل الذي صحبته أكثر من عشر سنوات، واستمعت إليه أكثر من عشرين سنة ومازالت أتذوق قراءته، وكان يعرف للمنبر قدسيته وللمجالس حرمتها، مارقى المنبر جنباً طول حياته، ومارقاه بلا وضوء قرابة الأربعين عاماً كما وسمعته يذكر ذلك لبعض تلامذته، ولذا صار موضع اعجاب السامعين لغزارة علمه، ووفرة اطلاعه، وتحسسه بأدواء المجتمع، ومشاكل الناس، ومهارته في وصف الأدوية الناجعة، ووضع الحلول النافعة بالاضافة إلى عذوبة منطقه، وجهورية صوته ورخامته، ووقاره المتناهي واتزانه المنقطع النظير حتى قال في حقه الامام كاشف الغطاء أعلى الله مقامه، وكانت بينهما مودة أكيدة، وصحبة عتيدة: «مارأيت مثله في صلابة ايمانه، وتأثير موعظته» ولو أردت أن أذكر محاسنه، وعبادته واذكاره لطال بي المسير ولكن أسجل واقعتين شاهدتهما بنفسي، والله شاهد على مأقول رايته في ليلة عاشوراء جاء إلى أحد المجالس فلم يتخط عتبة الباب حتى أجهش الناس بالبكاء، وارتج المجلس بالنحيب فوصل المنبر وقد علت أصواتهم على صوته، ولم يتمكن من أسماعهم لأنه لم تكن مكبرات للصوت يومئذ ولم يقرأ إلا بيت واحد باللغة الدارجة، ونزل عن المنبر واستمر الناس بالبكاء مدة من الزمن ليس بالقصيرة، رأيته أيضاً في أحد مجالسه في الناصرية ولاأنسى أنها كانت الليلة الحادية عشرة من المحرم، وهكذا ماج المجلس وهاج حتى رأيت

رجلاً أغمي عليه من البكاء فحملوه إلى خارج المجلس ماأدري ماحدث له بعد ذلك.

وقد قيل: لاينفع الوعظ إلاّ من المتعظ، ولايصح التعليم إلا من العامل وما أحرى بمن يدعو إلى المثل العليا، والقيم الروحية أن تكون متمكنة منه، ويكون متمكناً منها.

هذا وقد تطفل على المنبر أناس لايعرفون للمنبر قيمة، ولايقيمون له وزناً، وإنما اتخذه بعضهم وسيلة للعيش، وسبباً لتحصيل المال، حتى قال رجل من أهل المعرفة، وقد سمع بعض هؤلاء يخبط على المنبر خبط عشواء: إن ظلامات الحسين كثيرة ومنها صعود أمثال هذا على المنبر وأرى أن هذا مصدره التسيب في كثير من الأمور عند هذه الطائفة، فلا رقيب ولاحسيب على كل مايقال ويفعل، ويكتب وينشر، وعسى أن يقيض الله سبحانه لهذه الأمة من يتحمل مسؤولية الاصلاح، فيصلح الفاسد، ويقوم المعوج، ويأخذ على أيدي السفهاء، ويكم أفواه الجهلاء.

* * *

وتخصص السيد المترجم في الخطابة وفنونها على يد الخطيب الكبير السيد كاظم الخضري وعنه تلقى وبه تأثر ومنه استفاد حتى اصبح خطيباً مفوهاً، وعالماً متكلماً تهفو له القلوب، وتنصت له الأسماع، وتشخص له الأبصار معبرة عما في أعماقها من تأثر واستفادة وتقدير.

ورقى الأعواد واعتلى المنابر خطيباً مبدعاً مرموقاً في العراق وخارجه كمآتم البحرين ومجالس الكويت ومحافل لبنان ثم نزل الامارات أخيراً سيد المنبر وأمام المحراب.

نيابة المرجعية العليا:

تمثل المرجعية الدينية العليا في الفكر الشيعي منصب النيابة العامة عن الإمام المعصوم، ويمنح المرجع الأعلى صفة الحاكم الشرعي، ولايتم الوصول إلى هذا الموقع الخطير والمركز الحساس عبر انتخاب جماهيري، أو ترشيح برلماني، أو قرار وزاري، أو غير ذلك من الوسائل المألوفة في العزل والتعيين للوظائف والمناصب العامة، فقد أسبغ الفكر الإمامي على شخصية المرجع صفة القداسة، والتبرعم التلقائي والانبثاق من قاعدة: (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[1] وفق ضوابط ومقاييس شرعية تتعلق بالعلم والفقاهة والخبرة والعدالة.

وفي نظرة متأملة تتسم بالوعي والعمق لمؤسسة المرجعية الدينية عند الشيعة يتجلى لنا أنها الكيان المستقل والأيديولوجية الرائدة في زمن الغيبة، لربط المجتمع بالقيادة الشرعية عبادياً وعملياً، وقد أحال أئمة أهل البيت عليهم السلام، الجماهير العامة والقواعد الشعبية العريضة إلى الرجوع للممثلين والنوّاب عنهم عليهم السلام وهم الفقهاء العدول من المراجع الدينية العليا في إدارة شؤونهم العامة.

وتميزت هذه المؤسسة الدينية الكبرى باستقلالية القرار، وعدم الارتباط بأية مؤسسة سياسية، أو كيان رسمي كالمؤسسات والوزارات التي تشرف على الأوقاف والشؤون الاسلامية، فهي الوجود والكيان المستقل فكرياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وله كوادره وأجهزته وقنواته الخاصة المستقلة.

(١) الأنعام / ١٢٤

ومن الجدير بهكذا مؤسسة حيوية أن تشرف على ادارتها ونشاطها وسائر شؤونها لجان محورية متخصصة تمارس العمل المؤسساتي بروح الانفتاح والمسؤولية لتبقى التجارب والخبرات متواصلة للأجيال المتعاقبة، والافادة من المسيرة الطويلة في معترك الحياة وغمار المجتمع.

وبغير ذلك سوف تحجم المسؤولية العظمى لهذا الكيان الشريف وتحبط كل الجهود الشاقة، والخبرات الطويلة، ويتعين - حينئذ - على المرجع الجديد الآخر أن يبدأ نشاطه من نقطة الصفر، ويعود القهقرى إلى تأسيس بناء جديد يحتاج إلى مزيد من العناء وسعة الوقت لتحقيق الأهداف الدينية والآمال والتطلعات الاجتماعية.

وقد أشار إلى هذا المعنى سماحة السيد فضل الله في كلمته التي ألقاها في تأبين السيد المترجم حيث قال مخاطباً الجمهور: أتعرفون ماهي مشكلة الكثير منا على مستوى المرجعيات، وعلى مستوى المصلحين، وعلى مستوى المثقفين، أن كل واحد منا يحاول أن يبدأ من نقطة الصفر، وهو يريد أن يبدأ، أما كيف بدأ الآخرون وكيف يكمل مابدأه الآخرون فهذا أمر لانتعرف عليه، قولوا لي في كل مرجعياتنا، ونحن نعيش الآن فوضى المرجعيات، قولوا لي عندما توفي السيد أبو الحسن الأصفهاني أين تراثه؟ هل سلم للمرجع الثاني؟ أو أنه احتفظ به أولاده؟ أين رسائله؟ أين كل ماتحرك فيه؟ وهكذا السيد محسن الحكيم، والسيد الخوئي وكثير من مراجعنا، كل مرجع يأتي يبدأ من نقطة الصفر، لايحاول أن يكمل في نفس الموضوع مابدأه، نحن نكرر كتبنا، نكررها تماماً كما تكرر الطبعات، لننطلق على أساس أن من سبقنا بذل جهداً كبيراً، واجتاز مرحلة فعلينا أما أن ننقد ذاك الجهد ثم ننطلق لنتابع جهدنا فيما نريد أن نجدده أو نريد أن نحركه، هكذا حتى



السيد المترجم، السيد محمد حسين فضل الله، المؤلف.



السيد المترجم، السيد مضر الحلو، السيد عبدالله الغريفي.

تكون المسيرة مسيرة تستطيع أن تجعل كل الأجيال التي تمر بها أو تواكبها أو تعيشها أن تجعلها مراحل تعطي كل مرحلة ماعندها للمرحلة الأخرى لتتكامل المراحل، ولتنطلق لتتجمع أمام الهدف الكبير[1].

واتخذ الهيكل العام لبناء كيان المرجعية العليا موقعاً مركزياً، ومقراً رئيسياً، غالباً مايكون في الأماكن المقدسة، ومراكز الدراسات الدينية، يتفرع عنه نظام الوكلاء والمندوبين والممثلين الذين يتوزعون على الأقطار والأمصار، وتتفاوت درجات ومستويات هؤلاء الوكلاء علماً وثقافة وإدارة اجتماعية.

وكان لسماحة سيدنا المترجم تاريخ عريق في هذا الميدان فهو موضع الثقة المطلقة لأكابر العلماء، ومراجع التقليد والفتوى منذ زمن بعيد ابتدأ من الإمام كاشف الغطاء الذي تحدثنا على علاقته المتيمزة به، ومروراً بالإمام الشيخ محمد رضا آل ياسين الذي عددناه من أساتذته وكان يحضر دراساته العليا المصطلح عليها بالبحوث الخارجية، ثم انتقالاً إلى الإمام الراحل السيد محسن الحكيم الذي بعثه ممثلاً رسمياً عنه إلى قضاء بلد في منطقة سامراء بجوار سبع الدجيل السيد محمد بن الإمام علي الهادي عليه السلام، على أثر خصومات وفتن اشتعلت بتلك المنطقة بين الأهالي ذهب ضحيتها عدد كبير من الفريقين المتصارعين وتدخلت المرجعية العليا لفض الخصومة، وانخماد أوار تلك الفتنة، فأرسل السيد الحكيم نجله الشهيد المغفور له السيد مهدي الحكيم وهو ممن عرف بحصافة الرأي، وانفتاح التفكير وقوة الإدارة،

---

(١) مجلة الموسم - العدد العشرون لسنة ١٩٩٤ - صفحة ٢٦٠

ومع ذلك بقي الفتيل مشتعلاً مايقرب من ثلاث سنوات، وأخيراً وقع اختيار المرجعية على السيد المترجم لما يمتلك من خبرة اجتماعية وأعراف عشائرية وشخصية مؤثرة، فتصدى لهذه المهمة، واستطاع بصدق النية وإخلاص الطوية، وتوفيق الله أن يحسم النزاع، ويطفأ النار، ويقتلع الغل من القلوب لتعود إلى صفائها وتعيش حالة المحبة والتعاون، وتنبذ الأحقاد والضغائن وراء ظهورها، وأصبح منذ عام ١٩٦٧م الوكيل الديني لمرجعية الامام الراحل السيد الحكيم طاب ثراه، فقام بأعباء ومسؤوليات وكالته خير قيام، وبادر لتنفيذ العديد من المشاريع والخدمات كبناء جامع المدينة وتشييد حسينيتها، وتأسيس مكتبة عامة، وبناء جامع وحسينية الزهراء في حي الزهراء على مقربة من سبع الدجيل، بالاضافة إلى إرشاده وتوجيهه وتعليمه للجماهير المؤمنة في المنطقة، ورجوعهم إليه في قضايا الأحوال الشخصية.

وبعد رحيل الامام الحكيم مثّل الامام الخوئي، وقصده السيد الخوئي زائراً وحلّ ضيفاً كريماً عليه في بيته ببلد عند زيارته لأئمة الهدى في سامراء عام ١٩٧٦م، وكانت بينهما علاقة ودية خالصة، وكان السيد يجله غاية الأجلال، كما كان موضع اعتماده وثقته.

ثم تبلورت علاقته بالسيد الشهيد الصدر رضوان الله عليه على الصعيد العلمي والمسؤولية العامة وكانت بينهما بعض المذاكرات والهموم المشتركة.

وبعد مرحلة الهجرة كان وكيلاً شرعياً لعدد من المراجع العظام كالسيد الگلبايگاني، والسيد السبزواري، وأما الإمام الخميني قدس سره فكان في ضميره ووجدانه نبضاً حياً يكن له كل مشاعر المحبة والولاء.

يقول الشيخ الناصري في كلمته التأبينية: (كان أحد أهم وأكفأ وكلاء المرجعية الدينية، ولسانها المعبر خلال ربع قرن أو تزيد).

وهكذا استمر يواصل دوره ونشاطه، ويمارس خدماته في ظلال المرجعية العليا حتى أواخر أيامه منتدباً في دولة الإمارات العربية المتحدة.

آثاره الخالدة:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

١ ـ مصادر نهج البلاغة وأسانيده:

من المتعارف أن تشتهر بعض الشخصيات وكثير من الأسر بأسماء بلدانهم وانتماءاتهم الجغرافية فيقال البغدادي والدمشقي والحجازي والبعلبكي والكربلائي والكوفي والبصري والجزائري والقزويني والكيلاني والقرطبي والأندلسي والطوسي وهكذا، وهناك من يلقب بالانتماء العشائري لقبيلة معينة كما يقال فلان التميمي والأسدي والكناني والخزرجي والحميري والخزاعي والقرشي وغير ذلك. بينما تشتهر طائفة أخرى بمهنتها وعملها كلقب الصائغ والخياط والعطار والبناء والصابوني والباججي والحمامي وأبي التمن وأبي اللبن وغيرها، ويأتي فريق آخر فيحمل لقب عاهة بدنية عن بعض أجداده كالأعرجي والأحوص والأقرع والأخرس والأعسم والأعمش، ومن الناس من يلقب باسم أحد أجداده كالخليلي وآل نصار وآل الشيخ راضي، وجمال الدين وشمس الدين وآل حيدر وآل الطريحي وهكذا.

ومن بين تلك الألقاب هناك شخصيات وأسر تنتسب لكتاب تلقب به سواء أكان من تأليفها شخصياً، أو من تأليف أحد آبائها وأجدادها مثل كتاب جواهر الكلام للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر الذي امتزج باسمه كامتزاج الروح بالبدن. ومن ثم اشتهرت أسرة الجواهري وعرفت بآل صاحب الجواهر.

وكذلك آل كاشف الغطاء فهم ينتسبون إلى كتاب كشف الغطاء لجدهم الأكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء، واشتهر الآخوند الخراساني بلقب صاحب الكفاية، والملّا صدرا صاحب الأسفار.

وهكذا اشتهر السيد المترجم في أوساط الباحثين والمثقفين ورجال العلم بصاحب المصادر، وبذلك يكون جمع بين الألقاب الثلاثة الحسيني نسبة لدوحته المباركة، والخطيب نسبة لمهنته الشريفة، وصاحب المصادر نسبة لكتابه الكريم (مصادر نهج البلاغة وأسانيده).

وفي دورة سريعة لعجلة الزمن أعود إلى مرحلة صباي الباكر على شاطئ الفرات الذي مرت الإشارة إليه في جلسة سامرة للسيد المترجم، تجاذبت أطراف الحديث البريء مع النجل الثاني لصاحب المصادر وهو الأستاذ عبد الحسين الحسيني، وكنا أتراب صبا وزملاء دراسة فأخبرني باعتزاز إن أبي عاكف على تأليف كتاب يتعلق بنهج البلاغة، فسألته عن عنوانه فقال: (مصادر نهج البلاغة وأسانيده). هذه هي اللقطة الأولى في ذاكرتي عن المصادر ثم تلتها اللقطة الثانية إني كنت أرى السيد المترجم حاملاً بين يديه ملفات الأوراق وملازم التأليف وهو منهمك في الكتابة في مجالسه التي يرقى الأعواد خطيباً فيها، فهو لايفرط في الوقت حيث يواصل نشاطه وعمله في الكتابة ريثما يتكامل المجلس ويحين موعد القراءة وصعود المنبر.

واللقطة الثالثة هي اللقطة التنفيذية وذلك حين نزول الكتاب إلى المطبعة في النجف الأشرف، وقد أشرف على تصحيحه ومتابعته الأستاذ محمد حسن عليوي الأخ الأصغر من الأم للسيد المترجم، وهو من أسرة التعليم في المدارس الرسمية، بيد أنه من الفضلاء في الدراسات الحوزوية ومن أساتذة المقدمات ومبادئ العلوم الاسلامية، وأتذكر أنني قرأت عنده شطراً من كتاب المنطق للشيخ المظفر، فكان سلس الأسلوب واضح العبارة نشرت له مجلة التضامن الاسلامي التي كان يصدرها سماحة الحجة المجاهد الشيخ محمد باقر الناصري حفظه الله كثيراً من المقالات والتحليلات كما صدر له كتاب بعنوان: هكذا تحدث أبو تراب، وعلمت أخيراً أنه يقيم صلاة الجماعة بمسجد الشيخ الناصري، فكان هذا الأستاذ الجليل مشرفاً على طباعة المصادر في طبعته الأولى في النجف الأشرف لكونه على مقربة من مطابع النجف والسيد المترجم يعيش خارجها مشغولاً في مهامه الدينية، وخزّن الكتاب بعد الفراغ من طباعته في دار الشيخ كاظم عليوي بفضوة المشراق، ومن هناك تسلمت نسختي الأولى المهداة إلي من صاحب المصادر والترجمة وكانت بغلاف ملون عادي دون تجليد فني كما عليه الطبعات الأخيرة من أناقة الطبع وفن التجليد وجمال الاخراج.

وجدير بالإشارة إلى أن الشيخ كاظم عليوي رحمه الله كان ملازماً للسيد المترجم ملازمة الظل في الحل والترحال، وخصوصاً في مواسم عقد مآتم الحسين وإقامة عزاءه في عاشوراء وغيرها كان يصحبه في تقديم القراءة الحسينية، وكان يتفانى في حبه وخدمته ولاننسى أنه الشقيق الأكبر للأستاذ محمد حسن عليوي السالف الذكر وكذلك هو الأخ الأصغر للسيد المترجم عن طريق الأم فقط، وسوف أفرد له

ترجمة مستقلة في الأجزاء القادمة إن شاء الله باعتباره من خطباء المنبر الحسيني.

أضواء على المصادر

في الدراسات المعاصرة يعتبر علم التوثيق وفن الفهرسة وتثبيت المصادر من العلوم والفنون الهامة، لقطع دابر الشبهات والشكوك التي قد تحوم حول بعض المؤلفات والوثائق التاريخية المهملة المصادر المعتمدة والمراجع المؤكدة.

ولقد امتدت يد التطاول على حرمة نهج البلاغة، وشككت في نسبته للإمام علي عليه السلام، وزعموا أن أحد علماء الشيعة وهو الشريف الرضي الذي اخترع هذا الكتاب ونسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فتصدى سيدنا المترجم لنسف هذا الهراء باثباته الأرقام التاريخية لمصادر نهج البلاغة من بطون الأسفار الموغلة في القدم قبل أن يخلق الشريف الرضي. ولايخفى أن السبب الرئيسي من وراء هذه الهجمة الشرسة والتحامل على شخصية الشريف الرضي والتطاول الوقح لابن خلكان ومن لفّ لفّه ونسج على منواله كاليافعي والصفدي والذهبي وأضرابهم هو وجود الخطبة الشقشقية في نهج البلاغة التي عبر الإمام عنها بأنها شقشقة هدرت ثم قرت والتي تتعلق بتقويم الهياكل السياسية وأيديولوجية الادارة والحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ووضع النقاط على الحروف للأحداث المروعة والردة الجاهلية، والمؤامرة المدبرة التي اجتاحت البيت الطاهر وأبعدت الامام علي عن مسرح القيادة وأقصته عامدة عن موقع الخلافة والإدارة والحكم الاسلامي.

يقول السيد المترجم في تحقيقه لهذه الخطبة: (وتكاد أن تكون هذه

الخطبة هي الباعث الأول والسبب الأكبر لمحاولة تزييف نهج البلاغة بإثارة الشبهات الواهية حوله، وتوجيه الاتهامات الباطلة لجامعه حتى أدى ببعضهم الجهل أو التجاهل، وإن شئت فقل العناد والمكابرة إلى اتهامه بوضعها وماعلموا أن هذه الخطبة بالخصوص مثبتة في مصنفات العلماء المشهورة وخطوطهم المعروفة قبل أن تلد الرضي أمه[1].

وقال في تعليق آخر: (إن المعركة حول نهج البلاغة منذ أن نشبت إلى يوم الناس هذا وإن اصطبغت بصبغة أدبية في ظاهرها، ولكنها مذهبية في باطنها، ونستطيع أن نقطع أن هذه الخطبة هي من أعظم الأسباب التي دعت لإثارة تلك الشكوك في نهج البلاغة[2].

وتقدم السيد لنزول ميدان هذه المعركة العقائدية والعلمية والأدبية بجدارة الخبير ومهارة البصير، فهو المولع منذ نعومة أظفاره بهذا السفر الخالد، وهو الذي يستظهر رصيداً كبيراً من خطبه ونصوصه كما يستظهر فاتحة الكتاب، إضافة إلى بيئته وأساتذته المغرمين بنهج البلاغة، وقد سجل السيد تاريخ علاقته الوثيقة بالنهج في مقدمة مصادره فقال:

كنت مولعاً بكتاب نهج البلاغة منذ حداثة سني، أجعله سمير وحدتي، وأنيس وحشتي، أستظهر فصولاً من خطبه وأحفظ قطعاً من رسائله، وألتقط درراً من حكمه، وكان هذا الولع يتضاعف كلما إتسعت مداركي وتضاعفت معلوماتي ومن أجل ذلك أبحث عن كل مايتعلق به، وماكتب حوله وبطبيعة الحال إطلعت على تلك الأوهام التي أحاطت به وفي مقدمتها (إن الذي جمعه هو الذي وضعه)

(١) مصادر نهج البلاغة وأسانيده ١/ ٣٠٩

(٢) المرجع السابق ١/ ٣١٨

فصرت كلما عنَّ لي شيء من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في الكتب المؤلفة قبل صدور النهج أو بعده ولكن مع القطع أنه لم يؤخذ عنه، أشير إليه بمجموعة خاصة، حتى اجتمع عندي بتيسير الله تعالى على طول الأيام ومر السنين مايصح أن يجعل كمصادر لنهج البلاغة ومايثبت أن جامعه ليس له فيه سوى الجمع والاختيار والترتيب والتبويب، وسترى في هذا الكتاب ـ والمقصود المصادر ـ أن كل ماحواه النهج مروي عن أمير المؤمنين، مشهور النسبة إليه، وإن كل أولئك الذين تطاولوا على نهج البلاغة أو تحاملوا على جامعه، إن هم إلا قوم دعاهم داعي الهوى فأجابوه، وقادهم التعصب الأعمى فاتبعوه ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون﴾[1][2].

٢ ـ مصادر الخلاف:

يعتبر كتاب الخلاف للشيخ الطوسي من أهم الموسوعات التي ألفت في الفقه المقارن، فهو يستعرض الآراء الفقهية في المسألة الواحدة عن فقهاء المذاهب الاسلامية عموماً، مثبتاً الرأي الفقهي واستدلاله من الكتاب والسنة ولكن دون الإشارة إلى المصادر المعمول بها إسلامياً.

وبلا شك أن عملاً بهذه الضخامة يتطلب شخصية موهوبة في إمكانياتها وطاقاتها الاستثنائية.

وانبرى السيد المترجم للقيام بهذه المهمة الشاقة وعرض الأمر على

---

(١) الأنعام / ١١٢

(٢) نفس المصدر ١/ ١٥

الشهيد الصدر قدس الله نفسه الزاكية وجرت بينهما مذاكرات حول هذا العمل الضخم، وأطلعه على ما تمّ إنجازه من التوثيق والتحقيق، فبارك السيد الشهيد هذا الجهد الكبير ونال منه الاعجاب والتقدير.

يقول السيد المترجم في شرح الشرايع في معرض اشتراط الوضوء بالماء المطلق عند الفقهاء مانصه: هذا وسمعت من السيد الشهيد عطر الله مرقده، أثناء مذاكراتي معه في بعض المطالب في كتابي (مصادر الخلاف للشيخ الطوسي) قال - يعني السيد الشهيد - يمكن أن مراد الصدوق رحمه الله (ماء الوِرد) بكسر الواو وهي المياه الراكدة التي تردها السوام فيتغير لونها من كثرة الورود ومايخالطها من الفضلات وغيرها[1].

ولكن من المؤسف أن الكتاب بقي في مكتبته التي صوردت بعد هجرته إلى خارج العراق وتلك خسارة علمية كبرى.

٣ ـ مئة شاهد وشاهد:

في جداول الحضارة الاسلامية الشيعية تبرز أسماء مدوية وأرقام نافرة لعمالقة الشعر وفحول الشعراء وفرسان الأدب العربي.

وقد أفرزت ظروف النكبات المتلاحقة والقهر المتواصل والقمع والإبادة والحرمان في صفوف هذا الجناح الاسلامي الكبير كما هائلاً من أساطين الشعر والشعراء كأبي تمام الطائي، وأبي العلاء المعري، وأبي فراس الحمداني، وأبي الأسود الدؤلي وأبي نواس، ودعبل الخزاعي،

(١) شرح الشرائع ٣١/١

والكميت الأسدي، والسيد الحميري، وابن الرومي، والفرزدق، والمتنبي وغيرهم، وقديماً قيل:

وهل رأيت أديباً غير شيعيٍّ

وبطبيعة الحال ان النكبات والضغوط المتعسفة تلد الذين يعبرون عن محنة المجتمع، وتفرز الذين يعكسون آلامه وأحزانه، ويدافعون عن حقوقه المهدورة وإذا ما أجرينا عملية مسح واستقراء للطلائع المتقدمة من الشعراء نجد أن معظمهم والنسبة الغالبة منهم ممن ينتسب لمدرسة أهل البيت، ويؤمنون بخطهم وإمامتهم، وإن كان البعض لم يعلن ذلك ولم يصرح خوف الموت وقطع الألسن كما اشار أمير الشعراء أحمد شوقي في قوله:

وأنت ماذكرت الحسين تصامت لاجاهلاً موضعه

أحب الحسين ولكنني لساني عليه وقلبي معه

حبست لساني عن مدحه حذار أمية أن تقطعه

وهو القائل ايضاً:

ما الذي نفرَّ عنّي الظبيات العامرية

ألأني أنا شيعيٌّ وليلى أموية

واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

وقد حاولت شبكات التخريب والعناصر المشبوهة التلاعب بالنصوص وحذف بعض الأشعار أو عدم الإشارة إليها في الشروح والتعاليق والمذاكرات بتأثير عوامل التاريخ السياسي، فلا يطرح للشاعر الفلاني إلا شعر التغزل بامرأة حسناء، أومديح طاغوت متفرعن، أو وصف لحفلة ماجنة. أما عن الشعر المتعلق بالإشادة بحملة المبادئ

ورواد الحق والعدل فمصيره الاغفال والتجاهل، وإلقائه في بوتقة النسيان والتنكر، وقد تبلغ الوقاحة أو التعصب أو المداهنة أو الارتزاق ببعضهم إلى حذف بعض القصائد أو المقاطع الشعرية ومحوها كلياً من داووين الشعراء لأنها تتأثر بفكر أهل البيت عليهم السلام وتتعلق بحبهم ومودتهم، ولعمري تلك خيانة من أقذر أنواع الخيانات للأمانة الأدبية والتاريخية، وليس هذا على مستوى الشعر فحسب، وإنما حتى على مستوى النصوص التاريخية الثابتة فهذا هو الكاتب المصري المعروف محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد بطبعته الأولى يثبت نصاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند اجتماعه بأهل بيته يقول: (وخليفتي من بعدي) من جملة ما اشار به إلى مواصفات الإمام علي عليه السلام، ثم يحذف هذا النص بالطبعات اللاحقة بناء على مساومة مفضوحة، وتجارة خاسرة بتاريخ الأمة وحضارتها العريقة.

ومثل هذا مافعله هؤلاء الأمناء بديوان المتنبي، يقول العلامة الجليل الأستاذ السيد محمد عبد الحكيم الصافي في ذكرياته مع السيد المترجم - وكانت تربطهما أواصر صداقة حميمة - مانصه: أذكر أني كنت معه رضوان الله عليه في المكتبة المركزية في البصرة، وكانت تضم أكثر من أربعة وعشرين ألف كتاب تقريباً، واستقبلنا أمين المكتبة محي الدين الرفاعي، وجرى الكلام عن الكتب والمكتبات والمخطوطات إلى أن وصل الكلام إلى أبي الطيب المتنبي، وظهر الاستياء على وجهه رضوان الله عليه وهو يتحدث عن المتنبي، وقال لأمين المكتبة، من المؤسف الخيانة الأدبية التي ارتكبها بعض الكتاب بأقلامهم الظالمة، فأستفزّه ثم قال لأن كل ذكر لعلي عليه السلام في ديوان المتنبي الطبعات الأخيرة حذف منها وهو بدءاً من:

وتركتُ مدحي للوصيِّ تعمّداً إذْ كانَ نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطالَ الشيءُ قامَ بنفسهِ وصفاتُ ضوءِ الشمسِ تذهبُ باطلا

وكذلك هناك أنصاف أبيات على وجه التمثيل والتشبيه كانت موجودة بكثرة، فأجاب محي الدين في مكتبتنا أقدم طبعة وأحدث طبعة وبإيماءة منه ولكثرة الموظفين في المكتبة جاؤوا بكل الطبعات الموجودة وفعلاً كما قال رضوان الله عليه فبهت محي الدين وقال حقيقة إنها لجريمة نكراء جداً(١).

وفي الواقع ليس كثيراً على المتنبي أن يطري علياً. ويثني عليه، ويفخر بذكره، ويعتز بإيمانه بوصيته، وهو الذي تأثر بفكره وحكمه وفلسفته حتى صار فيلسوف الشعراء وحكيم الأدباء بما اقتبس من باب مدينة علم النبوة، من حكم وتعاليم، والمتنبي على ماهو عليه من المقام الرفيع والمكانة السامية ليس غمطاً لمكانته، ولاتجاهلاً لعظمته الشعرية عندما أثبت السيد المترجم أنه صاغ حكيميات الامام علي شعراً واقتبس المعاني واستوحى الأفكار من تلكم الحكميات الخالدة فعليّ هو منبع الحكمة ومصدرها، وللمتنبي الشرف كل الشرف أن يستقي من هذا المنهل العذب والمنبع الصافي والمقلع الثر.

* * *

ومرت الإشارة إلى أن كثيراً من مؤلفات السيد الحسيني هي من إقتراحات الشيخ كاشف الغطاء، وهنا كذلك كان هو رحمه الله أول من قدح فكرة هذا المشروع بذهنية سيدنا المترجم كما تحدث عن ذلك في هامش المصادر بقوله: تشرفت ذات يوم بمجلس الإمام الفقيد

(١) الموسم ـ العدد العشرون لسنة ١٩٩٤ ـ صفحة ٢٨٦

الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بكربلاء فجرى ذكر ابي الطيب المتنبي، وأظهر أحد الحاضرين إعجابه بحكمياته، فقال الشيخ رحمه الله:

إن المتنبي كثيراً مايصول على حكم الأئمة عليهم السلام، وخصوصاً حكم أمير المؤمنين عليه السلام فيأخذ معانيها ثم ينظمها في أقواله، ثم قال رحمه الله خذ مثلاً: المتنبي يقول:

الظلمُ من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفّةٍ فلعلّة لايظلم

قال: أخذ هذا من قول علي سلام الله عليه (الظلم من كوامن النفوس القوة تبديه والضعف يخفيه)[1].

ثم قال في تقديمه لكتاب مائة شاهد وشاهد: وبقي رأي الشيخ عالقاً ببالي، وكنت أتحين الفرص لإجالة النظر في ديوان المتنبي لاستخراج معاني كلام أمير المؤمنين منه، اعتقاداً مني أن الشيخ لايرسل القول جزافاً، ولايحكم على شيء إلا بعد خبرة وتمحيص، غير أن معاكسات الأوقات، وآلام الأيام حالت بيني وبين بلوغ هذا الغرض، وتحقيق هذه الأمنية، حتى شرفني الأساتذة الأعلام أعضاء مؤسسة نهج البلاغة بالدعوة للمشاركة في المهرجان الألفي لنهج البلاغة، فآثرت أن تكون مشاركتي هذا البحث فاستعرضت ديوان المتنبي وسرحت النظر في أعطافه، فرايت الأمر على ماوصف الشيخ رحمه الله تعالى، واستخرجت منه عدة شواهد انتقيت منها (مائة شاهد وشاهد) كان المتنبي قد أخذ معانيها من كلام أمير المؤمنين أو نظر إليه فيها.

وكان السيد المترجم قد أعد هذا الكتاب ـ كما أوضح في تقديمه ـ

(١) المصادر ١/ ٤٧

تلبية لدعوة وجهت إليه من قبل مؤسسة نهج البلاغة فكان هذا الكتاب هو الذي ناب عنه ومثله في حضور ذلك المؤتمر لما حالت بعض الظروف دون حضوره شخصياً.

وربما لم تصطبغ الدراسة بالشمول والاستيعاب والتقصي لكل الشواهد والحكميات، ولكن حسبه أنه فتح الباب ووضع الأساس للباحثين والمهتمين بهذه الشؤون أن يواصلوا جهودهم وأبحاثهم في هذه العوالم الممتعة.

٤ ـ شرح شرائع الإسلام:

من أشهر الكتب الحوزوية في الفقه الإمامي هو كتاب شرائع الإسلام للمحقق الحلي، فهو من أهم المناهج المقررة في الحوزات العلمية والدراسات الفقهية، والمعاهد الدينية قديماً وحديثاً.

وقد نال هذا الكتاب الشريف قسطاً وافراً من اهتمام العلماء بشرحهم وتعاليقهم عبر السنين المختلفة، إلا أن أسلوب العرض بقي بأمس الحاجة إلى العصرنة والتطوير، بما يتناسب ومتطلبات العصر الحديث، ويساير تطور الحياة السريع في عصر الكمبيوتر وزمن الليزر.

فانبرى السيد المترجم للقيام بهذه المهمة وشمر عن ساعد الجد، وعكف على هذا الكتاب الجليل ليصوغه صياغة جديدة، ويشرحه شرحاً معاصراً، يستوعبه طالب العلم دون تعقيد، وانغلاق في التعبير.

وقد ولد هذا المشروع الكبير عند إقامته مضطراً لظروف قاهرة في دولة البحرين، وهناك تولى تدريس الكتاب المذكور لكوكبة من طلبة العلوم الدينية، وأحس بمسيس الحاجة لإخراج شرائع الإسلام بثوب جديد،

ولباس حديث، وحلة قشيبة، فانغمس في لهوات الفقه، وخاض عباب بحره الطامي ليفك طلاسم التعبير، ويحل عقد المصطلحات بما أوتي من براعة وتخصص وظرف مناسب.

وجدير بالملاحظة أن شروح الشرائع جاوزت اثنين وثمانين شرحاً كما ذكر ذلك الطهراني في الذريعة[1]. بيد أن هذه الشروح يجمعها قاسم مشترك وهو المنطق العلمي الصعب، والمصطلحات الفقهية التي تدور في فلك الفقهاء والعلماء.

أما تحويل الكتاب إلى لغة ميسرة، ولهجة مفهومة، فهذا مابادر إليه السيد المترجم في معالجته وطرحه الجديد.

وقدر لهذه الموسوعة المتمثلة في ثمانية مجلدات أن تطبع في بيروت طبعتها الأولى ١٩٨٨م، وسرعان ماتلاقفتها الأيدي ونفذت من المكتبات، واقتضت الضرورة والحاجة وإلحاح طلبة العلم على السيد المترجم بإعادة طباعته.

وجرت العادة في أغلب المشاريع الدينية عند الشيعة أن يتطوع المحسنون وأهالي البر والخيرات للتبرع بنفقات أي عمل من الأعمال التي يعود نفعها بالخير العميم على العقيدة والمجتمع، ويدخل في ذلك بناء المساجد، وتشييد الحسينيات، وتأسيس المدارس وإنشاء المستشفيات، وطباعة الكتب وتوزيعها وغير ذلك من المشاريع الخيرية العامة، إلا ماخرج بالدليل لبعض الحسابات التجارية والاستثناءات الخاصة.

وبناء على هذا العرف المألوف اتصل السيد المترجم عبر رسالة

(١) الذريعة ١٣/ ٣١٦ ـ ٣٣٢.

اطلعت عليها في حينها لإحدى الجهات الخيرية، موضحاً لهم الحاجة لاعادة طباعة هذا الكتاب، فاستشارت تلك الجهة الخيرية أحد الأعلام من ذوي النفوذ الفاعل، فحال دون تنفيذ المشروع مشككاً بنزاهة السيد وأمانته ومشيراً بمنع الطبع بحجة أن الكتاب مطبوع ولاتحتاجه الحوزات العلمية ـ كما يزعم ـ!!

وبنفس الأسلوب حال دون طباعة كتابي من لايحضره الخطيب وقد وافقت تلك الجهة على طباعته بعد استشارته وموافقته فامتنع لا لشيء سوى الطبع والمزاج وشنشنة أخزم. حتى قيض الله من قام بطباعتهما مشكوراً من الجهات الأخرى من غير من ولا أذى والحمد لله رب العالمين.

٥ ـ تحقيق الشافي للشريف المرتضى:

لاشك أن قضية الإمامة من كبرى القضايا الهامة في الإسلام وترى مدرسة أهل البيت في نظرية الادارة والحكم أن الإمامة هي ركن من أركان العقيدة وأصل من أصول الدين، ولا يخفى أن مصطلح الإمامة رديف لمصطلحات الخلافة والقيادة والزعامة والادارة فهذه كلها تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي قيادة المجتمع وممارسة الإدارة والحكم الإسلامي بإضافة صفة القداسة على الإمامة الشرعية.

ولعل هذه القضية المركزية في العقيدة هي مفترق الطريق ومنعطف الفكر بين الإمامية والمدارس الإسلامية الأخرى. ونشبت عبر التاريخ الطويل معارك ضارية سياسية وفكرية وعلمية وأدبية حول هذه المسالة الحيوية في دنيا العقيدة الاسلامية.

وتصدى علماء الإمامية من موقع الثقة والاقتدار لإحباط كل الدسائس، وتزييف كل الادعاءات والأوهام التي يثيرها المناؤون ضد فكرة الامامة المقدسة.

وكان من بين هؤلاء الاعلام (علم الهدى) الشريف المرتضى أعلي الله مقامه، ما الذي صنف كتاب (الشافي) دفاعاً عن الإمامة، ورداً على كتاب (المغني) للقاضي عبد الجبار الهمداني من مشائخ المعتزلة الذي سلك أسلوب التشنيع والاستخفاف بكيان عقيدتنا ومبادئ أئمتنا، وقد نشر مؤخراً الكتاب المذكور بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود رئيس الأزهر، والدكتور سليمان دنيا، ومراجعة الدكتور ابراهيم مدكور، وإشراف الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي.

بينما بقي الشافي على طبعته الحجرية القديمة التي جاوزت طباعتها المتعبة قرناً من الزمن والتي تحتاج إلى ميكروسكوبات وخرائط ووسائل إيضاح حتى يستطيع الباحث أن يستنتج شيئاً منها.

فبادر السيد المترجم كمبادراته اللوذعية الأخرى لإخراج هذا الكتاب بحلة جديدة متطورة، وتصدى له محققاً ومعلقاً وساهراً على ضبط كلماته وتخريج مصادره وترجمة أعلامه، ثم أخرجه إخراجاً فنياً حديثاً بأربعة مجلدات.

٦ ـ منار الهدى:

كتاب منار الهدى هو الآخر في الإمامة أيضاً لمؤلفه الشيخ علي البحراني الستري، من أشهر علماء البحرين، ولقد مرت على وفاته

أكثر من تسعين عاماً، ويتناول الكتاب قضية الإمامة على ضوء علم الكلام، ومقارنات التاريخ، ويعتبر الكتاب بمجمله رداً وتفنيداً لبعض المزاعم والادعاءات المرفوضة لابن أبي الحديد المعتزلي، والقوشجي الأشعري بالأدلة العلمية، والبراهين القاطعة، والحجج الدامغة، إلا أنه بأسلوب شديد اللهجة، حاد التعبير، فأعاد السيد بناءه على أصوله وأسسه القديمة ولكن بديكور جديد، وتنقيح علمي، ولهجة مسالمة، وأسلوب حضاري مع الحفاظ على المضمون والحرص على سلامة المحتوى، وهذا ماسجله السيد في مقدمة الكتاب عندما تحدث عن لقاءه الأول في كربلاء ثم التقاه ثانية في البحرين بعد فراق دام أربعين عاماً فقال:

كنت قد اطلعت على هذا الكتاب مصادفة قبل أربعين عاماً تقريباً في مكتبة أحد الأعلام في كربلاء، فتصفحت جملاً من فصوله في صفحات مختلفة فاستحسنت بعضها، وراقني كثير منها، ثم لم أره بعد ذلك إلا قبل ثلاث سنوات أثناء اقامتي في البحرين فهاجت بي الذكرى، وأخذني الحنين إلى أيام الشباب، فأعدت النظر فيه، فرأيت أن أخرج مصادره، وأعلق عليه، ففطنت لشيء فيه هو أن المؤلف قوي الحجة، ناصع البرهان، إلا أنه في لهجته شيئاً من الغلظة والشدة على خصميه المعتزلي والقوشجي، كنت أتمنى لو أنه كان لين العريكة معهما فرأيت أن أخفف منها وألطف بعضها بشيء من التنقيح والتهذيب على ألا أغير شيئا من معناه وإن تغير شيء من مبناه[1].

---

(١) منار الهدى / ٩

٧ ـ تحقيق كتاب الغارات للثقفي:

الغارات عنوان لأكثر من كتاب واحد فقد استخدمه كثير من المؤلفين عنواناً وهوية لتأليفهم وتصنيفهم، ومن بين هؤلاء كان أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي الكوفي الأصبهاني، والمقصود من مصطلح الغارات هي الغارات العسكرية لجند معاوية على الأقطار الخاضعة لنفوذ الامام علي عليه السلام، وسلطان دولته الاسلامية، ومن ثم اعلان الإمام حالة الطوارئ والاستنفار في صفوف معسكره لمواجهة القوات الغازية، وصد الهجمات الجبانة على العزل والأبرياء، وماصاحب ذلك من أحداث ولقطات تاريخية.

ويبدو من خلال تحقيق الخبراء ودراساتهم أن الشيخ المجلسي صاحب البحار اتخذ من هذا الكتاب مصدراً استقى منه كثيراً من الأحداث والمعلومات، وكذلك اعتمده ابن أبي الحديد في شرح النهج مرجعاً هاماً نقل عنه جملة من المقاطع والفصول المهمة. وكان كثير من الباحثين يعتقدون أن كتاب الغارات من الكتب البائدة التي انقرضت بتراكم القرون وتعاقب السنين.

حتى جاء منطق التحقيق العلمي لهذا الزعم البائد فأباده، وأعاد الحياة للكتاب المذكور، وكان السيد الحسيني في مقدمة الباحثين المحققين، فقد بذل جهداً كبيراً في مقارنات النسخ الخطية، ومقابلات الكتب المطبوعة ذات الشأن والعلاقة المباشرة حتى ولد كتاب الغارات من جديد.

وللسيد المترجم مؤلفات مخطوطة، وكم أتمنى أن يوضع اقتراح سماحة الشيخ محمد باقر الناصري حفظه الله موضع التنفيذ عندما قال في نهاية كلمته التأبينية القيمة: ووفاءاً لفقيدنا الغالي ولجهوده

التاريخية المضيئة التي بذلها في خدمة العلم، ومدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتعبيراً منا عن التأبين الواعي، وليبقى الفقيد حياً شاخصاً في ساحات العلم والجهاد الفكري، كما كان بالأمس، أدعو إخواني أصحاب الفضيلة العلماء والخطباء والمفكرين ومحبي الفقيد إلى تشكيل لجنة علمية تنهض بمهمة تحقيق مؤلفاته التي يعرف الجميع أهميتها، خاصة مالم يطبع منها، وإعداده ونشره ليكون هديته لمدرسة أهل البيت في الذكرى الأولى لرحيله[1].

وهذه لائحة بأهم تراثه المخطوط:

١ ـ مصادر الحكم المنثورة.

٢ ـ مختصر معجم الأدباء للحموي.

٣ ـ كشكول الحسيني.

٤ ـ مذكرات.

كما أشرف على مجموعة من الكتب والمؤلفات، وكان بعضها من مقترحاته ككتاب مقاتل الأمويين الذي قام بتنفيذه الأستاذ الباحث السيد محمد طاهر الحسيني بمراجعة السيد المترجم.

وكتب مقدمة رائعة لكتابي من لايحضره الخطيب الجزء الثاني ضمنها خبرته الواسعة عن المنبر ورجاله وتاريخه.

وقدم لكتاب (دستور معالم الحكم) للقضاعي الشافعي. وراجع كتاب تاريخ الأحمدي الذي حققه الأستاذ الطريحي صاحب الموسم، وكذلك راجع الكتاب النفيس لابن عقيل الموسوم بالنصائح الكافية

(١) الموسم ـ العدد العشرون لسنة ١٩٩٤ ـ صفحة ٢٧٤

تحقيق غالب الشاهبندر وشرفني بحسن ظنه أن أناط بي مهمة تحقيق ديوان الحاج هاشم الكعبي، وقد سلمني أربعة دفاتر ضمنها المواد الخام للديوان المذكـــور، وشرعت في عملي الطويل الشـــائك أسأل الله أن يعينني على انجازه بأقرب فرصة إن شاء الله.

كما أعطاني رحمه الله نسخة من كتاب مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي طباعة دار الأضواء - بيروت - لازلت أحتفظ بها مصححة بقلمه، منقحة بخط يده دققها حرفاً حرفاً، لم يغفل أيَّ شاردة وواردة من الاشارات والحركات والرموز والهمزات، من أول الكتاب إلى آخرة، وهو أكثر من ثمانمائة صفحة بالقطع الكبير، وصدره برساله معنونة إلى دار الأضواء من ثلاث صحائف كتبت على الغلاف والورقة الأولى من الكتاب وذكر من جملة مقاطعها حديثاً للشيخ الأميني قدس سره مانصه: حدثني شيخنا الأميني قدس سره صاحب كتاب الغدير قال إنّ الحاج عباس القمي رحمه الله لما صنف مفاتيح الجنان، لم يرض عن نفسه، باعتبار أن الكتاب أخذ كثيراً من وقته، وكان ينبغي أن يصرف ذلك فيما هو أهم - بحسب نظره - لأن كتب الأدعية كثيرة والناس منها في كفاية، قال الأميني رحمه الله وسبحان الله لم يوفق كتاب من كتب الشيخ عباس مثلما وفق كتاب مفاتيح الجنان فقد طبع عشرات المرات بمختلف الأحجام والأشكال[1] وكانت ديباجة الكتاب مكتوب عليها: مفاتيح الجنان ويليه كتاب الباقيات الصالحات تأليف الشيخ عباس القمي طاب ثراه فاضاف السيد إليه: نقله إلى العربية السيد

---

(١) مفاتيح الجنان النسخة الخاصة المصححة بقلم السيد المترجم، الصفحة الأولى.

محمد رضا النوري النجفي راجعه وصححه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب.

ويعتبر هذا الكتاب مستنداً ووثيقة على قوة املائه ودقة ملاحظته لكل قواعد الاملاء وأصول الطباعة الفنية ولا أدري لماذا أعرض رحمه الله عن دفعه لدار الأضواء لاعادة طباعته مصححاً مع شدة حرصه على ذلك. ولو أمهله القدر لقدم المزيد من الخدمات الجليلة ونفذ الكثير من المشاريع العلمية التي اختمرت في ذهنه وتفكيره، كشرح المكاسب، والتصحيف والتحريف، وحياة عمر بن عبد العزيز، ومسرحية حول كربلاء. ولكن شاءت إرادة الله ولاراد لإشاءته أن تختطفه يد المنون وهو يمد المجتمع بعطائه، ويرفد العقيدة بخدماته المشكورة.

وإلى هنا ينتهي بناء المطاف عن آثاره الخالدة، ويتلخص لنا أن حياته الكريمة حافلة بالانتاج والعطاء العلمي. زاخرة بالعمل والتحقيق، وقد خلف تراثاً عظيماً وآثاراً جليلة وعوداً على بدء نقول مرة أخرى:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

* * *

التاريخ السياسي:

عند التوقف في المحطة السياسية للسيد المترجم لابد من الاذعان أن السبيل شائك، والطريق شاق ووعر، والحديث ذو شجون في التشعب وترامي الأطراف، ولايسعنا في هذا العرض السريع إلا محاولة ضغط الحديث، وتلخيصه في الخطوط العريضة والمعالم الرئيسة علماً

بأننا لايمكن أن نتصور أن شخصية من هذا الطراز والثقل الاجتماعي، وبهذه المكانة الخطيرة، ليس لها أي تطلعات أو مواقف سياسية عبر تاريخها الطويل، وليس بالضرورة إلا أن يرفع الإنسان لواءاً صارخاً في كل أدوار حياته، فهناك حالات من المد والجزر تقتضيها أصول الحكمة والحنكة وتعقل الأمور، والنظرة البعيدة الصائبة، وماكانت السياسة المسؤولة يوماً من الأيام تهريجاً فاضحاً أو استهلاكاً محلياً أو دعاوى فارغة واللعب على عدة حبال، واستغلال محنة المجتمع المسحوق وظروفه القاسية.

وإنما السياسة هي الموقف الشرعي المبدئي الثابت، والشعور المتغلغل في أعماق الضمير، والاحساس المتدفق مع الدماء في العروق والشرايين.

وكم مرت علينا من التجارب العملية والأمثلة الحية لشخصيات مذبذبة، وواجهات متسكعة نزلت عوالم السياسة متى ماكانت تلك العوالم بقرة حلوب، ولما جف ضرعها نحرتها على غير القبلة بكل صفاقة وجه، وصلافة عين وحماقة طبع دون الالتفات إلى الماضي القريب، ومسؤولية المحنة وبؤس المجتمع المحطم!!

لقد كان السيد المترجم تاريخاً شريفاً ناصعاً وموقفاً متألقاً لامعاً في حياته السياسية ورفضه المطلق لكل شكل من أشكال الشر والطغيان والباطل سلباً وايجاباً.

وتمر على ذاكرتي كالحلم محاصرته في المسجد الكبير بالخضر مع ثلّة من إخوانه ورفاقه أيام التهور الشيوعي، وإني لأتذكر الغوغاء الأرعن والأوباش من عناصرهم وأزلامهم وكيف يحملون الصخور والأحجار بأيديهم وأطراف ثيابهم ليقذفوا الأبواب والنوافذ لبيت

السيد، والبيوت الأخرى الموالية له إمعاناً في التحدي والمواجهة، فكان هو كالطود الشامخ في صبره وصلابته وجلده وشجاعته، وقوة مواقفه المبدئية.

كان يكافح المبادئ الهدامة والحركات الملحدة الفاسدة بما أوتي من قوة وبكل جرأة على المنائر والمنابر.

يقول الشيخ الناصري أثناء حديثه عن المرحلة السياسية الأولى للسيد المترجم مانصه: حتى إذا بدت بوادر الصحوة الاسلامية في أوائل الخمسينات في عراقنا المسلم على أنقاض الأفكار الإلحادية الوافدة، وفي أعقاب سقوط الثقافات الغربية المادية المستوردة، وتلاشي بريقها تحت محك التجارب المأسوية المريرة، من الغزاة والمحتلين حملة الصليبية والماسونية والصهيونية، وماكشفته تجاربنا المريرة معه أعقاب واقعة الشعيبة وثورة العشرين، وما تلاهما من الحركات والانتفاضات المتواصلة حتى سقوط الملكية، وقيام الحكم العسكري في الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، وفي هذه المرحلة بالذات كانت الصحوة الإسلامية قد تجذرت واشتد عودها، وصارت حقيقة في ميدان الصراع، وهدفاً من أهداف الالحاد والظلم والفساد.

وهنا جاءت المرحلة الثانية إذا صح التعبير من مراحل التأصيل الإسلامي، والفرز الدقيق للأوراق المخلوطة والشعارات المشبوهة.

وكان سيدنا الراحل علماً من أعلام هذه المرحلة، وفارساً من فرسانها في الذود عن الدين والأمة والبلاد وتحصين الأمة ضد ذوي العاهات والمبادئ الهادمة والرياح الهوج التي عصفت بالأمة في مواجهة شرسة مفضوحة ضد الدين والأخلاق والمثل... وكان للحجة

الراحل السيد عبد الزهراء نور الله ضريحه الدور البارز في جنوب العراق ووسطه ضمن أهم المناسبات والمواسم وعبر الخطابات والكتابات النارية المتواصلة، واستمر رحمه الله بقلمه ولسانه، وبكل ما أتاه الله حامياً من حماة الشريعة، ولساناً من ألسنتها الصادقة حتى إذا اندحر الكفر وهزمت الرذيلة وولوا الدبر وانتعشت الصحوة الاسلامية، فكان أحد أدواتها الفاعلة في اعادة بناء الأمة بناءاً رسالياً حديثاً، وأحد أهم وأكفأ وكلاء المرجعية الدينية ولسانها المعبر خلال ربع قرن أو تزيد.. وحين تلبدت وتوالت المحن واشتدت الملاحقة للعلماء والأحرار من أبناء العراق، فكانت الهجرة مكانه الطبيعي مستنكراً لذاته القعود في ظل الظلمة مردداً ماقاله جده الحسين... والحياة مع الظالمين إلا برما، فعاش متنقلاً بين عدد من البلاد العربية والاسلامية، لم تنسه الهجرة والغربة عن أداء دوره في دعم مسيرة الأمة وتسديدها بلسانه وقلمه[1].

أجل لقد تجرع مرارة الغربة في دور شيخوخته وهو بأمس الحاجة إلى من يرعاه ويقوم بخدمته وهزته خطوب وأحداث لو كانت على جبل لذاب وتدكدك، ولكنه اعتاد أن يستقبل الشدائد والصعاب بثغر باسم ومحيا طلق بما يمتلك من رصيد في الإيمان العميق، وهدوء في النفس الآمنة المطمئنة حتى وفد على ربه راضياً مرضياً يوم الجمعة في العاشر من رجب عام ١٤١٤ هـ الموافق ١٩٩٣/١٢/٢٤ ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[2].

---

(١) الموسم - العدد العشرون لسنة ١٩٩٤ - صفحة ٢٧٣

(٢) تحدثت عن وفاته في كلمتي (لوعة الذكريات) المطبوعة في أول هذه الترجمة.

محافل تأبينه:

تجاوبت عليه المهاجر العراقية، والجاليات الاسلامية مآتماً للعزاء، ومحافلاً للتكريم منذ أن ذاع نعي رحيله وإلى ذكرى أربعينه، وكان الاحتفال المركزي لتأبينه في دمشق حيث يرقد بجوار ابنة الزهراء، وحيث تتواجد أسرته وأولاده، فتسابق الخطباء، وتبارى الشعراء والأدباء بحرارة ولوعة لتأبين سيادته. وأول من أبنه في موكب التشييع، وعلى شفير القبر في ساعة دفنه صديقه الوفي سماحة الشيخ محمد جواد السهلاني بقطعة شعرية مؤثرة أحرقت القلوب وفجّرت العيون، ثم أعقبه الخطيب السيد عامر الحلو بكلمة ارتجالية.

وفي اقامة مجلس الفاتحة الأولى أبّنَهْ الأستاذ الشيخ جعفر الهلالي بمجلس عزاء، شارك فيه الدكتور أسعد علي بكلمة قيّمة، وسعادة السفير الإيراني سماحة الشيخ الأختري بكلمة أخرى.

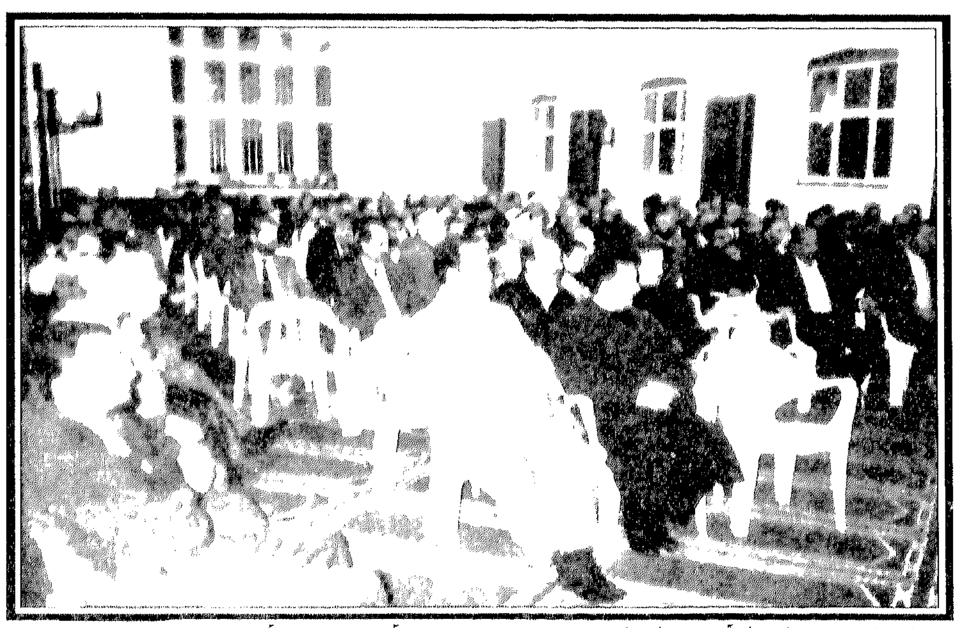
وفي ختام فاتحة الأسرة وقف الأستاذ الوائلي مؤبناً حزيناً بكلمة ارتجالية، ومن بعده قصيدتان عامرتان إحداهما للأستاذ الهلالي والثانية للدكتور أسعد علي، ثم شكر الأستاذ عبد الحسين الحسيني النجل الثاني للسيد المترجم الجمهور على مشاركته ومواساته، وكان لي شرف الختام بمجلس عزاء في التأبين والأسف.

وبعد ذلك تسلسلت المجالس والفواتح، واستمرت لعشرين يوماً شاركت فيها مختلف الطبقات الاجتماعية وتميزت بظاهرة كثافة الحضور في كل أيامها، وماذلك إلا لما يمتلك السيد من رصيد كبير في القلوب والمشاعر.

وقد فصلت مجلة الموسم العزاء في ملفها الخاص بذكرى السيد



لقطة من محفل التأبين المقام في القاعة الكبرى لحسينية السيد الواحدي.



لقطة للاحتفال التأبيني في لندن بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته.

المترجم في العدد العشرين لسنة ١٩٩٤ ، وتحدثت عن تلك المجالس وما ألقي فيها من مواد نثرية وشعرية، ومن ساهم من الشخصيات والرموز العلمية والأدبية والاجتماعية، وكذلك وضعت أحصائية عامة لكل المحافل التي أقيمت لتكريم السيد المترجم في بعض الدول العربية والاسلامية ودول المهاجر العراقية في أوربا وغيرها، ولسان حالها يردد مع سيادة الدكتور السيد مصطفى جمال الدين قوله :

مات وهج الربيع مغترب العطر	فقصّت جذورها الأعراق
وبكاه الفرات حزناً وجزّتْ	شعرها حوله النخيل العتاق
لك في كلِّ مقلةٍ دمعة حرّى	وفي كلّ سامرٍ إطراق
كنت نبض القلوب شتى فلم يحجـ	ـزك حزب ولا ادعتك رفاق
شائع النبل لم يصنف قريباً	أو بعيداً نميرك الدفّاق[1]

* * *

مرقده:

مرقدٌ ضمَّ سيّد الخطباءِ	قف عليه بلوعةٍ وبكاءِ
وترحم واتلو على القبر ذكراً	فهو ثاوٍ في روضةٍ غنّاءِ
والثم الترب إذ تضمن جسماً	هو عزُّ الصديقةِ الزهراء
جنّةُ الخلدِ قبره وهو فيها	يعقدُ اليومَ مأتماً للعزاء
وهو فيه الخطيب ينعى حسيناً	وينادي يا سيد الشهداء

(١) من قصيدة عصماء في تأبين المترجم في الديوان صفحة ٢٩٧ مطلعها:

كيف تنسى دموعها الآماق | والفقيدان نبله والعراق

(واحسيناً فلا نسيت حسيناً أقصدته أسنّةُ الأعداء)
آه عبد الزهراء مت غريباً كالحسين الغريب في كربلاء
لم توارى الثرى بقرب عليٍّ أنت في قرب زينب الحوراء
لك قبر يشاد بين ضلوعي والمقام الكريم في أحشائي
وبتاريخ (شخصك العزّ لما راح عبد الزهراء للزهراء)
١٩٩٣ م.

إلى جوار بطلة كربلاء زينب ابنة أمير المؤمنين عليهما السلام ثوى السيد المترجم في روضة مقدسة، وآوى إلى جنة المأوى، واستقر في مقرّه الأخير سعيداً مخلداً وقد أرخت وفاته وقبره بتاريخين مختلفين أحدهما هجرياً والآخر ميلادياً، وقد رفع التاريخ الأول في محفل تأبينه بلافتة عريضة على منبر التأبين ومنصّة الخطابة خط عليها:

ومصادر: (التاريخ طاح عمادها قد مات من هو للمصادر مصدر)
١٤١٤ هـ.

وخصص التاريخ الثاني ليرفع على شاخصة القبر الكريم، وقد استغرق قيام تلك الشاخصة وعمارة القبر إلى الذكرى السنوية الأولى لرحيله.

ولما تكامل بناء المرقد الطاهر، ووضعت اللوحة في واجهته أهملت الأبيات وأقصي التاريخ وحزَّ ذلك في نفسي، وأثر في خاطري. إن تلك الأبيات المؤرخة كتبتها بمزيج الدمع والدم، وسطرتها بالزفرات والألم وسكبت فيها خلاصة العواطف، وعصارة المشاعر، وكم كان أسفي شديداً أن يتصدى من بيده الحل والعقد



جثمان السيد الفقيد يحمل على الرؤوس إلى مثواه الأخير بجوار السيدة زينب عليها السلام.



لجنة محفل التأبين للسيد الفقيد تتألف من الأستاذ عبدالحسين الحسيني النجل الثاني للسيد المترجم وهو يتوسط الدكتور جمال الدين والمؤلف.

عن عمد وسبق إصرار أو على الأقل عن تجاهل وعدم اعتناء أو اهتمام متذرعاً ومتعللاً بأعذار لم أقتنع بها كل ذلك قربة وتزلفاً إليه تعالى!!.

وأنا أقطع لو كان بيتاً واحداً - ولو كان مهلهلاً - لبعض الواجهات العريضة، واللافتات الضخمة والأسماء الرنانة، ينظم لهذا الغرض لتحول المستحيل إلى ممكن، ولنحت ذلك البيت على الصخر الأصم.

ولا يهمني الإجحاف والتنكر لطبيعة العلاقة ووشائج القربى بمقدار ما يهمني سلامة النيّة، وارتياح الضمير وأداء الحقوق وإذا كان البعض قدّم الأذناب على القوادم واستبدل بالهوامش والذيول الصدور والدعائم، فلعمري ذلك العقوق بعينه لفقيدنا ميتاً كما عقّه البعض حياً، ومن ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد.

رحمك الله يا أبا الجميع، رحمكَ الله يا أبا المكارم والفضائل، وقدس الله نفسك الزكية، وعطر الله مرقدك، ونوّر ضريحك في جنة الخلد راضياًمرضياً وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

لائحة المصادر:

١ ـ الأنبياء للحسني
٢ ـ أدب الطف لشبّر
٣ ـ أدب المنبر للمؤلف
٤ ـ تفسير الميزان للطباطبائي.
٥ ـ تاج العروس للزبيدي
٦ ـ تفسير الكاشف لمغنيه
٧ ـ شرائع الاسلام شرح المترجم.
٨ ـ الخضر بين الواقع والتهويل ليوسف.
٩ ـ الخضر بين الحقيقة والخيال لقنبس
١٠ ـ خطباء المنبر الحسيني للمرجاني
١١ ـ الغارات للثقفي تحقيق المترجم
١٢ ـ المنجد لمعلوف
١٣ ـ منار الهدى للستري تحقيق المترجم.
١٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لعبد الباقي.
١٥ ـ مصادر نهج البلاغة وأسانيده للمترجم
١٦ ـ من لايحضره الخطيب للمؤلف.

١٧ ـ ماضي النجف وحاضرها لمحبوبة.
١٨ ـ مجلة الموسم للطريحي.
١٩ ـ من وحي القرآن للسيد فضل الله.
٢٠ ـ مائة شاهد وشاهد للمترجم.
٢١ ـ معلومات وذكريات خاصة للمؤلف.
٢٢ ـ المراجعات الريحانية.